محمد صلى الله عليه وسلم

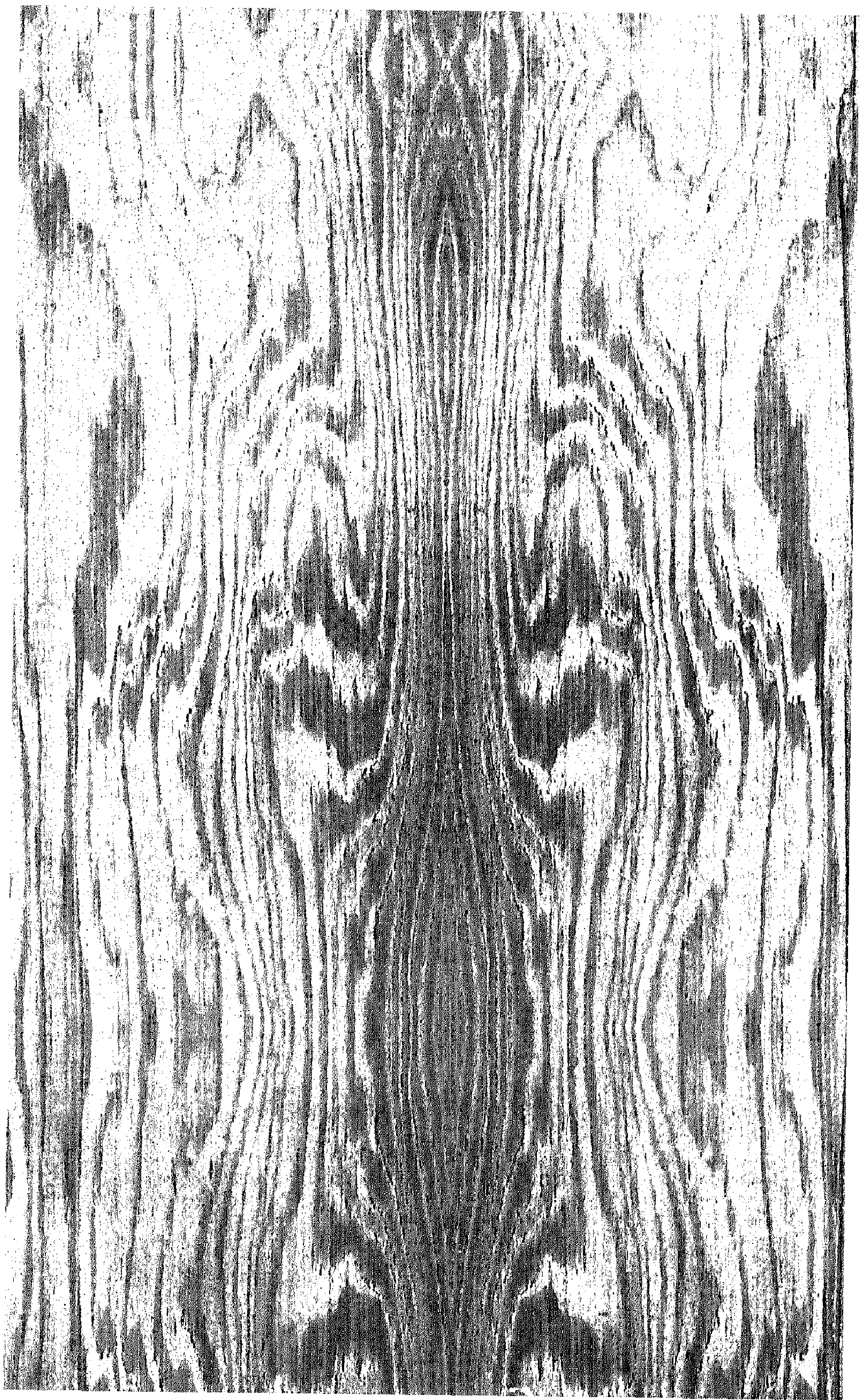
في صحف الأولين وقطوف من السيرة المحمدية

الجزء الأول

إعداد

محاسن الأسكندراني







فى صحف الأولين
وقطوف من السيرة المحمدية

إعداد

محاسن الاسكندرانى

الجزء الأول

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٢٢٩٧٥
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-17-4065-2

الإهداء

أهدى تلك الومضات من حياة الرسول ﷺ إلى :

خالى خليل أبو الفرج أبى الروحى الذى رعانى أدبيا فى طفولتى وغرس فى حب القراءة والكتابة حتى أصبحت هى كل حياتى

وإلى زوجى الفاضل الذى شجعنى ووقف بجوارى يساندنى بالكتب والمراجع وبكل عون أعاننى ولم يبخل على بشىء

وإلى الشيخ الفاضل محمد متولى الشعراوى الذى هدانى بفضل الله إلى طريق الحق ونور الأنوار.

وإلى الأستاذ الفاضل الحاج محمد عبد الفتاح شلبى لتفضلة بمراجعة الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

المقدمة

ومضات من حياة الرسول ﷺ

نسمات عطرة من حياة الحبيب ﷺ

ونور وأنوار من حياة سيدنا رسول الله ﷺ

دونتها أقلام طاهرة لعلماء كرام لتهدينا السبيل إلى الله.. سرنا على منوالهم تنهل من معلوماتهم ونستنير بنور القرآن الكريم الذى أنزله عليه ﷺ ونقتدى بمن تخلق بالقرآن ونتأسى به... ونسير على نور نهجه ونستنير به لنهتك أستار ظلمات جهل ، وبدع، وإنحرافات، ونمزق ما نسجه الغفلة عن الأعين من جهالة وجحود.... ونعود لنسير على الطريق المستقيم الذى سار عليه سيدنا وحبيبنا ... وقائدنا.. ومعلمنا ﷺ.

★★★

(٢)

إذا اردنا أن نكتب عن رسول الله ﷺ .. فإننا نحتاج إلى مجلدات كثيرة.. ذلك لأن سيرة الرسول ﷺ ، ونواحى العظمة فى حياته لا تنتهى ولكننا سنحاول وبكل تواضع - أن نغوص فى بحور كتب خطها علماء عظام بعد جهد شاق، وبحث وتنقيب.. حتى نقدم لمحات أو خواطر... أو ومضات من سيرة الرسول ﷺ

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن محمد ﷺ وسيرته العطرة نريد أن نتساءل ما هى الصورة التى نريد أن نرسمها فى هذا الكتاب؟

ونريد أن نقول أن هذه الصورة التى نحاول رسمها ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة . إنها صورة نحاول جاهدين أن تكون مستمدة من التاريخ

الصحيح... بيد أننا نعود فنقول .. إننا لا نرسم صورة كاملة، فالصورة الكاملة لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها... فأنى لنا ذلك ؟؟ !!

إنما نحاول وبفضل الله وعونه رسم جملة من الزوايا... شاعرين بتقصيرنا.. معترفين بعجزنا... بيد أن الأمل كبير فى عون الله..

وأن تكون على ما فيها من عجز وقصور ممثلة لبعض ما نكنه لسيد ولد آدم علية السلام من حب وإيمان.. وأن تكون لذلك شفيعة لنا عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

★★★

(٣)

وأيضا قبل أن نبدا فى الحديث عنهﷺ نرى أن نبدأ بالتعريف عن كيف تم إعداد الكون لرسالة محمد ﷺ ؟ ؟

فالله سبحانه وتعالى أعد هذا الكون كله لاستقبال رساله خاتم الأنبياء ومنهج الله الذى سيقوم النبى ﷺ بإبلاغه إلى أهل الأرض ومنذ بدايه الخلق كان إسم محمد ﷺ والإعداد لرسالته .. فمنذ عهد آدم كان المنهج هو الإسلام، فالمنهج الذى نزل به آدم الى الأرض وتلقاه من الحق سبحانه وتعالى مباشرة كان إسلام الوجه لله.. وإسلام الأمر لله.. ذلك هو منهج السماء منذ بدأ الخلق حتى قيام الساعة.. وكل الأنبياء الذين جاءوا بالرسالات السماوية إنما كانوا يبشرون برسالة محمدﷺ وإذا قرأنا القرآن نجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول « **وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**»[1] .

---

(١) آل عمران الآية ٨١ .

هكذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم.. أنه أخذ على كل النبيين عهدا بالتبشير بمجيىء رسول الله ﷺ وبتصديق رسالته.. وإذا كان الحق جل جلاله قد أخذ هذا الميثاق مرة واحدة بأن جميع النبيين وهم فى عالم الذر قد أخذ عليهم الميثاق فالثابت أن كل نبى من النبيين أخذ عليه ميثاق بأن يبلغ أتباعه والمؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم.. فالحق سبحانه وتعالى قد أخذ من أصلاب بنى آدم الذرية.التى ستأتى حتى يوم القيامة .. وأشهدهم على نفسه وعلى ربوبيتة .. وذلك مصدقا لقوله تعالى : «**وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا**»

ولذلك جاء فى الأثر مما يروى عن ميسرة رضى الله عنه حين سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله متى كنت نبيا ؟

فأجاب رسول الله ﷺ (وآدم بين الروح والجسد حين أخذ الله منى الميثاق)

وهكذا شهد رسول الله ﷺ بربوبية الخالق الأعظم مع الخلق جميعا وآدم بين الروح والجسد .

★★★

(٤)

وبين آدم عليه السلام وبين محمد ﷺ جاء موكب الرسل يهدى إلى طريق الحق .. حتى لا يأتى أحد يوم القيامة مجادلا بأنه لم يكن هناك مذكر بمنهج الله، أو مبشر ومنذر بما سيلقاه الإنسان فى الآخرة... ولقد حمل آدم منهج الله إلى الأرض بتكليف من الله سبحانه وتعالى، وكان من المفروض أن يلقن أولاده المنهج .. وأولاده يلقنون أولادهم وهكذا ... ولكن الغفلة أصابت ذرية آدم ، فانحرفوا عن المنهج أو نسوه !! أو حرفوه !! وسجدوا

لغير الله فكان لابد أن تتدخل السماء بموكب الرسل ، ليفيق الإنسان من الغفلة.. ويتذكر أن الله هو المعبود .. وهو الخالق .. ولذلك جاءت رسالات السماء في موكب واحد كلها تبشر بالإسلام .. وكلها منهجها الإسلام وبأن يعبد الناس إلها واحداً لا إله غيره ، ولا شريك له .. وأن يتخذوا منهج الله طريق حياتهم ينجيهم من العذاب .

بشارة أبراهيم بمحمد ﷺ

عندما وقف إبراهيم عليه السلام وهو يقيم القواعد من البيت ويرفع يديه إلى السماء ويقول « **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** »[1] وهكذا كانت إستجابة دعوة إبراهيم بلاغا للبشر بالنبى الخاتم والبشارة برسول الله ﷺ موجودة فى كل كتاب سابق للقرآن .

ففى التوراة يخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن ذلك فيقول جل جلاله وهو يخاطب موسى « **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث[2] ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم** » .

وعيسى عليه السلام بشر برسالة محمد ﷺ مصدقا لقوله تعالى :
«**وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد**»[3] .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٩ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(٣) سورة الصف آية ٦ .

حالة العالم الاجتماعية قبل الاسلام

يقول الشيخ محمد الغزالى :

إن تاريخ الحياة مؤسف .. فمنذ هبط آدم وبنوه إلى الأرض، ثم بعد أن شبَّ بهم الزمن واطرد العمر.. وتشعبت الحضارات.. وأدبرت أجيال، وأقبلت على أنقاضها أخرى.. منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاط متنافرون لا تستقيم بهم السبل يوما إلا شردت أياماً ، ولا يشيمون بوارق الحق حينا إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحيانا .

ولو تقصينا تاريخ البشر على ضوء الإيمان بالله والإستعداد للقائه لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سُكْرِه على فترات صَحْوِه ، أو بمحموم غاب - فى سورة - الألم رشده فهو يهذى ولا يدرى. ولقد كان فى تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مُزْدَجَر يَزَعُ عن الشر ويرد إلى الخير، بيد أن الهوى الغالب لا تُجدى معه معرفة .

كم سَلَخَتْ الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد ﷺ؟ ؟

لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها عِلماً كثيرا.. ووعت تجارب خطيرة ونمت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار.. ومع ذلك فقد غلب الطيش واستحكم، وسقطت أمم شتى دون المكانة المنشودة لها.

فماذا مثلا كان مصير الحضارة فى مصر واليونان، وفى الهند والصين، وفى فارس وفى رومة، ولا أقصد من ناحية السياسة والحكم بل من ناحية العاطفة والعقل؟... إن الوثنية الوضيعة أغتالتها وفرضت عليها السقوط فى هذه الوهدة الزرية .

فأمسى الإنسان الذى إستخلفة الله ليكون ملكاً فى الأرض.. أمسى عبدا مسخرا لأدنى شيء!! وماذا بعد أن تُقدس العجول والأبقار.. وتعبد الأخشاب والأحجار؟!!

ولنذكر حال أوربا مثلا:

يقول المؤرخ العالمي هـ . جـ . ويلز فى كتاب (معالم تاريخ الانسانية). عن حالة أوربا فى عام ٥٠٠ ميلادية أى فى القرن السابق لرسالة الاسلام[١] ما نصه : «كانت الحياة اليومية لذلك الزمان تتقلب فى مستوى خفيض جدا ولا جرم من النواحى الجثمانية والذهنية والخلقية، وكثيرا ما يقال إن أوربا قد إنحدرت إلى الهمجية فى القرنين السادس والسابع.. بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال، والأصح كثيراً أن يقال إن مدنية الامبراطورية الرومانية قد إنتقلت إلى دور إنحلال خلقى متطرف .

والهمجية «البربرية» نظام إجتماعى ذو طراز أولى منظم داخل حدوده، بيدأن حالة أوربا من دون أشلائها السياسية كانت حالة فوضى إجتماعية .

ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين بجنوب أفريقيا بل معنويات حى فقير فى إحدى المدن. ففى القرية المتوحشة يعرف المتوحش أنه ينتمى إلى مجتمع ويعيش ويتصرف وفقا لهذا، أما فى حى الفقراء فإن الفرد لا يعرف أى كائن أكبر منه، ولا يتصرف ناظرا للعلاقة بذلك الفرد. إننا نعرف عن ذلك العصر قدرا يكفل لنا أن نخبرك بأنه لم يكن مجرد عصر من الحرب واللصوصية بل عصر مجاعة ووباء. فإن تخريب (أتيلا)

---

(١) عن كتاب محمد رسولا نبيا لعبد الرزاق نوفل .

لإيــطاليا الشمالية أوقفة إنتشار الحمى فى عام ٤٥٢، وحدث وباء عظيم من الطاعون قرب نهاية حكم «جستنيان» عام ٥٦٥ كان له أثر كبير فى إضعاف دفاع إيطاليا ضد (اللومبارد) وفى عام ٥٤٣ مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد في القسطنطينية . ويقول (جيبون) : « إن هذا العدد كان يموت كل يوم» . ولقد حدثت أربعة أوبئة فى أقل من عشرين سنة .

ويقرن (جيبون) الوباء الجستنيانى بما دُهِيَ به العالم من المذنب العظيم عام ٥٣١ وبالزلازل المتتابعة الخطيرة فيقول: «غودر كثير من مدن الشرق خاليا، وذبل المحصول فى كثير من أصقاع إيطاليا » لقد حدث نقص ظاهر فى النوع الإنسانى لم يعوض قط فى بعض من أجمل أقطار الدنيا، وقد بدا للكثيرين فى تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة كان على وشك الزوال

ونقرأ فى التاريخ العام (للافيس ورامبو) : «كانت أوربا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيرة، متأخرة فى زراعتها.. تنبعث من المستنقعات الكثيرة فى المدن روائح قتالة تجتاح الناس وتحصدهم، وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولم يكن فيها منافذ، ولا غرف منظمة ، وكانت البسط مجهولة عندهم لابساط غير القش ينشرونه على الأرض . ولم يكونوا يعرفون النظافة ويلقون بأحشاء الحيوانات، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها روائح مزعجة، وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال.. وكثيرا ما كانوا يؤون معهم الحيوانات الداجنة، وكان السرير عندهم كيسا من القش فوق كيس من الصوف يجعل مخدة أو وسادة. ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح .. قال (درابر) : «كان من أثر ذلك أن عمت

الجهالة أوربا وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة .. ومات الطب وحيت أحابيل الدجالين» .

هذا كان عن أمر أوربا...

أما عن العرب : فيقول فيهم إبن خلدون: «فهم بطبيعة التوحش الذى هم فيه أهل إنتهاب وعبث.. ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر[1]. والقبائل الممتنعة عليهم، بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم، وأما البسائط متى إقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم . ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدى وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية، فينقلون الحجر من المبانى ويخربونها لينصبوه أثافى للقدر، ويخربون السقف ليعمروا بها خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتمون إليه وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد، وإنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا أو مغرما، فإذا توصلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر فى مصالحهم، وهم أصعب الأمم إنقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة،والمبانى التى يختطونها يسرع إليها الخراب لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى إختطاط المدن فى المكان وطيب الهواء ، والمياه والمزارع والمراعى.. وإنما يراعون مراعى إبلهم خاصة .. لا يبالون بالماء طاب أو خبث، ولا قل أو كثر، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية. وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان

---

(١) قفر قفار وقفور : وهى الخلاء من الأرض لا ماء فيها ولا ناس ولا كلأ .

كيف لم يراعوا فى تخطيطها إلا مراعى إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن (الرحيل) فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن، ولم تكن لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس ، فلأول وهلة من إنحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لهم أتى عليها الخراب والانحلال .

هذه هى حالة العالم الاجتماعية قبل الاسلام.ظلام. وجهل . ومرض . وفقر . ووحشية . وفساد . وإنحلال !!! إذ كانت الارض مذأبة يسودها الفتك والاغتيال ، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة.. وأى خير يُرجى فى أحضان وثنية كفرت بالعقل!!؟ ونسيت الله !!؟ ولانت فى أيدى الدجالين ؟!! لاغرابة إذا رفع الله يده عنها كما جاء فى الحديث الشريف « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[1] .

حالة الدين فى العالم

أما الدين فقد كان أمره عجبا !! فكتبه حورت ، وحقائقه شوهت فعن اليهودية يقول (طه المدور) فى كتابه (بين الديانات والحضارات)[2] .

أن اليهودية : لم تكن إلا عبارة عن شرعة دنيوية مادية لا تمت إلى تعاليم سيدنا موسى عليه السلام إلا بصلة الاسم فقط.. فالأنانية، وحب الشراء وصناعة التنجيم،والسحر، وإكبار شأن الروح والمادة، وإرسال الغموض على يوم الحشر، والدينونة تبعد بعد السماء عن الوصايا العشر التى أتى

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) عن كتاب محمد رسولا نبيا لعبد الرزاق نوفل

بها موسى الكليم صاحب الرسالة الموسوية الأصلية، وناقل التوراة وتعاليمه الربانية إلى أهل الضلال » .

أما المسيحية : فيقول بشأنها الدكتور (محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) : « بدأت المسيحية تتعدد مذاهبها وينقسم كل مذهب على توالى الزمن فرقا وأحزابا.. وصار لكل شيعة فى أوضاع الدين وأسسه رأى يخالف رأى الشيعة الأخرى. وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها فى الرأى تنكرا أنتج العداوة الشخصية التى تلمسها حيثما دب الضعف الخلقى والذهنى إلى النفوس فجعلها سريعة إلى الخوف ، سريعة لذلك إلى التعصب الاعمى، والجمود القتال.

كان من بين الطوائف المسيحية فى تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى جسداً يزيد على طيف يتبدى به للناس . وكان من بينها من يزاوجون بين شخصه ونفسه زواجا روحيا يحتاج إلى كثير من كَدِّ الخيال والذهن لتصوره. وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعد وضع المسيح. وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام الانحلال فى كل أمة وعصر يقف عند الألفاظ والأعداد، يسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعانى، ويضفى عليه من الأسرار، ويحيطه من ألوان الخيال بما يعجز عنه المنطق ولا تسيغه إلا سفسطة الجدل العقيم .

قال أحد رهبان الكنيسة : « كانت أطراف المدينة جميعا ملأى بالجدل سواء فى ذلك الاسواق ، وعند باعة الملابس ، وصيارفة النقود، وباعة الأطعمة .. فأنت تريد أن تبدل مثلا قطعة من ذهب .. فإذا بك فى جدل عما خلق ، وما لم يخلق .. وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من

تسأله الأب أعظم أم الابن؟ وهل الإبن خاضع له؟..

وأنت تسأل عن حمامك وهل ماؤه ساخن؟ فيجيبك غلامك : لقد خلق الإبن من العدم .

ولعل مما يوضح مدى الخلاف بين المسيحيين، عقد(مجمع نيقية) عام ٣٢٥ الذى إجتمع فيه ألفان وثمانية وأربعون من البطاركة والأساقفة كانوا مختلفين فى الآراء والأديان .

فمنهم من كانوا يقولون : إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم (البربرانية) ويسمون (الديمبيتيين) .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار إنفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بإنفصال الثانية منها وهى مقالة (سابليوس) وشيعته .

ومنهم من يقول : لم تحبل مريم تسعة أشهر وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب وهى مقالة (إليان) وشيعته .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره وهى مقالة (بولس الشمشاطى)

ومنهم من كان يقول : إنهم ثلاثة آلهة وهى مقالة (مرقيون) اللعين.

ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهى مقالة (بولس الرسول) ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا.

وقد يرجع ذلك إلى الحرب التى شنها اليهود على المسيحيين بلا رحمة ولا شفقة.. أو إلى ما أوقعه الملوك والقياصرة بالمسيحيين من عهد (نيرون) إلى (تراجان) إلى (ديسيوس) و(دقلديانوس) أو إلى الأمرين معا.

نبذة عن الوثنية

يقول الإمام محمد الغزالي:

إن الوثنية هوان يأتى من داخل النفس لا من خارج الحياة ، فكما يفرض المحزون كآبته على من حوله ، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحا جاثمة كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التى يحيا فيها فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء. ويوم ينفسح القلب الضيق، ويشرق الفكر الخامد، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة. فإن هذه الإنعكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها.

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الانسان نفسه، فلو ذبحت العجول المقدسة ونكست الأصنام المرموقة، وبقيت النفس على ظلامها القديم ما أجدى ذلك شيئا فى حرب الوثنية.. سيبحث العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا .. يوفضون إليها من جديد.. وما أكثر الوثنيين فى الدنيا وإن لم يلتفوا حول نصب!.. وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق، وربه الأعلى ، والجرى وراء وهم بعيد..!!

والخرافة لا تأخذ مجراها فى الحياة وهى تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها كلا.. إنها تدارى مجونها بثوب الجد وتستعير من الحق لبوسه المقبول وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه ، ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين وكذلك فعلت الوثنية.. لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة. لاكما يغير النحل على أزهار الربيع، بل كما تغير الديدان وأسراب الجراد على الحدائق الغناء، فتحيلها قاعا بلقعا...!

وهى أذا أفسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت، ولئن كان ما أخذته خيرا قبل أن تتصل به، لقد أصبح شرا بعد ما تحول فى جوفها إلى سموم .

وهذا هو السر فى أن الوثنية التى لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغى مرضاته .

جزء من الحق، فى أجزاء من الباطل، فى سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله ، ويبعدهم عن ساحته .

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ما أصاب شريعة عيسى بن مريم عليه السلام من تبدل مروع ، رد نهارها ليلا ، وسلامها ويلا، وجعل الوحدة شركة ، وانتكس بالإنسان فعلق همته بالقرابين، وفكره بالألغاز المعماة .

إن خرافة الثالوث والفداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى فى إقحامها إقحاماً على النصرانية الجديدة ، وبذلك إنتصرت الوثنية مرتين، الأولى فى تدعيم نفسها، والأخرى فى تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام ، كانت منارات الهدى قد إنطفأت فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان الشيطان يذرع الأقطار الفيح فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد..

فالمجوسية فى فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشى فى الهند والصين، وبلاد العرب وسائر المجاهيل ..

والنصرانية التى تناوىء هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهنود والمصريين القدامى، فهى تجعل لله صاحبة وولدا، وتُغرى أتباعها فى «رومة» ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الاوثان. شرك مشوب بتوحيد يحارب شركا محضا..!

ولكن ما قيمة هذه النقائض التى جمعت النصرانية بين شتاتها؟

«قالوا إتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى. له ما فى السموات و ما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون. قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون»[(١)] .

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هى التى جعلت هذه الأحزاب إلبا على المسلمين يوم بدءوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام، ومن أهل الكتاب فى آن .. ووصاها بأن تتذرع بالصبر أمام هذا التحامل **«لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيرا وأن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور»** [(٢)] .

لقد عمت الدنيا قبل بعثة محمد ﷺ حيرة وبؤس ناءت بهما الكواهل

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم

مسيطر الفرس يبقى فى رعيته ... وقيصر الروم من كبر أصم عم

حتى تأذن الله ليحسمن هذه الآثام ، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام فأرسل إلى الأمة محمد ﷺ .

---

(١) سورة يونس الآيتان ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

حالة ديانة العرب :

أما أديان العرب فخير وصف لها ما قاله الأستاذ «محمد كرد على» فى كتابه (الاسلام والحضارة العربية) إذ يقول : « كانت أديان العرب متشعبة بحسب الممالك التى يجاورونها، والأرض التى ينتجعونها، وهم فى أديانهم على صنفين :

١- الحمس - ٢ - الحلة.

أما الحمس : فكانوا يشددون على أنفسهم فى دينهم، فإذا نسكوا لم يقربوا سمنا ولا يجزون شعرا ولا ظفرا، ولا يمسون النساء، ولا الطيب، ولا يأكلون لحما..

أما الحلة : فكانوا على العكس من ذلك، ينعمون بالطيبات كلها لا يبالون ما صنعوا.

ثم دخل قوم فى دين اليهود وفارقوا هذا الدين، ودخل آخرون فى النصرانية وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية ، وزعم اليعقوبى أن اليمن تهودت بأسرها، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب ، وقوم من غسان، وقوم من جذام، وكان من العرب من يميل إلى الصابئة ويعتقد فى أنواء المنازل إعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك إلا بنوء من الأنواء ، ويقول : مطرنا بنوء كذا، ومنهم من أنكر البعث والخالق، وقالوا : ما يهلكنا إلا الدهر، وهم الدهريون وقال بعضهم : كانت المجوسية فى تميم. والزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة .

ويقول ابن أثير : أن ديار تميم كانت تجاور بلاد الفرس وهم تحت أيديهم والمجوسية فى الفرس .. على أن العرب قبل الاسلام كان كثير منهم

قد تنصر كتغلب وبعض شيبان وغسان، وكان منهم من صار مجوسيا وهم قليل، وأما اليهردية فكانت باليمن . وكان من العرب صنف إعترف بالخالق وأنكروا البعث، وصنف عبدوا الأصنام وأصنامهم مختصة بالقبائل، ومنهم من يعبد الجن ، ومنهم من يعبد الملائكة ، وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون

وللعرب أصنام : فكان سواع لهذيل - وود لكلب - ويغوث لمذحج وقبائل من اليمن - ونسر لذى كلاع بأرض حمير - ويعوق لهمدان - واللات لثقيف بالطائف والعزى لقريش وجميع بنى كنانة - ومناة للأوس والخزرج وغسان - وهبل كان فى الكعبة، وكان أعظم أصنامهم - وإساف ونائلة كانا علي موضع زمزم - وسعد لبني ملكان بن كنانه.

وكان عدد الأصنام فى الحرم بضع مئات وهل تبلغ محنة العقيدة قدر ما بلغت عند العرب إذ كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين ماتوا في شهر ، فجزع عليهم ذوو قرابتهم فعملوا لهم خمسة أصنام علي صورهم ، فمضت ثلاثة قرون وهم يعظمونها ثم عبدوها من بعد .

قصة الأصنام فى مكة :

إن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم. فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى خرج بهم ذلك إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، حتى نسوا ما كانوا عليه ، وأستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وكان فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بتعظيم

البيت، والطواف به، والحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

وقال إبن إسحق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : حدثت أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت عمرو بن لحى يجر قصبة فى النار فسألته عمن بينى وبينه من الناس فقال : «هلكوا» (حديث صحيح واسناه مرسل) .

وقال بن أسحق : وحدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة عبد الله بن عامر،ويقال اسمه عبد الرحمن بن صخر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخذاعى « يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبة فى النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه»

قال أكثم :

عسى أن يضر بى شبهه يا رسول الله؟

فقال «لا إنك مؤمن وهو كافر، وأنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى (إسناده حسن والحديث صحيح) .

﴿من الذى غير دين إسماعيل﴾

قال ابن هشام :

حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق- ويقال : عمليق - بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام - رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟

قـالوا لـه : هذه أصنام نعـبـدها فنسـتـمطرها فـتـمطرنا. ونسـتنصـرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العـرب فيعبدونه ؟

فـأعطوه صنمـا يقال له هبل فقدم به مكة فنصبـه وأمر النـاس بعبـادته وتعظيـمـه وقـد كـانت لقـوم نوح أصنام قـد عكفـوا عليـهـا قص الله تبـارك وتعالى خبرها فى القرآن : فقال « **وقـالوا لا تـذرن آلهـتـكم ولا تـذرن ودا ولا سـواعـا ولا يـغـوث ويـعـوق ونسرا. وقـد أضلواكـثـيـرا ولا تـزد الظالمـيـن ألا ضـلالا** »[1].

وأساس ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر هم هؤلاء الصالحين الذين ماتوا فى شهر واحد ومن شدة جزع أهلهم عليهم عملوا أصناما على شاكلتـهم حتى يظلوا أمامـهم دومـا ومـا لبـثـوا أن عـبـدوها - وقـد نوهنا عـن هذا الموضـوع سالفا - فكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسـمـاعيل وغيرهم وسـموا بأسمائهم حين فارقوا دين إسماعيل هم : هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر إتخـذوا سـواعـا وكـان لهم برهاط . وكلب ابن وبره من قـضـاعـة إتخـذوا ودا بدومة الجندل .

قال ابن إسحق : وكانت قريش قد اتخذت صنمـا على بئر فى جوف الكعبة يقال له هبل .

وقال ابن اسحق : واتخذوا إسافـا ونائلة على موضع زمـزم ينحرون عندهمـا . وكـان إسـاف ونائلة رجـلا وإمـراة مـن جـرهم هو إسـاف بن بـغى . ونائلة بنت ديك ، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين.
قـال ابن اسحق : وإتـخـذ أهل كل دار فى دارهم صـنمـا يعـبـدونه . فـإذا اراد الرجل منهم سفـرا تمسح بـه حين يركب، فكان ذلك آخر مـا يصنع حين يتوجـه إلى سـفـره ، وإذا عـاد يفـعـل مثـل ذلك، فكان ذلك أول مـا يبـدأ به قـبل أن يدخل على أهله . فلما بعث رسول الله ﷺ بالتوحـيد قالت قريـش «**أجـعـل**

---

(١) سورة نوح ٢٣ - ٢٤ .

الآلهة إلها واحد إن هذا لشيء عجاب»[1] وكانت العرب قد إتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتهدى إليها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها.. وهى تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده .

وكانت لقريش وبني كنانة (العزى) بنخلة وكان سندتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم .

قال ابن اسحق : وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان سدنتها وحجابها بنى معتب من ثقيف وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد .

وكان لخولان صنم يقال له (عميانس) يقسمون له الأنعام وحروثهم قسما. وكان لدوس صنما يقال له (ذو الكفين) وكان (ذو الخلصة) لدوس وخثعم وبجيلة. وكانت (فلس) لطيىء وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء له (رئام) وكانت (رضاء) بيتا لبنى ربيعة بن كعب إبن سعد. وكان (ذو الكعبات) لبكر وتغلب إبنى وائل واياد بسنداد.

---

(١) سورة ص آية ٥ .

نبذة عن البحيرة والسائبة والوصيلة

قال إبن أسحق : فأما البحيرة فهى بنت السائبة

والسائبة : الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت فلا يركب ظهرها ولا لم يجز وبرها ولا يشرب لبنها، إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها فلا يركب ظهرها، ولا يُجَزُّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها، فهي البحيرة بنت السائبة.

والوصيلة : الشاة أذا أتامت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها فيشتركوا فى أكله ذكورهم إناثهم.

قال ابن هشام : ويروى فكان ما ولدت بعد ذلك لذكور بنيهم دون بناتهم.

وقال إبن أسحق : والحامى : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهم ذكر حمى ظهره فلا يركب ظهره ، ولا يجز وبره ، وخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك .

قال إبن هشام : وهذا كله عند العرب على غير هذا ، إلا الحامى فإنه عندهم على ما قال ابن اسحق.

والبحيرة عندهم : الناقة تشق أذنها، فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف، أو يتصدق به، وتهمل **لآلهتهم** .

والسائبة : التى ينذر الرجل أن يسيبها إن برىء من مرضه ، أو إن أصاب أمرا يطلبه فإذا كان ذلك أساب ناقة من إبله، أو جملا لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها .

والوصيلة : التى تلد أمها أثنين فى كل بطن ، فيجعل صاحبها لألهته الإناث منها ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون: «وصلت أخاها» فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به.

قال إبن اسحق : فلما بعث الله تبارك وتعالى رسوله محمد ﷺ أنزل عليه: «**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون**»(1) .

وأنزل الله تعالى : « **وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم**»(2) .

وأنزل عليه : «**قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل ألله أذن لكم أم على الله تفترون**»(3) .

وأنزل عليه : «**ثمانية أزواج من الضأن أثنين ومن المعز إثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤنى بعلم أن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر إثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن إفترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين**» (4) .

---

(1) سورة المائدة اية ١٠٣ (2) الأنعام ١٣٩

(3) يونس ٥٩ (4) الأنعام ١٤٣ - ١٤٤ .

مظاهر إنحلال الدين فى العالم

وكان من مظاهر الانحلال إتخاذ النساء متعا بلا عقود وبدون نظر إلى درجة القرب بين الرجل والمرأة،فقد يتزوج الرجل زوجة أبيه وقد يتزوج زوجة غيره. كما انتشر فى بلاد العرب وأد البنات إذ كانوا يدفنون بناتهم أحياء كما عمت الفوضى وانتشر الظلم والفجور فى كل علاقة للإنسان بغيره.

وفى وسط هذا الظلام الدامس الذى شمل العالم.. ومن بين هذه السحب القاتمة التى خيمت فوق سماء البشرية.. ولهداية هؤلاء القوم الذين وصلوا بالإنسانية إلى حضيض الحياة.. أرسل الله سبحانه وتعالى خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد ﷺ الصادق الأمين، وأوحى إليه قرآنا عربيا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

«الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد»[1] .

---

(١) سورة إبراهيم آية ١ .

سرد المقدمات التي سبقت البعثة المحمدية وطوالع ونبوءات شواهد على ظهور النبى مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون

نحن نورد هنا بعض الأمثلة التى يستدعيها المقام، ولا يجوز إهمالها فى تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الإجمال. ومن الحسن أن نأتى على أمثلة من الطوالع والنبوءات التى وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبى عليه الصلاة والسلام مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون ونلاحظ أن هؤلاء المؤرخين[1] ، أو أكثرهم، من فضلاء الهند وفارس، والأمم الشرقية التى تتكلم غير العربية.. وسر ذلك أنهم ورثوا فى بلادهم طوالع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الإتيان بنظائرها التى تقابلها فى كفة الديانة الإسلامية فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المماثل، ولا يعييهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويا أو راجحا فى الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين .

الكتب التى كتبت عن محمد ﷺ

من هذه الكتب :

كتاب باللغة الانجليزية ألفه مولانا « عبد الحق فديارنى » وسماه «محمد فى الأسفار الدينية العالمية» واستفاد فى مقارناتة ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية، وبعض اللغات الأوربية، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عم البحث فى كتب فارس والهند وبابل

---

(١) عن كتاب مطلع النور للعقاد .

القـديمة . وكـانت له فى بعض أقـواله توفـيـقـات تضـارع أقـوى مـا ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة. ولا نذكر أننا إطلعنا على شـواهد أقـوى منهـا فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الأديان الكتابية .

يقـول الأستاذ عبد الحق فديارتى : إن اسم الرسـول (أحمد) مكتـوب بلفظة العربى فى الساماڤيدا Samavida من كتب البراهمة، وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها:

أن « أحمد تلقى الشـريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمـة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس»

ولا يخـفى المؤرخ وجـوه الاعـتـراض التى قـد تأتى من جـانب المفـسـرين البرهميين بل ينقل عن أحدهم (سـينا أشريا) Syna Acharya أنـه وقـف عند كلمـة «أحمد» فـالتـمس لها معنى هنديـا وركب منها ثلاثـة مقـاطع وهى: «آهم وآت» و«هى» .. وحاول أن يجعلها تفيد «أننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى» .. قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه أن العبادة منسوبة إلى البرهمى «فـاتزا كانفـا» «Kanva » من أسرة كانڤا، ولا يصدق عليـه القول بأنه هو وحده تلقى الحكمة من أبيه.

ويزيد الاستـاذ عبـد الحق على ذلك أن وصف الكعبـة المعظمـة ثابت فى كـتـاب «الأثارڤا ڤـيـدا» (Atharvavida) حـيث يـسـمـيـهـا الكتـاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية، وذو أبواب تسعة.

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة وهى:

١- باب إبراهيم ٢- باب الوداع ٣- وباب الصفا

٤- وباب على ٥ -وباب عباس ٦ - وباب النبى

٧- وباب السلام ٨- وباب الزيارة ٩ - وباب حرم

ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال وهى فى قوله:

١- جبل خليج ٢- وجبل قيقعان ٣- وجبل هندى

٤- وجبل لعلع ٥- وجبل كدا ٦- وجبل أبو حديدة

٧- وجبل أبي قبيس ٨- وجبل عمر.

ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بأنه جسم الانسان ومنافذه ولا يذكره لأنه على ما يظهر يخالف وصف القداسة الروحية فى البرهمية ولا يأتى بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى.

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبى محمد ﷺ مذكور بوصفة الذى يعنى الحمد الكثير، والسمعة البعيدة، ومن أسمائه الوصفية إسم «سشراڤا» (Sushrava) الذى ورد فى كتاب الأثار فافيدا حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة «العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين». وهم على تقدير المؤلف عدة أهل وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع، والنبوءة إلى جانب النبوءة مما يغنى المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية .

نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين من الكتب المجوسية :

إستخرج المؤلف من كتاب «زندافستا» (Zend Avesta) نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشيانت» (Soeshyant) ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة «أبا لهب» (Angra Maingu) ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوا أحد (هيج جيز باوغار) وليس له أول ولا آخر، ولا ضريع ولا قريع، ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا إبن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

«جز أخاز والجام أبناء ودشمن وما نند وديار وبدر وما دروزن وفرزند وحاي سوى وتن أسا وتنا في ورنك وبوى است» . وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه وتعالى في الاسلام :

«أحد صمد ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا ».

كتب الزردشتية تنبىء عن دعوة الحق التي يبعث بها محمد :

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية تنبىء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود، وفيها إشارة إلى البادية العربية ويترجم نبذه منها إلى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف:

«أن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين. وسادة لفارس ومديان وطوس، وبلخ، وهي الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات[1] .

---

(١) صفحة ٤٧ من كتاب : Mohammed in World Scriptures

إشارة من العهد القديم والعهد الجديد:

وأشار المؤلف بعد الديانات الأسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم، والعهد الجديد فقال:

إن النبى عليه السلام هو المقصود بما جاء فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير تلألأ من جبل (فاران) وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم». وجاء بالنص العبرى كما يلى :

«ويومر يهوره مسينائى به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران واتا مر ببوث قودش ميميفو ايش داث لامو». فترجم هكذا:

«وقال إن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس، وخرج من يمينه نار شريعة لهم» .

وقال إن الشواهد القديمة جميعا تنبىء عن وجود فاران فى مكة . وقد قال المؤرخ (جيروم) واللاهوتى (يوسبيوس) «أن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيله ».

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١ أن إسماعيل: «سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه إمرأة من أرض مصر».ثم قال إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ جاء فيه أن بنى إسرائيل إرتحلوا «من برية سيناء فحلت السحابة فى برية فاران». ولم يسكن أبناء إسماعيل قط فى غرب سيناء، فيقال أن جبل فاران واقع إلى غربها.

وفى الإصحاح الثالث من كتاب (حيقوق) أن « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران» فهو إذن إلى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذى تقع فيه اليمن مرادفتها بالعربية. ولم يحدث قط أن نبيا سار بقيادتة عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه الصلاة والسلام. و(قوديش) تترجم

بقـديس فـى رأى المؤلف الذى يناقش ترجـمـتـهـا بالملائكة فى التـرجـمـات الأخيرة. كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيـره جاء بشريعة بعد موسى الكليم.. فقول موسى الكليم: «أن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم» يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من أبناء إبراهيم تقدمه فى الزمن .

ويُرجِّح المؤلف أن المدينة التى تعلم فيها موسى عليه السلام فى صحبة (يثـرون) - أى شعـيب - لم تكن هى مـديان الأولى التى تخربت بالزلازل كمـا جاء فى القـرآن الكريم، ولكنهـا كـانت «مـدينة» الحجاز التى سـميت (يثرب) على اسم (يثرون)، ومما يعزز ذلك أن (بطليموس الجغرافى) يقول بوجود موضعين باسم(مـديان) وإن كان قـد أخطأ على رأى المؤلف فى تعيين الموضعين. وقد جاء فى سفر التكوين أن مـديان إبن إبراهيم الذى سـميت مـديان الأولى باسـمـه كـان له أخ إسـمـه (عـفـار)، وهو الذى يقـول نويل (Knoble) شارح التـوراة أن ذريتـه كـانت تنزل فى عـهـد البعثة الإسلامية جوار يثرب، ولعل مـوسى تلقى اسمه فى ذلك الجوار. إذ كـانت تسـميـتـه العربيـة أرجح من تسميتـه المصرية أو العبرية.. فـإن إبنة فرعون لا تسميه بالعـبرية ولا يسـمـيـه بهـا مـن يريد خـلاصـة من مـصيـر المولودين العـبريين وصحيح أن كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها: الطفل كمـا يقـول بعض الشراح المحدثين، ولكن اليهود لا يرتضون لنبيهم ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارا من المصريين .

★★★

﴿ عناية الجماعة الأحمدية الهندية بالنبوءات ﴾

ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الانجليزية ، فإنها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مسهبا فى مقدمة الترجمة شرحت فيه بعض ما تقدم شرحا مستفيضا ، وزادت عليه أن نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء وهى :

١ - التجلى من سيناء ، وقد حصل فى زمانه .

٢ - التجلى من سعير أو جبل الشعر وقد تجلى فى زمن السيد المسيح لأن هذا الجبل - على قول الجماعة الأحمدية - واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين إشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر .

٣ - وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران ، وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء فى كتاب (فصل الخطاب) أن الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأرض بالرياحين من « برية فاران » .. وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما جاء فى وعد إبراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ، ولا وجه لإنكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون إلى إسماعيل ، ولا باعث لهم على إنتحال هذا النسب والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها .

وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية إسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب وأولهم :

نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش ، الذى يقرر الشارح (كاتريكارى Katripikari) أنه أقام بذريته بين فلسطين وينبع سيناء يثرب ، ويقرر (بطليموس) و (بلينى) أن أبناء (قدور) - قيدار الإبن الثانى لإسماعيل -

قد سكنوا الحجاز ، ويضيف المؤرخ اليهودى (يوسفيوس) إليهم أبناء (أدبيل) الإبن الثالث فى ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة إلى البحث الطويل عن مقام أبناء (دومة) و (تيماء) و (قدامه) وأكثر إخوتهم الباقين فإن الأماكن التى تنسب اليهم لا تزال معروفة بأسمائها إلى الآن .

ومن نبوءة (أشعيا) التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليا أن أبناء إسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز ، ففى هذه النبوءة يقول النبى أشعيا من الإصحاح الحادى والعشرين :

«وحى من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء .. وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار » .

ويعود المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكيين فى وقعة (بدر) وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبى عليه الصلاة السلام إلى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير .

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الإصحاح الخامس فى سفر أشعيا يقول فيها :«ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون .. ليس فيهم رازح ولا عاثر ، لا ينعسون ، ولا ينامون ولا تنحل حزم أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم . سهامهم مسنونه وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة » وهذه نبوءة عن رسول يأتى من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الإسلام .

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الإصحاح الثامن فى سفر أشعيا جاء فيها أن الرب أنذره أن لا يسلك فى طريق هذا الشعب قائلا :

« لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى إسرائيل وفخا وشركا لسكان أورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون .. صر الشهادة ، إختم الشريعة بتلاميذى فاصطبرللرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره » .

فهذه النبوءة عن الرسول الذى يختم الشريعة تصدق على نبى الاسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده .

وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الاصحاح التاسع عشر فى سفرأشعيا يذكر فيها إيمان مصر بالرسول المنتظر:

«وفى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمها، فيكون علامة وشهادة لرب الجنود فى أرض مصر لأنهم يصرخون إلى الرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم فيعرف الرب فى مصر ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمه وينذرون للرب نذرا ويعرفون به ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم، فى ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى أشور فيجيئ الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور ويعبد المصريون مع الأشوريين . فى ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالثا لمصر ولأشور بركة فى الأرض، بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر وعمل يدى أشور وميراثى اسرائيل » .

فالذى حدث من قدوم أهل العراق إلى مصر ، وذهاب أهل مصر إلى العراق إنما حدث فى ظل الدعوة الإسلامية .. ولم تتوحد العبادة بينهم قبل

تلك الدعوة ، وأن النبوءة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو اسرائيل، إذ تكون البركة لمصر وأشور ولا تكون إسرائيل إلا لاحقه بكلتا الأمتين .

★★★

ثم ينتقلون بالنبوءات إلى سفر (دانيال) حيث جاء فى الإصحاح الثانى :

** « أنت أيها الملك كنت تنظر[1] ، وإذا بتمثال عظيم - هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل رأس هذا التمثال من ذهب جيد وصدره وذراعاه من فضة وبطنه وفخده من نحاس ، وساقاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد والبعض من خزف ، كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضه والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان ، أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها » ويلى ذلك تفسير النبى دنيال لهذا الحلم إذ يقول :

« أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السموات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطاناً وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطها عليك جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس ، فتتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد يدق ويسحق كل شئ وكالحديد الذى يكسر تسحق كل هؤلاء، وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة، وتكون فيها قوة كالحديد من حيث أنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين ، وأصابع القدمين بعضها من حديد ، وبعضها من خزف ، فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما ،

---

(١) تحلم .

وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فانهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك، كما أن الحديد لا يلتصق بالخزف ، وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك ، وهى تثبت إلى الأبد لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب ،، الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتى بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين » .

وتعود الجماعة الأحمدية إلى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبى دينال لتلك الرؤيا، فمن كلام النبى دنيال يفهم أن :

الرأس الذهبى هو ملك بابل ، وأن الصدر والذراعين من الفضه تعبر عن مملكة فارس وميدية التى ارتفعت بعد دولة بابل ، وأن الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الإغريقية فى ظل الاسكندر لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وأن القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانية التى ارتفعت بعد ذهاب ملك الإسكندر ، وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الأخيرة أن قدما من قدميها خزف والأخرى حديد وهو وصف يشير إلى جزء من الدولة فى القارة الأوربية ، وجزء منها فى القارة الأسيوية ، فالقدم الحديد هى سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستولى على أقطار شاسعة ، وموارد غزيرة ولكنها تنطوى على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة فى وشك انحلال الدولة الرومانية فى السنوات الأخيرة لهذا السبب وتستطرد من ثم إلى أمور أهم وأخطر إذ تقول :

« إنك كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما ، فانسحق حينئذ الحديد والخزف

والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان ، أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها .. » .

تقول الجماعة :

فهذه نبوءه بظهور الإسلام ، فقد إصطدم الإسلام فى صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يؤمئذ قد بسطت سلطانها على ملك الإغريق الإسكندرى فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل ، ثم ضربتهما قوة الإسلام فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعاصفة البيدر فى الصيف ، وهكذا ينبئ ترتيب الحوادث وتعبيرها فى رؤيا دنيال أنباء لا ريب فى معناه إذ كلنا نعلم أن بابل خلفتها فارس وميدية ، وأن سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الإسكندر ، وأن ملك الإسكندر خلفته الدوله الرومانية التى أقامت من عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوربية أسيوية ، ثم إنهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الإسلامى وغزوات النبى والصحابة » .

وهذا الحجر الذى جاء فى رؤيا دنيال يذكره أشعيا والحوارى متى ، ففى الإصحاح الثامن من سفر اشعيا أنه : « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتى إسرائيل وفخا وشركا لسكان أورشليم ، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيلقطون » .

وفى الاصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى يقول :

« لذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه» .

كذلك يذكر المزمور الثامن عشر بعد المائة إذ يقول :

«أن الحجر الذى رفضه البناءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية»

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى المتقدم ذكره أن هذه النبوءة تتنبئ عن زمن غير زمن السيد المسيح .

إذ يقول عليه السلام :

« أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية فمن قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا » .

ثم تفضى النبوأة - نبوءه النبى دينال - إلى عقباها فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملأ الأرض كلها . فإن هذا هو الذى حدث بعد إنتشار الدعوة المحمدية .

فإن الرسول الكريم ﷺ وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة للعالم المعمور كله فى ذلك العصر ، وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى أيدى أتباع محمدﷺ ألف سنة .

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد ويستشهد جماعة الأحمدية بالإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى حيث يقول السيد المسيح :

« إسمعوا مثلا آخر . كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصره وبنى بُرْجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره ، فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم أرسل إليهم ابنه أخيرا قائلا انهم يهابون ابنى ، فأما الكرامون فلما رأوا الإبن قالوا فيما بينهم هذا هو

الوارث هلمـوا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له أنه يهلك أولئك الأردياء هلاكا رديئاويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها .. قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ؟ ... من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا لذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه .

ولما سمع الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم ، وإذ كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبى » .

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن الكريم فيقولون أن السيد المسيح قد لخَّص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمعين فالكرم هو الدنيا ، والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح فى ديناه ، والثمرات التى يريد صاحب الكرم أن يحصلها هى ثمرات الفضيلة والخير والتقوى ، والخدم الموفدون من صاحب الكرم إلى الكرامين هم الرسل والأنبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد إعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم إلى كرامين آخرين ، ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالبركة مع أمة إسحق ، وهى أمة إسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه أنهم كانوا الحجر المرفوض ، فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ، ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض .

وتتلو هذه النبوءة في إنجيل متى نبوءة متممة من الإنجيل نفسه حيث جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين منه خطابا لبنى إسرائيل : « هوذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم أنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب . »

ونبوءة أخرى ففى التوراة نجد فى سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر مانصه :

« أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . » .

والكلام من الله سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام عن بنى إسرائيل وهم بنو إسحق وإسحق هو أخو اسماعيل ، فاخوان بنى اسرائيل هم بنو اسماعيل وسيدنا رسول الله ﷺ من بنى اسماعيل ، وصفة هذا النبى يكون مثل سيدنا موسى والقول ينطبق على سيدنا محمد فهو مثله ولد من أب وأم وتزوج وأنجب ذرية ، وأتى بشريعة كموسى تماما .

واجعل كلامى فى فمه أى يكون أميا فيوحى الله إليه بما ينطقه وهذا يطابق فعلا سيدنا محمداﷺ كما جاء فى القرآن الكريم :

« فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »[1].

« وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى[2] » .

ولا ينطبق هذا الوصف على نبى غير سيدنا محمد ﷺ إطلاقا .

---

(١) الأعراف : الجزء الأخير من الآية ١٥٨ .

(٢) النجم الآيتان ٣ ، ٤ .

وفى الإصحاح ٣٢ :

« هم أغارونى بما ليس إلها ، أغاظونى بأبا طيلهم ، فأنا أغيرهم بما ليس شعبا بأمة غبية أغيظهم »

والعرب لم يكونوا شعبا بمعنى الانتظام ، وكانت أمتهم قبل الإسلام فى غاية الجهل والضلال ويقول فى ذلك القرآن الكريم :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[(١)] .

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم[(٢)] . »

وفى سفر أشعيا الإصحاح الثانى :

«ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال»، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه كل الأمم ، وتسير شعوب كثيرة ويقولون : هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب » .

والمنسك الذى يسعى فيه الناس فوق التلال ، وتجرى إليه الأمم من مختلف أنحاء العالم ، وتسير اليه الشعوب المختلفة الكثيرة ، ويصعدون إلى الجبال متوجهين إلى بيت الله الحرام هو الحج فى الإسلام : إذ يصعد المسلمون إلى جبل عرفات ويطوفون بالكعبة المشرفة ، وهذا قد تمّ فى آخر الأيام أى فى آخر الأديان

---

(١) آل عمران الآية ١٦٤ .

(٢) التوبة الآية ٩٧ .

وفى الإصحاح ٢١ :

« لأنه هكذا قال لى السيد إذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى ، فرأى ركابا أزواج فرسان ، ركاب حمير ، ركاب جمال .

فأجاب وقال : سقطت .. سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض » .

وهذه نبوءة بالأديان الثلاثة ، فراكب الفرس هو سيدنا موسى ، وراكب الحمير هو سيدنا عيسى الذى عرف أنه كان ينتقل بها بنص الأناجيل ، وراكب الجمل هو سيدنا محمد ﷺ .. وناقته القصواء معروف تاريخها ، فكان دائما ينتقل عليها ، أما الذى حطم تماثيل الآلهة فهو سيدنا رسول الله ﷺ إذ دخل الكعبة وحطم ما فيها من الأصنام ونزع ما كان عليها من صور وتحطمت التماثيل وهو يقول : « **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** »[1].

وفى الإصحاح ٢٥ :

يارب أنت إلهى ، أحمد اسمك لأنك صنعت عجبا ، مقاصدك منذ القدم أمانه وصدق ، لأنك جعلت مدينة رجمة، قرية حصينة ردما قصر أعاجم أن لا تكون مدينة : لا يبنى إلى الأبد ، لذلك يكرمك شعب قوى وتخاف منك قرية أمم عتاة » .

ولا نعرف لفظ أحمد هنا اسم أم المقصود حمد الله ؟ فإن كان اسما فهو إسم الرسول ﷺ ، وإن لم يكن فهو للحمد ، وباقى الفقرة يشير إلى نبوة رسول الإسلام ، فمقاصده الأمانة والصدق وهما صفتان عرف بهما رسول الله ﷺ فكان لقبه من قبل البعث الصادق الأمين ، والمدينة الرجمة التى

---

(١) الإسراء الآية ٨١ .

أصبحت قرية حصينة هى المدينة المنورة وقد إنتهت دولة المجوس الأعاجم بالإسلام ، أما الشعب القوى فهو العرب إذ عرفوا بالقوة والقسوة والبطش والشدة ، وقرية الأمم هى مكة التى كان يطلق عليها (أم القرى) وذلك بدليل قول الله تعالى :

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها »[1].

وفى الإصحاح ٤٢ :

« هو ذا عبدى الذى أعضده مختارى الذى سُرَّت به نفسى وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته ، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ .. إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته » .

وهذه الفقرات تشير إلى سيدنا رسول الله ﷺ، فهو النبى الذى أرسل إلى الأمم كافة ، بينما كافة الرسل والأنبياء أرسلوا لأقوامهم فقط بدليل الآيات الشريفة :

« وإلى عاد أخاهم هودا »[2] ، «وإلى ثمود أخاهم صالحا »[3] ، « وإلى مدين أخاهم شعيبا »[4] ، « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه»[5]، «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه»[6] ، « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم »[7] .

---

(١) الأنعام من الآية ٩٢ .
(٢) الأعراف الجزء الأول من الآية ٦٥ .
(٣) الأعراف الجزء الأول من الآية ٧٣ .
(٤) الأعراف الجزء الأول من الآية ٨٥
(٥) الأعراف ٥٩
(٦) الزخرف ٤٦
(٧) الصف ٦ .

أما عن سيدنا محمد ﷺ فتقول الآيات :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[1] ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا »[2]، « قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جمعيا »[3].

ولم يكن يصيح ولا يرتفع صوته بل كان يؤذيه الصوت المرتفع ، وقد نزلت آيات فى القرآن بذلك منها : **« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى »[4] .**

« إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى »[5].

وأوصى القرآن بذلك بنص الآية :

« واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »[6].

والمرضوضة هى بلاد الحجاز والفتيلة الخامدة التى لا تطفأ هى شريعته لأنها آخر الشرائع ، وسيدنا رسول الله ﷺ هو الذى لم ييأس من جهاده أى لم يكلّ .. ولم ينهزم فى غزواته أى لم ينكسر . وقد وضع الحق للعالم كله فى الأرض وكانت آخر آيات القرآن : **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[7] .**

---

(١) الأنبياء ١٠٧

(٢) سبأ الجزء الأول من الآية ٢٨

(٣) الأعراف الجزء الأول من الآية ١٥٨

(٤) الحجرات الجزء الأول من الآية ٢

(٥) الحجرات الآية ٣

(٦)لقمان من الآية ١٩ .

(٧) المائدة من الآية ٣ .

وفى الإصحاح نفسه :

« غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملؤه والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رؤس الجبال ليهتفوا ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » .

والأغنية الجديدة التى للرب هى ديانة جديدة ، والتسبيح هو من ضمن ما دعا إليه الإسلام واهتم به بدليل مثل الآية :

« وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود[1] ، « يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا »[2] .

أما مكان الدعوة إلى الدين الجديد فمن الديار التى سكنها قيدار ، وقيدار قد جاء فى سفر التكوين الإصحاح ٢٥ ما نصه بشأنه : « وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم ، وهذه أسماء بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم : « بنايوت بكر اسماعيل وقيدار وادبئيل ومبسام »[3].

فيكون قيدار هو ابن إسماعيل ، ومعروف أن إسماعيل سكن مكة ، أى أن الدين الجديد يخرج من مكة ، أما سالع فهى جهة معروفة فى المدينة المنورة وفيها كانت واقعه الأحزاب وجبل سالع بأطراف المدينة من ناحية الشمال ، ومن رءوس الجبال يهتفون فى مناسك الحج إذ يذهبون إلى جبل عرفات ويذكرون الله ويسبحون بحمده ويستغفرونه وفى ذلك يقول :

----

(١) ق ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الأحزاب ٤١ ، ٤٢ (٣) وقد نوهنا عن ابناء اسماعيل سالفا

القرآن الكريم :

« فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين »[1].

وهذا كله يطابق دين الاسلام وتبشير صريح بنبى الإسلام .

وفى الإصحاح ٥٤ :

« ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد ، أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل قال الرب : أوسعى مكان خيمتك ولتبسط شقق مساكنك لا تمسكى أطيلى أطنابك وشددى أوتادك لأنك تمتدين إلى اليمين والى اليسار ويرث نسلك أمما ويعمر مدنا خربة » .

والعاقر هى بلاد العرب التى لم تنجب نبيا أو هاديا أو مصلحا إطلاقا ، أما وقد أراد الله أن يهبها نبى الإسلام ، فيناديها الله أنها سيتسع عمرانها وتمتد مبانيها ومساكنها إلى اليمين والى اليسار ، وقد حدث ذلك بالإسلام ، ثم أن المسلمين عمروا كل المدن الخربة التى كانوا يفتحونها بالإسلام .

وفى الإصحاح ٦٠ :

« إرفعى عينيك حواليك وانظرى ، قد إجتمعوا كلهم جاءوا إليك يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى حينئذٍ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتى إليك غنى الأمم . تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا تحمل ذهبا ولبانا وتبشر

---

(١) البقرة الآية ١٩٨ .

بتسابيح الرب ، كل غنم قيدار تجتمع إليك ، كباش بنايوت تخدمك تصعد مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى » .

وهل يحدث ذلك فى غير مكة ؟ .. وهل غير المسلمين من يفعل ذلك ؟ وهل فى ديانه غير الإسلام ذلك ؟ ... إنها مكة التى يجتمع الكل عندها ، ويأيتها الأبناء والبنات من كل مكان وذلك فى الحج بنص الآيه : « **وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** »[1] .

أما الغنم والكباش فإن المسلمين فى الحج يذبحونها كما جاء فى القرآن الكريم : « **وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من راسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا امنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى**[2] » .

وقيدار هو ابن اسماعيل الذين سكن مكة بنص التوراة كما سبق بيانه . وهذا تبشير بالدين الجديد الذى طابق الإسلام مطابقة تامة .

هذه بعض الأمثلة لما جاء فى التوراة من بشارات نبوة الرسول ﷺ وغيرها كثير .

أما فى الأناجيل فإن من ضمن النصوص التى جاءت بها نجده فى :

إنجيل برنابا : وهو أحد تلاميذ السيد المسيح عليه السلام قد صرح

---

(١) سورة الحج الآية ٢٧ .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٩٦ .

بنبوة سيدنا محمد ﷺ صراحة دون تلميح ، ففى الإصحاح ٣٩ نجد :

« فلما إنتصب آدم على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس فصارت : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ففتح آدم فاه وقال :

أشكرك أيها الرب إلهى ، لأنك تفضلت فخلقتنى ، ولكن أضرع إليك أن تنبئنى ما معنى هذه الكلمات « محمد رسول الله »

فأجاب : مرحباً بك يا عبدى آدم ، وإنى أقول لك إنك أول إنسان خلقت وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء الذى منها جاء ، سيعطى نوراً للعالم الذى كانت نفسه موضوعه فى بهاء سماوى ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئا ، فتضرع آدم إلى الله قائلا :

يارب هبنى هذه الكتابة على أظفار أصابع يدى .

فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه ، على ظفر إبهام اليد اليمنى مانصُّه : « لا إله إلا الله » وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى « محمد رسول الله » فقبلَ آدم الانسان الأول بحنو أبوى هذه الكلمات

ومسح بها عينيه وقال :

« بورِكَ ذلك اليوم الذى ستأتى فيه إلى العالم » .

وحتى الآن نجد أن من المسلمين من إذا سمعوا الآذان للصلاة يمسون الإبهامين ويقبلونها ويمسحون بهما أعينهم إذا ما نودى بالشهادتين .

وفى إصحاحات كثيرة من هذا الإنجيل بشارات واضحة عن رسول الله ونبى الإسلام محمد بن عبد الله ، ولكن المسيحيين يقرون أن هذا الإنجيل ليس معترفا به منهم اعتقادا منهم أن المسلمين قد وضعوه . ولكن التاريخ يقرر أن أقدم نسخة عثر عليها من هذا الإنجيل مكتوبة باللغه الإيطالية عام

١٧٠٩ ، وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة « كريمر » أحد مستشارى ملك بروسيا إلى البلاط الملكى بفينا وليس هذا التاريخ هو أول ما جاء فيه ذكر لهذا الإنجيل ، إذ يقول الدكتور (سعاده) فى أبحاثه عن هذا الإنجيل : إن البابا (جلاسيوس) الأول الذى جلس على الأريكة البابوية عام ٤٩٢ عَدَّد أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها وفى عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا أى أنه كان قبل ميلاد سيدنا محمد ﷺ .

﴿ بشريات من الكتب المقدسه ﴾

أنه مما لا شك فيه أن الكتب المقدسه التى نزلت قبل القرآن الكريم قد بشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺ وجاءت بآيات صريحة عن رسالة الإسلام كما شرحنا مسبقاً ، إذ أن رسول الله ﷺ عندما كان يدعو اليهود إلى الإسلام ، كان يطالبهم بالإحتكام إلى التوراة وذلك بنص الآية الشريفة : « **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** »[1].

ثم يقرر القرآن الكريم أن التوراة زيادة على أنها بشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺ قد ذكرت صفات بنص الآيه الشريفة : « **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم**»[2] هذه هى التوراة التى أنزلها الله على موسى

---

(١) ال عمران آيه ٩٣

(٢) الأعراف آية ١٥٧

ألواحا فيها المواعظ والأحكام ، وتفصيل ما يحتاج اليه الإنسان قال سبحانه وتعالى : « **يا موسى إنى إصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** »[1] .

فهل هذه التوراة المتداولة الآن ؟؟؟

يقرر التاريخ[2] أن اليهود توالت عليهم هجمات أعدائهم منذ بداية عهدهم .. ففى سنه ٨٨٢ قبل الميلاد حوصرت مدينة السامرة، وحرق كل ما فيها من الكتب الدينية ، وهدم الهيكل ، وأعدم التابوت الذى كانت فيه التوراة وتعدد عليهم الهجوم أكثر من مرة فى كل قرن من الزمان ، وكان الهدف من الإعتداء قتل اليهود لا سيما المتمسكون بدينهم وذبح أبنائهم ، واعدام كل ما يتصل بمعتقداتهم من كتب أو رسائل أو معابد .. وبديهى أنه عقب كل هجوم كان اليهود الفارون يعيدون كتابة التوراة، ولم يكن مرجعهم عند التدوين إلا ما علق فى صدورهم ، وماوعته ذا كرتهم .. الأمر الذى بسببه لابد أن تكون قد سقطت بعض الآيات أوزادت عن طريق السهو ، هذا علاوة على ما تعمده البعض من ترك بعض الآيات وإضافه أخرى لتغيير معنى ، أو تحديد إتجاه معين ، والله أعلم بما أضافوا وبما تركوا . فهل يمكن أن يكون سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قد تلا على قومه كتابا مقدسا أوحى به الله سبحانه وتعالى هداية لبنى اسرائيل ، يطالبهم فيه بعبادة الله وحده ويدعوهم إلى الخلق الكريم، والعمل الحسن، ثم يذكر فيه أن الأنبياء

---

(١) الأعراف آيه ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) عن كتاب محمد رسولا نبيا لعبد الرزاق نوفل .

قد قاموا بما يطالب قومه أن يمتنعوا عنه ؟؟
ففى نسخ التوراة المتداولة نجد بها أن سيدنا نوح قد شرب خمرا وعربد ،وأن النبى داود أحب إمرأة قائد جيشه ، وأن النبى سليمان مات وثنيا يعبد الأصنام ، وأن النبى إبراهيم كذب إذا ادعى أن زوجته هى أخته ، وأن النبى لوطا شرب خمرا وزنى بإبنتيه وأن يهوذا زنى بكنته !!! فكيف يستجيب الناس لدعوة بعد أن يعلموا أن الأنبياء المرسلين لم يستجيبوا لها ؟؟ .. بل عملوا على نقيضها ؟ !!

ومن أوضح الأدلة التى تؤكد أن الكتب المقدسة كما نزلت على الرسل بشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺ أن اليهود والنصارى الذين كانوا على علم بأصول دياناتهم كانوا أسرع فى الدخول إلى الإسلام من عبدة الأوثان والأصنام أمثال ورقة بن نوفل ، والراهب بحيرى ، وسلمان الفارسى ، وعبد الله بن سلام ، ومخيرق والنجاشى ، وقس بن ساعدة الأيادى وسوف نتكلم عن هؤلاء تفصيلا بإذن الله فى حينه .   وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى، والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه ، أما الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى فعما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالاً حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها . فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه ، حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق

السمع فيها فرموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد .

ويحكى أن أول من فزع من العرب للرمى بالنجوم حى من ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له (عمرو بن أميه) وكان أدهى العرب فقالوا له :

يا عمرو ألم تر الى ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟

قال : بلى .. فانظروا فإن كانت النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا ، وهلاك هذا الخلق ، وإن كانت نجوما غيرها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق .

ويحدث رجال من المسلمين : « أن مما دعانا إلى الإسلام لما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : أنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن .. فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث النبى ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى ، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به » .

وكان مسلمة من أصحاب بدر يقول :

كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل .. فذكر القيامة والبعث ، والحساب والميزان ، والجنة والنار فقالوا له : ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال : نبى مبعوث من نحو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن - فقالوا : ومتى نراه؟ فنظر إلىّ - وأنا من أحدثهم سنا - فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه .

قال مسلمة : فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا

رسوله ﷺ ولقد أنزل الله على سيدنا عيسى الإنجيل بنص الآية :

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل »[1].

قال ابن اسحق :

وقد كان فيما بلغنى عما كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبت (يُحَنّس الحوارى) لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم عليه السلام فى رسول الله ﷺ إليهم أنه قال : « من أبغضنى فقد أبغض الرب ، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئه ، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعززوننى وأيضا للرب ، ولكن لابد وأن تتم الكلمة التى فى الناموس ، إنهم أبغضونى مجانا أى (باطلا) فلو قد جاء (المنحمنا)[2] هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس، هذا الذى من عند الرب خرج فهو شهيد علىّ ، وأنتم أيضا، لأنكم قديما كنتم معى فى هذا ، قلت لكم لكيما لا تَشكُوا.

★★★

وقد وقع إضطهاد كبير على المسيحين من أعدائهم فى عهودهم الأولى، ومن المسيحيين الذين يخالفونهم فى الرأى بعد ذلك، ولعل ما وقع عليهم من (نيرون) الطاغية لم يقع على غيرهم من قبل ففى عام ٦٨ م كان (نيرون) يُلقى بالمسيحين للوحوش الضارية تنهش أجسامهم، بل وأمر فطُليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح فى بعض الإحتفالات

---

(١) الحديد من الآيه ٢٧

(٢) المنحمنا بالسريانية محمد وهو بالرومية البرقليطس ﷺ.

التى كان يقيمها (نيرون) فى حدائق قصره .. ثم توالت الحرب عليهم بعد ذلك ، وهذا سبق ذكره فى باب (حالة الدين فى العالم) عن ديانة المسيحية وآرائهم المختلفة .

★★★

ومن البشريات « ورقة بن نوفل »

ومن أوضح الأدلة التى تؤكد أن الكتب المقدسة كما نزلت على الرسل وبشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺ، أن اليهود والنصارى الذين كانوا على علم بأصول ديانتهم كانوا أسرع فى الدخول إلى الإسلام من عبدة الأوثان والأصنام إذ أول من آمن بنبوة محمد ﷺ على وجه الإطلاق هو الراهب النصرانى (ورقة بن نوفل) وقد عرف عنه أنه ممن درسوا ديانتهم دراسة عميقة ، بل إنه نقل بعض الأناجيل إلى العربية وكان هو ابن عم خديجة زوج النبى ﷺ التى ذهبت إليه تخبره بما حدث لزوجها فى الغار ليلة جاءه جبريل عليه السلام ، ويومها طمأنها وقال قولته المشهورة : « والله الذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ، ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه . »

ألا يكون ورقة قد آمن بنبوة محمد ﷺ؟ وألا يكون أول من آمن به ؟؟

ومن البشريات : « الراهب بحيرى »

والراهب بحيرى أعلم أهل زمانه بالنصرانية يوم مَرَّ عليه أبوطالب فى قافلة تجارة إلى الشام وكان يصحب إبن أخيه محمد ﷺ وكان يومئذ لم يتجاوز الثانية عشر من عمره واعداده طعام للقافلة - على غير عادته - وذلك لما لفت نظره وجود غمامة تظلل هذا الفتى وتتحرك معه حيثما يتحرك فأراد أن يتأكد من صفات هذا الفتى ، ولما حضر محمدﷺ ورآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا ، وينظر إلى أشياء من جسده وقد كان يجدها عنده من صفاته .. حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعُزّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، وإنما قال بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما .. فقال محمدﷺ : « لا تسألنى باللات والعُزّى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما »

فقال بحيرى : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟

فقال له : « سلنى عما بدا لك »

فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه ، وهيئته وأموره .. وجعل محمدﷺ يخبره .. فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته .. ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده ..(١)

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : إبنى . قال له بحيرى : ما هو بإبنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا

قال : فإنه إبن أخى

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى به

---

(١) قال ابن هشام كان مثل أثر المحجم .

قال : صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغينَّه شراً ، فإنه كائن لإبن أخيك هذا شأن عظيم .

وزعموا فيما روى عن الناس أن (زريرا) و (تماما) و (دريسا) - وهم نفر من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا محمداﷺ مثل ما رآه بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه ، فردهم عنه بحيرى، وذكّرهم الله ، وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه .

واليهود والنصارى الذين آمنوا بنبوته ، وكانوا على علم بموعده وأوصافه وصفاته كثيرون .. بل إن يهود يثرب قد أرسلوا إليه رسلهم يدعونه إلى بلدتهم ، حيث أنهم يعلمون أنهم فى إنتظار نبى حان موعده ويحدثنا التاريخ عن إسلام بعضهم مثل (سلمان الفارس) .

﴿ قصة سلمان الفارسى ﴾

قصة سلمان الفارسى ، وبحثه عن الدين الحق وبشارة من لا قوه من النصارى بقرب بعث الدين الخاتم :

قال ابن إسحق :

وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود بن لبيد ، عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى سلمان الفارسى من فيه قال :

كنت رجلا فارسياً من أهل أصفهان من أهل قرية يقال لها (جى) ، وكان أبى دهقان[1] قريته ، وكنت أَحَبُّ خلق الله إليه ، لم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت

---

(١) دهقان : شيخ القرية .

قطن النار الذى يوقدها ولا يتركها تخبو ساعة واحدة .. وكانت لأبى ضيعة عظيمة . . وفى يوم شغل أبى فى بنيان له فقال لى :

يا بنى أنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد ثم قال لى :

ولا تحتبس عنى فإنك إن إحتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شئ من أمرى .

قال : فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها .. فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس صائر إليه لحبس أبى اياى فى بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم

وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبى فلم آتها ثم قلت لهم : أين أصْلُ هذا الدين ؟

قالوا : بالشام ، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أى بنى أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت : يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال : أى بنى ليس فى هذا الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، قال : قلت له: كلا والله إنه لخير من ديننا ، قال : فخافنى ، فجعل فى رجلى قيداً ، ثم حبسنى فى بيته ، قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم ، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم ، قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم فألقيت الحديد من رجلى .. ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام فلما قدمتها قلت : من أفضل هذا الدين علما ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسه ،

قال : فجئته فقلت له : إني قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببت أن اكون معك واخدمك فى كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك قال : أدخل فدخلت معه ، قال : وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقه ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئا منها إكتنزه لنفسه ، ولم يعط المساكين ، حتى جمع اليه سبع قلال من ذهب وورق ، قال : فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا رجل سوء يأمركم بالصدقه ويرغبكم فيها فاذا جئتموه بها إكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا قال : فقالوا لى : وما علمك بهذا ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه قالوا : فدلنا عليه قال : فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقا ، قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فقال : فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس أرى أنه كان أفضل منه ، وأزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه قال : فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله مثله ، قال فأقمت معه زمانا ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إنى قد كنت معك ، وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى بى ؟... وبم تأمرنى ؟ . قال : أى بنى والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس ، وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصانى عند موته أن الحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره . قال : فقال لى : أقم عندى ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلانا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصى بى؟ وبما تأمرنى ؟ قال : يا بنى والله ما أعلم رجلا على مثل ماكنا عليه

إلا رجلا من نصيبين وهو فلان فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبرى ، وما أمرنى به صاحبى فقال : أقم عندى ، فأقمت عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلانا كان أوصى بى الى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرني ؟ قال : يا بنى والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فإته فإنه على أمرنا .

فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبرى ، فقال : أقم عندى فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة قال : ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له : يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : أي بنى والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه ، ولكنه قد أظلَّ زمان نبى ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى . . يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ... قال : ثم مات وغيب ، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مَرَّ بى نفر من (كلب) تجار فقلت لهم : إحملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى وغنيمتى هذه .. فقالوا : نعم ، فأعطيتهموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى من رجل يهودى عبدا فمكثت عنده ، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ، ولم يحق فى نفسى ، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه إبن

عم له من بنى قريظه من المدينة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى فأقمت بها وبُعثَ رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر ، مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إني لفى رأس عذق لسيدى أعمل له فيه بعض العمل ، وسيدى جالس تحتى إذ أقبل إبن عم له ، حتى وقف عليه فقال: يا فلان ، قاتل الله بنى قيلة،[1] والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبى .

قال إبن اسحق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس قال : قال سلمان : فلما سمعتها أخذتنى العُرْواء،[2] حتى ظننت أنى ساقط على سيدى فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لإبن عمه هذا : ماذا تقول ؟ ... فغضب سيدى ولكمنى لكمه شديدة ثم قال : مالك ولهذا ؟ .. أقبل على عملك ، قال : قلت : لاشئ إنما أردت أن أستثبته عما قال . وقد كان عندى شئ قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ص وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ،ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شئ قد كان عندى للصدقه فرأيتكم أحق به من غيركم ، قال : فقربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : «كلوا » وأمسك يده فلم يأكل ، قال : فقلت فى نفسى هذه واحدة ، قال : ثم إنصرفت عنه فجمعت شيئا ، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته به فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية أكرمتك بها ، قال : فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه

---

(١) قال ابن هشام : قيله بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة أم الأوس والخزرج .

(٢) قال ابن هشام : العرواء : الرعدة من البرد والانتفاض فان كان مع ذلك عرق فهى الرحضاء وكلاهما ممدود .

فأكلوا معه ، قال : قلت في نفسي: هاتان ثنتان . قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الفرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه ، على شملتان لى[1] ، وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه، ثم استدرت أنـظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟

فلما رآنى رسول الله ﷺ إستدبرته عرف أنى أستثبت في شئ وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته .. فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال لى رسول الله ﷺ: « تحوَّل » فتحولت ، فجلست بين يديه ، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه ، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ «بدر» و «أُحد» . قال سلمان : ثم قال رسول الله ﷺ «كاتب ياسلمان » فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وأربعين أوقيه ؛ فقال رسول الله ﷺ . لأصحابه : « أعينوا أخاكم » فأعانونى بالنخل : الرجل بثلاثين ودية[2]، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى إجتمعت لى ثلاثمائة ودية ، فقال لى رسول الله ﷺ: « إذهب ياسلمان ففقر[3] لها فاذا فرغت فأتنى أكن أنا أضعها بيدى » قال : ففقرت وأعاننى أصحابى ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته ، فخرج رسول الله ﷺ معى إليها ، فجعلنا نقرب إليه الودى ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى فرغنا ، فوالذى نفس سلمان بيده ، ما ماتت منها وديه واحدة ، فأديت النخل، وبقى علىَّ المال فأتى رسول الله ﷺ

---

(١) الشملة : كساء واسع يشتمل به . . ج شملات انظر المنجد مادة شمل .

(٢) صغار الفسيل (شتلة) انظر المنجد ماده ودى .

(٣) فقر : حفر لها ، فقر الفسيلة حفر لها لتغرس فيها انظر المنجد ماده فقر .

بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن فقال : « ما فعل الفارس المكاتب ؟ » قال : فَدُعيت له ، فقال « خذ هذه فأدِّها مما عليك ياسلمان » قال : قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ ؟ فقال : خذها فإن الله سيؤدى بها عنك » قال فأخذتها فوزنت لهم منها والذى نفس سلمان بيده ، أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها . وعتق سلمان فشهدت مع رسول الله ﷺ « الخندق » حُراً، ثم لم يفتنى معه مشهد. (خبر صحيح واسناده جيد).

« خبر زيد بن عمرو بن نفيل »

قال ابن اسحق :

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميته والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : أعبد رب إبراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

قال ابن اسحق :

وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه ، عن أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مُسْنِداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده : ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحبُّ إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه .. ثم يسجد على راحته .

(خبر صحيح واسناده جيد)

وقال ابن اسحق :

وحدثت أن إبنه سعيد بن زيد بن عمرو بم نفيل وعمر بن الخطاب - وهو ابن عمه - قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟

قال : « نعم ، فانه يُبعث أمة وحده »

(حديث صحيح واسناده معضل)

ويحضرنى بيتين من قصيدة طويلة قالها زيد بن عمرو بن نفيل فى فراق دين قومه :

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تُقُسِّمتِ الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور

وأخريين :

ولكن أعبد الرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور

فتقوى الله ربكم إحفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا

وقال زيد بن عمرو يعاتب زوجته صفية بنت الحضرمى :

قال ابن اسحق :

وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة، ليضرب فى الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، فكانت صفية الحضرمى كلما رأته تهيأ للخروج وأراده ، آذنت به الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه ، وكان يعاتبه على فراق دين قومه وكان الخطاب قد وكَّل صفية به وقال : إذا رأيته قد هَمَّ بأمر فآذنينى به ، فقال زيد معاتبا زوجته : (نذكر بعضا منها) .

لا تحبسينى فى الهوا ... ن صفى ما دابى ودابه

إنى إذا خفت الهوا ... ن مشيع ذلل ركابه

وأخي إبن أمى ثم عم ... ى لا يواتينى خطابه

قال إبن اسحق :

وحدثت عن بعض أهل زيد بن عمرو بن نفيل ، أن زيدا كان إذا إستقبل الكعبة داخل المسجد قال : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً .. عُذت بما عاذبه إبراهيم . وكان الخطاب قد آذى زيدا حتى أخرجه إلى أعلى مكة ، فنزل حراء مقابل مكة ، ووكّل به شبابا من شباب قريش ، وسفهاء من سفهائهم، فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة فكان لايدخلها إلا سرا منهم ، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب ، فأخرجوه وآذوه كراهية أن يُفسد عليهم دينهم ، وأن يتابعه أحد منهم على فراقه .

ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيره كلها ، ثم أقبل فجال الشام كلها حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة) من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم فأجابه قائلا : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم .. ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين ابراهيم الحنيفيه فالحق بها فإنه مبعوث الآن هذا زمانه ، وقد كان شَامَ اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئا منهما .. فخرج سريعا حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد (لخم) عدوا عليه فقتلوه ، فقال ورقه بن نوفل بن أسد يبكيه :

رَشِدْتَ وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وادراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا

خبر عبد الله بن سلام

وكان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم ، وكان حبراً عالماً قال :

لما سمعت برسول الله ﷺ ، عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوقع له ، فكنت مُسِرًّا لذلك صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه فلما سمعت الخبر كَبَّرت .. فقالت عمتى لى حين سمعت تكبيرى :

خيبك الله . . والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت على ذلك فقلت لها : أى عمه هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه بُعِثَ بما بُعِثَ به . . فقالت : أى إبن أخى أهو النبى الذى كنا نُخبر أنه يُبعث مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم . ثم جئت رسول الله ﷺ وقلت له : يا رسول الله إن يهود قوم بُهْت ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم ، فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته ودخلوا ثم قال لهم :

أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم :

يا معشر يهود إتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوارة بإسمه وصفته فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه .

ومن البشريات أيضا : حديث مخيرق

ومخيرق كان حبراً عالماً ورجلاً غنياً كثير المال ، عرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجده في علمه . جمع اليهود وقال لهم : « يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق » وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد وأسلم وقال للرسول ﷺ : « لقد عهدت إلى قومي إن قتلت اليوم لتأخذن أموالي ولتصنعن بها ما ترى » .

ومعروف في السيرة أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه .. وكانوا ينتظرون بعثه ويقولون : سيكون النبي الأخير من بيننا » أما من ظل من اليهود على ديانته ، ولم يؤمن برسول الله ﷺ ، فقد كان ذلك إما للحقد والحسد ، وإما لضعف في العقل ، وقلة في الفكر مثل « فنحاص » الذي رفض الإسلام إذ عرضه عليه أبو بكر فقال فنحاص ما يؤكد جنونه إذ قال : « ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغني ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم فضربه أبو بكر ضرباً شديداً .

وإيمان ملوك وأباطرة لما سمعوا عنه في كتبهم منهم :

النجـــاشي

ثم هؤلاء الملوك والأباطرة الذين آمنوا به بعد أن تحققوا أنه قد بشرت به الكتب المقدسة وهو على بعد كثير منهم مثل النجاشي ، فعندما وفد

عليه المهاجرون من المسلمين طلب إليهم أن يسمع منهم بعضاً مما جاء به نبى الإسلام ، فتُليت عليه آيات من سورة مريم .. فبكى هو وأساقفته وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » وأعلن إسلامه .

قِسُّ بن ساعدة

ولا يتسع المجال لإحصاء كل من دخلوا فى دين الإسلام من اليهود والنصارى ، الذين إعترفوا أنهم عرفوه مما جاء فى كتبهم ، ومنهم من صرح بالبشارة بنبى الإسلام قبل بعثه .

إذ أنه لما بعث الرسول ﷺ ، ووفد عليه وفد عبد القيس سألهم :
«. من يعرف قِسُّ بن ساعدة الأيادى ؟ »
قالوا : (كلنا يعرفه)
قال : « فما فعل ؟ » .
قالوا : (هلك)
فقال عليه الصلاة والسلام :
« لست أنساه على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام له حلاوة ولا أحفظه » .

قال أبو بكر : « إنى أحفظه يا رسول الله فقد كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ حيث قال : « إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم ، ونبياً قد حان حينه وأظلكم أوانه » .

أليس فى ذلك الدليل الذى لا شك فيه أن الكتب المقدسة التى نزلت

قبل القرآن الكريم قد بشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺ ؟؟

﴿ العرب حين البعثة وقبلها ﴾

قال الشيخ الغزالى :

كان أهل مكة ضعاف التفكير .. أقوياء الشهوات ، إذ لا صلة بين نضج الفكر ونضج الغريزة .. ولا بين تخلف الجماعات من الناحية العقلية ، وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع . إن عرام الشهوات الذى نسمع عنه فى باريس وهوليود لا يزيد كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفاسد الإنسان على ظهر الأرض .

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا فى زيادة وسائل الإغراء فحسب .

أما الشهوات نفسها فهى من قبل الطوفان ومن بعده .. الأثرة .. والجشع .. والرياء والتهارش[1] .. والحقد !! وغير ذلك من ذميم الخصال .. ملأت الدنيا من قديم وإن تغيرت الأزياء التى تظهر بها على مَرِّ العصور . وإن الإنسان ليرى فى القرية التافهة وفى القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور ما يراه فى أرقى البيئات ، وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من العلم والفضل .. ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جدا من الاحتيال ، والتّطلّع ، والدّس ، وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يُحْسِنُ مسألة قريبة من أنفه . ومع ذلك فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه ..

---

(١) تهارش : تحرش بعضهم ببعض وتخاصموا . انظر المنجد مادة هرش .

ومن عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا الغباء ، وهذا العناد ..

فعندما دعى قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده كانت إجابتهم لنوح لا تهتم بموضوع الدعوة قدر إهتمامهم بشخص الداعي ، وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة .

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ... »[1] .

ما أكثر منافذ الهوى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد محلفات الهوى في الأخلاق والأفكار والسير والسياسات .

وقد كانت مكة على عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء .. وشلل الأفكار ، أونمائها في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده ..

كُفرٌ بالله واليوم الآخر .. إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه .. رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة .. عصبيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك .. تقاليد متوارثة تُوجِّه نشاط الفرد المادى والأدبى داخل هذا النطاق المحدود . ومن الخطأ أن نحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران فى صحراء موحشة لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التى تمسك عليها الرمق ، كلا ، إنما شبعت حتى بطرت .. وتنازعت الكبرياء حتى تطاحنت عليها ... وكثر فيها مَنْ تَغَلْغَلَ الإلحاد فى أغوار نفسه حتى

---

(١) المؤمنون من الآية ٢٤ .

عَزَّ إخراجه منه ، فهم بين عَمٍّ عن الصواب أو جاحد له .

وفى هذا المجتمع الذى لم ينل حظا يذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مداه .. ووُجِدَ من يُسابق فرعون عتوه وطغواه .

قال عمرو بن هشام - معللاً كفره برسالة محمد عليه الصلاة والسلام - زاحمت بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه .. والله لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ! ...

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله ﷺ : لو كانت النبوة حقا لكنتُ أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً .

وهذه السفاهات العاتية ، لم تنفرد مكة بها . فما كان كُفْر (عبد الله بن أُبيّ) فى المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

إن ابن أُبيٍّ غص بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته .. وكذلك فعل أبو جهل من قبل ولئن كان هؤلاء قد إزوروا عن الحق بعدما تبينوه .. إن هناك ألوفا غيرهم لا يدركون قيلاً ، ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

كما إنتشر في بلاد العرب وأد البنات إذ كانوا يدفنون بناتهم أحياء ، كما عمت الفوضى وانتشر الظلم والجور فى كل علاقة للإنسان بغيره .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة والعداوات المقصودة أو المضللة وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة . .

ومن بين هذه السحب القاتمة التى خيمت فوق سماء البشرية ولهداية هؤلاء القوم الذين وصلوا بالإنسانية إلى حضيض الحياة ، أرسل الله سبحانه

وتعالى خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد ﷺ وأوحى إليه قرآنا عربيا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور : « **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** » (ابراهيم ١)

وأخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته فأخرج أمة من الظلام إلى النور؛ بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيء ويهدى ، والدروس التى أحدثت هذا التحول الخطير والتى رفعت شعوبا وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواءً موقوتا أو مخصوصاً ، بل هى علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا إلتاثت .. وستظل ما بقى الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة .

★★★

﴿ رسالة للعالم كافة ﴾

بعد هذا الإعداد الذى أعده الله فى كونه لرسول الله ﷺ بأن كل أنبيائه يبشرون بالرسول ﷺ .. وبعد أن ذكر أوصاف النبى ﷺ فى الكتب السماوية التى سبقت القرآن كان لابد من الإجابة على سؤالين هامين[١]

السؤال الأول : لماذا جاءت رسالة رسول الله ﷺ للعالمين أو للدنيا كلها ؟ ولم تأت لقوم خاصة ؟ .. لقد كان الأنبياء قبل رسول الله ﷺ يرسلون إلى أقوامهم فقط ليعالجوا داءات معينة فى الكون .. حتى أنه فى وقت واحد كان هناك أكثر من رسول .. فكان هناك إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وكان هناك لوط عليه السلام كلاهما بعث فى وقت واحد .. إبراهيم

---

(١) عن كتاب محمد رسول الله للإمام الجليل الشيخ محمد متولى الشعراوى .

ليعالج عبادة الأصنام .. ولوط ليعالج الشذوذ الجنسى الذى تفشى بين قومه .

نقول إنه فى الأوقات التى أرسل فيها الرسل السابقون كانت المجتمعات منعزلة عن بعضها البعض .. وكانت وسائل المواصلات بطيئة ، وشاقة وتكاد تكون شبه معدومة .. حتى أن هناك قوماً كانوا يعيشون فى مكان ما ، لا يعرفون شيئاً عن أناس يعيشون فى مكان بعيد عنهم ، ولذلك إقتضت حكمة السماء أن يرسل كل رسول إلى قومه ليعالج داء أو داءات معينة فى مجتمع معين .. ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه أن الكون سيتوحد .. وأنه جل جلاله سيتيح للبشر من أسرار كونه ما يجعل الإتصالات سهلة والمسافات البعيدة قصيرة .. فيتوحد العالم فى مشكلاته وهذا ما نراه الآن .. فالحادث الذى يقع فى دولة يعرفه العالم كله بعد دقائق .. والداء يظهر فى أمريكا فينتقل بسرعة إلى أوربا .. وبسرعة أكبر إلى أفريقيا وآسيا وباقى الدول .. حتى أصبحت مشاكل العالم شبه واحدة . . فنرى مثلا مشكلة العنف والإرهاب تواجه الدنيا كلها .. ونرى مشكلة المخدرات لا تقتصر على شباب دولة معينة ، بل تمتد إلى دول العالم أجمع .. وهكذا توحدت الداءات فى الدنيا كلها ، فكان لابد من وحدة المعالجة .. لأن المشاكل فى العالم واحدة فالعلاج يكون موحداً .

وهكذا جاءت رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين لتعالج مشاكل العالم كله . ولقد كان من الواجب بعد كل هذه المقدمات أن يحس الناس بأهمية الإسلام .. وبما جاء به القرآن كمنهج . ولكنهم بدلاً من ذلك ، فإن كثيراً من أهل الأرض الذين يسمعون عن الإسلام والقرآن لا يحاولون أن يقرأوا عنه تلك القراءة الواعية التى تنير أمامهم الطريق .

وتجد الواحد منهم مثلا يهتم برحلة سياحية سيقوم بها فيقرأ أدق التفاصيل عن البلاد التى سيزورها .. ويسأل من سبق لهم أن زاروها ، ولكنه لا يحاول أن يتعلم دينه أو أن يفهم عن الإسلام .

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون ، وأعده للإنسان قبل أن يخلق الإنسان .. وجعل الإنسان هو السيد وكل الكون يخدمه ، وكله مُسَخَّرٌ له .. ولكن الكثيرين لا يسألون أنفسهم من الذى سَخَّرَ ؟ ومن الذى خلق ؟

السؤال الثانى : لماذا كان رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ؟

لأنه ببعثه عليه الصلاة والسلام إكتمل الدين .. اكتمل المنهج مصداقاً لقوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** »[1] .

ويقول رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

والله سبحانه وتعالى قد جعل معجزة رسول الله ﷺ هى منهجه .. ليبقى المنهج محروساً إلى يوم القيامة بالمعجزة .. فالكتب السابقة إئتمن الله عليها خلقه .. ماذا فعلوا بها ؟؟ ! نسوها ومالم ينسوه حَرَّفوه .. ومالم يحرفوه أخفوه .. ومالم يخفوه بدلوه وغيروه .. وهكذا لم يكن البشر مأمونين

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

على منهج السمـاء .. لأن هوى النفس تدخل .. وأطماع الدنيا غيرت وبدلت .. ولكن الحق سبحانه وتعالى حفظ القرآن الكريم من أى تغيير أو تبديل . «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» (سورة الحجر آية ٩) .

★★★

﴿ التطلع إلى مقدمِ مُصلِح ينقذُ العالم ﴾

كانت الإشاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبياً قد إقترب ظهوره ولهذه الإشاعات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسل أن يتتابعوا فلا تطول فترة الإنقطاع بين أحدهم والآخر .. وكثيراً ما تعاصر المرسلون فجمعتهم أقطار واحدة أو متجاورة كمثل موسى وشعيب .. وسليمان وداود .. وإبراهيم ولوط .. وغيرهم .. لكن الأمر تغير بعد عيسى عليه السلام فكادت المائة السادسة تتم بعد بعثته ولم يأت نبى جديد .

فلما إكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب .. وكان هناك رجال ممن ينكرون الجهالة السائدة يستشرفون للمنصب الجليل ، ويتمنون لو أختيروا له .. منهم : (أمية بن أبى الصلت) الذى حفل شعره بالتحدث عن الله وما يجب له من المحامد ، حتى قال رسول الله ﷺ فيه : « كاد أمية أن يسلم »[١] .

وعن عمر بن الشريد عن أبيه : ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال : «هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ قلت : نعم قال : هيه فأنشدته بيتا فقال : هيه حتى أنشدته مائة بيت »[٢] .

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤٩/٧) وابن ماجه (٤١٠/٢) من حديث أبى هريرة وأخرجاه أيضا من حديث الشريد وهو تمام الحديث الآتى بعده .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم .

غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطلعين من شعراء وناثرين وألقى بالأمانة الكبرى إلى رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها « **وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين** »[1] .

إن الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ، ولكن بالطاقة عليها .

وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل ، وكم من راسخين يطويهم الصمت ، حتى إذا كُلِّفوا أتوا بالعجب العجاب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها ، والذى يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفسا عظيمة .. وقد كان العرب فى جاهليتهم يرمقون محمداً ﷺ بالإجلال ويحترمون فى سيرته شارات الرجولة الكاملة ، إلا أنهم لم يتخيلوا قط أن مستقبل الحياة قد إرتبط بمستقبله ، وأن الحكمة ستنفجر من ذلك الفم الطهور ، فتطوى السهوب[2] والجدوب وتثب الوهاد والنجاد ..

إنهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر .. تشغله الصفحة الهادئة عن الغور البعيد .

كان إصطفاء الله لمحمد ﷺ مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشف عنه ، ثم ثبت الكاهل الجَلِدْ لما أُلقى عليه ، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً ..

ومكث الوحى ينزل ثلاثاً وعشرين سنة كانت الآيات تنزل خلالها حسب الحوادث والأحوال ، وهذه الفترة الطويلة الحافلة هى فترة تعلم وتعليم .

----

(١) سورة القصص الآية ٨٦ .

(٢) السهوب : من الأرض البعيد المستوى جـ سهوب . انظر المنجد مادة سهب .

الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية فيديرها فى نفسه حتى يحيلها جزءاً من كيانه ، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذاً ..

ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم ، فإن الزمن جزء من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام .

★★★

مكـــة

وقصة ولاية جرهم عليها وعلى بيت الله الحرام

قال إبن هشام : وكان من حديث جرهم ودفنها زمزم وخروجها من مكة بعدها إلى أن حفر عبد المطلب زمزم ما حدثنا به زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحق المطلبى قال :

لما توفى إسماعيل بن إبراهيم ولى البيت بعده إبنه نابت بن إسماعيل - ما شاء له - أن يليه ، ثم ولى البيت بعده مضاض بن عمرو الجرهمى .

قال إبن إسحق :" وبنو إسماعيل وبنو نابت مع جدهم مضاض بن عمرو وأخوالهم من جرهم ، وجرهم وقطوراء يومئذٍ أهل مكة وهما إبنا عم ، وكانا ظعنا من اليمن فأقبلا سيارة .. وعَلَى جرهم : مضاض بن عمرو .. وعَلَى قطوراء : السميدع رجل منهم ، وكانوا إذا خرجوا من اليمن لم يخرجوا إلا ولهم ملك يقيم أمرهم ، فلما نزلا مكة رأيا بلداً ذا ماء وشجر فأعجبهما فنزلا به ، فنزل مضاض بن عمرو ومن معه من جرهم بأعلى مكة بـ (قعيقعان) ، فما حاز . . ونزل السميدع بـ (قطوراء) أسفل مكة بأجياد ، فما حاز . . فكان مضاض يعشر[1] من دخل مكة من أعلاها . . وكان

---

(١) يدفع ضريبة دخول .

السميدع يعشر من دخل مكة من أسفلها ، وكل فى قومه ، لا يدخل واحد منهما على صاحبه ، ثم إن جرهما وقطوراء بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك بها ، ومع مضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نابت وإليه ولاية البيت دون السميدع ، فسار بعضهم إلى بعض ، فخرج مضاض بن عمرو من قعيقعان فى كتيبة سائراإلى السميدع ، ومع كتيبته عدتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب يقعقع بذلك معه ، فيقال : ما سمى قعيقعان إلا لذلك ، وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال فيقال : ما سمى أجياد أجياداً إلا لخروج الجياد من الخيل مع السميدع منه ، فالتقوا بفاضح، واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل السميدع وفضحت قطوراء ، فيقال : ما سميت فاضح فاضحا إلا لذلك .

ثم إن القوم تدعوا إلى الصلح فساروا حتى نزلوا المطابخ ، شعباً بأعلى مكة واصطلحوا به ، وأسلموا الأمر إلى مضاض ، فلما جمع إليه أمر مكة فصار ملكها له نَحَرَ للناس فأطعمهم ، فأطبخ الناس وأكلوا ، فيقال : ما سميت المطابخ المطابخ إلا لذلك .. وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت المطابخ لما كان (تُبّع) نحر بها وأطعم . فكان الذى بين مضاض والسميدع أول بغى كان بمكة فيما يزعمون .

ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك ، لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاما للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد فلا يناوؤن إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم .

ثم إن جرهما بغوا بمكة وإستحلوا خلالاً من الحرمة فظلموا من دخلها من غير أهلها وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدى لها ، فرق أمرهم ،، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة فآذنوهم بالحرب ، فاقتتلوا ، فغلبتهم بنو بكر وغبشان ، فنفوهم من مكة ، وكانت مكة فى الجاهلية لا تَقِرُّ فيها ظلماً ولا بغياً ، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته ، فكانت تسمى (الناسة) ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه ، فيقال إنها ما سميت بـ « بكة » إلا أنها كانت تبكُّ أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا[1] .

« إستبداد قوم من خزاعة بولاية البيت »

قال ابن إسحق :

ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناه ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى .. وقريش إذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة ، فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، وأذكر هنا أن إبن إسحق قال :

إنما سميت قريش قريشاً لتجمعها من بعد تفرقها .. يقال للتجمع : التقرش – حتى كان آخر من تولى البيت من خزاعة (حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو) (وهو لحى) الخزاعى .

---

(١) قال بن هشام : أخبرنى أبو عبيدة أن بكة إسم لبطن مكة لأنهم يتباكون فيها أى يزدحمون وأنشد

إذا الشريب أخذته أكه   فخله حتى يبك بكة

أى فدعه حتى يبك إبله أى يخليها إلى الماء فتزدحم عليه وهو موضع البيت والمسجد

﴿ تزويج قصى من حيى بنت حليل ﴾

قال إبن إسحق :

ثم إن قـصى بن كـلاب[1] خطب إلى حليل بن حـبشـيـة بنتـه (حـبى) فـرغب فـيـه حليل ، فـزوجـه فـولدت له عـبـد الدار ، وعـبـد مناف ، وعـبـد العـزى، وعـبداً وتخـمر وبرة . . فلـما إنتـشـر ولد قـصى وكـثر مـاله ، وعظم شرفـه هلك حليل . . فرأى قصى أنه أولى بالكعـبة وبأمـر مكة من خزاعـة وبنى بكر ، وأن قـريشا قرعـة إسمـاعيل بن إبراهيم وصريح ولده فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه، فلمـا أجـابه قـومـه إلى مـا دعـاهم إليـه كـتب إلى أخـيـه من أمـه (رزاح بن ربيعة) يدعوه إلى نصرته والقيـام معه - فخرج رزاح بن ربيعة ومعـه إخوته : حن بن ربيـعـة ومـحـمود بن ربيعة وجلهـمـة بن ربيـعـة ، وهم لغـير أمـه فـاطمـة فـيـمن تبعـهم من قـضاعـة فى حـاج العـرب ، وهم مـجـمـعـون لنصرة قـصى ، وخزاعة تزعـم أن حُليل بن حبشيـة أوصى بذلك قُصَىٍّ ، وأمره به حين إنتشر له من إبنته من الولد ما انتشر .. وقال : أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها وبأمر مكة من خزاعة فعند ذلك طلب قصى ما طلب .

---

(١) قصى هو الجد الرابع لرسول الله ﷺ .

﴿ ما كان يليه الغوث بن مُر من الإجازة للناس بالحج ﴾

وكان الغوث بن مُر بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر يلى الإجازة للناس بالحج من عرفه وولده من بعده .. وكان يقال له ولولده : صوفة ، وإنما وُلىّ - ذلك الغوث بن مُر لأن أمه كانت إمرأة من جرهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هى وُلدت ولداً أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ، ويقوم عليها ، فولدت الغوث فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، فولى الإجازة بالناس من عرفه لمكانه الذى كان به من الكعبة وولده من بعده حتى إنقرضوا .

ثم ورثهم بنو سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، وكان من بنى سعد فى آل صفوان بن الحارث ابن شجنة .

قال ابن هشام : صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم .

قال إبن إسحق :

وكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم بنوه من بعده حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام « كرب بن صفوان » .

﴿ غلب قصي بن كلاب على أمر مكة ﴾

ونعود لموضوع قصى حين أجابه أخوه من أمه رزاح وذهابه لنصرته فى مكة ..

ذهب قصى بن كلاب ومن معه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة فقال : لنحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فاقتتل الناس قتالاً شديداً ثم انهزمت صوفة وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك .

وإنحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفه ، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة ، فلما إنحازوا عنه بادأهم وأجمع لحربهم وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً . . حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعاً ، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح ، وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحكَّموا (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة) . فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع ، يشدخه تحت قدميه ، وأن كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدِّية مؤداه ، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة .. فسمى (يعمر بن عوف) يومئذ « الشدَّاخ » لما شدخ من الدماء ووضع منها .

﴿ ولاية قصى أمر مكة والبيت ﴾

وُلِّىَ قصى البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه قد أقرَّ للعرب ما كانوا عليه

حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله ، فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة[١] والندوة[٢] واللواء[٣] فحاز شرف مكة كله .

وسمته قريش مجمعاً لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح إمرأة، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فى داره ، فكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ، ومن بعد موته كالدين المُتَّبع لا يعمل بغيره ، وإتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضى أمورها .

فلما كبر قصى وَرَقَّ عظمه وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى وعبد ... قال قصى لعبد الدار :

أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيديك ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا فى دارك . فأعطاه داره دار الندوة التى لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة وكانت الرفادة[٤] خرجا

---

(١) الرفادة : طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل موسم الحج .

(٢) الندوة : الإجتماع للمشورة .

(٣) اللواء : يعنى الحرب .

(٤) سبق شرحه

تخرجه قريش كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع به طعاما للحجيج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وأهل الحرم ، وأن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام .. ثم جرى فى الإسلام إلى يومك هذا .. فهو الطعام الذى يصنعه الحاكم كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج .

★★★

﴿ البيوت الحرام ﴾

[1]يدور البحث ما يدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من إحدى نواحيه بتلك البيوت التى تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام ، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة يشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها . وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهى بيت (الأقيصر) وبيت (ذى الخلصة) و (بيت صنعاء) و (بيت رضاء) و (بيت نجران) و (بيت مكة) أشهرها وأبقاها عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد .

وكان « بيت الأقيصر » فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعره .

---

(١) عن العقاد فى كتابه مطلع النور .

وبيت « ذى الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخارى أن النبى ﷺ أمر بهدمه فهُدم وأن الذين كانوا يسمونه بالكعبة اليمانية كانوا يطلقون إسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزاً بين الكعبتين . وكان بصنعاء (بيت رئام) يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران (يقرآن التوراة) من ملك اليمن أن يأمر بهدمه لأنه شيطان يفتن الناس فأذن لهما فهدماه . وفى (بيت رضاء) يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة   فتركتها قفرا بقاع أسحما

وأعان عبد الله فى مكروهها   وبمثل عبد الله أغشى المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة (عبد الله فلبى) فى رحلته ٢٥ يونيه سنة ١٩٣٦ .

ويقول بعض المؤرخين ومنهم (أبو المنذر) أن هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة لم يكونا من بيوت العبادة ، وإنما كانا من المزارات الشريفة التى يذكرها السياح .

إن « البيوت الحرام » وجدت فى الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحداً إخترعها لتعبد وتقصد ، وإنما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ، ثم أقيم لها المكان الذى تُعبد فيه وتقصد من أجله وقد إجتمع لبيت « مكة » من البيوتات الحرام مالم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة ، لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والمغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطىء الجنوب وكانت القبائل تتردد عليها ، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أوفى رحلاتها .. فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى

اليمن ، أو المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس ، أو دولة الحبشة وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادى الصحراء . فهى - أى مكة - مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداه .. وهى وإن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة .

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ، ولم تكن كسروية ، ولا قيصرية، ولا تبعية ، ولا نجاشية كما عساها كانت تكون لو إستقرت على مشارف الشام ، أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه .

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها . . وهى قديمة سابقة لكتابة أسفار (العهد القديم) فى التوراة فإنها هى « ميشة » المشار إليها فى « سفر التكوين » وهى « ميشا » التى يقول الرحالة « برتون » أنها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند .. ويقول الرحالون الشرقيون أنها كانت كذلك بيتا مقصوداً للصابئين الذين أقاموا فى جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون .

ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطىء الهند ، وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية ، وأفلاك السماء كلما ترددوا

عليها فى تجارتهم من أقدم عهود التاريخ فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلاً لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والإحرام .

﴿ الأسباب التى من أجلها دعت أبرهة للهجوم على مكة ﴾

ومن المحاولات التاريخية التى لاشك فى بواعثها محاولة عام الفيل ، ومحاولة « عثمان بن الحويرث » أن يدخل مكة فى حوزة الروم ، وأن تستولى دولة الروم من ثَمَّ على تجارة المشرق كلها من شواطىء اليمن إلى مشارف الشام ، فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس فى اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانيين ، وكانت تَحْذر دولة الروم لأنها كانت تملك الوصول إلا بلادها من وادى النيل ، وتملك طريق البحر الأحمر فى نهايته القصوى .. فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة «أبرهة» و « أرباط » كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وإنتهت بهزيمة « ذى نواس » ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه ، وتمكن أبرهة من اليمن وشواطئها وبنى « القليس » فى صنعاء ، ويجوز أن تكون مشتقة من كلمة « الكليس » اليونانية بمعنى المعبد والمجمع ، أو من كلمة الكلس بمعنى التكليس أو الطلاء ، فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج إليها ، وكتب إلى النجاشى يقول : « إنه ليس بمنته حتى يصرف إليها العرب أجمعين » .

فقيل فيما قيل أن أناسا من العرب كانوا يذهبون إلى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها ، وأن سيداً من سادات تميم فعل ذلك ، وتحدًى أربابها أن تصيبه بأذاها إن كان لها قدرة الأرباب فكان من جرّاءِ ذلك هجوم أبرهة على مكة فى عام الفيل المشهور وحصل لها ما حصل - وهو العام الذى ولد فيه

سيدنا رسول الله ﷺ - هذه محاولة لاشك فى الغرض منها وهو الإستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام .

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم ، فارتضى قيصر لملك مكة - رجلا من ساداتها هو « عثمان بن الحويرث » بن أسد بن عبد العزى ، وكتب له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم إليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام إذا هم عصوه ، وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها فى وجوههم ، وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام .

قال : « يا قوم إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده ، وما تصيبون من التجارة فى كنفه وقد ملكنى عليكم وأنا إبن عمكم وأحدكم ؛ وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ[1] والعُكَّة[2] من السمن والأوهاب فأجمع ذلك ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ، وينقطع مرفقكم منه » .

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية .. وكلتاهما تثبت شيئا واحداً وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب وأن دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها ، وإنما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلى حوزتها ، فلم تستطع أن تنال منالها

---

(١) قرظ : ورق السلم والسلم شجرة من العضاه يدبغ بها .

(٢) عُكَّة : زقبق للسمن أصغر من القربة .

.. وإستطاعت الكعبة - بفضل الله - أن تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها بل إستطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش ، وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص .. وفوق هذا وذاك فالله خير حافظاً .

﴿ عـام الفيـل ﴾

وبعد ما شرحنا الأسباب التى من أجلها دعت أبرهة إلى الهجوم على مكة ، نذكر أنه حين وصل إلى منطقة تسمى « المغمس » بعث رجلا من الحبشة يقال له : (الأسود بن مقصود) على خيل له حتى إنتهى إلى مكة .. فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فَهَمَّت قريش وكنانة وهزيل ومن كان من أكابر الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة (حناطة الحميرى) إلى مكة وقال له :

سَلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ثم قل له : إن الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم .. فإن هو لم يرد حربى فأتنى به .

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، فجاءه فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال حناطة : فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ، ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن (ذى نفر »[1] – وكان له صديقاً – حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له :

« يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا » ؟

فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ؟

وما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن (أنيسا) سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قَدِرَ على ذلك .

فقال : حسبى . . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فإستأذن له عليه ، وانفعه عنده بما إستطعت .

فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، فأذن له عليك فيكلمك فى حاجته فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم .. فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه

---

(١) لذى نفر قصة نلخصها فى أن العرب حين سمعت بأبرهة يريد هدم الكعبة وأنه خرج ومعه فيل ضخم لذلك أعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم هو (ذو نفر) ومعه قومه ، وعرض له فقاتله وهُزم ذو نفر وأُخذ أسيراً فلما أراد قتله قال له : لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً من قتلى . فتركه وحبسه عنده فى وثاق .

الحبشه يجلس معه على سرير مُلكه .. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جنبه ثم قال لترجمانه :

قل له : حاجتك . . فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتى أن يرد الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك . . قال أبرهة لترجمانه : قل له: قد أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ، ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ !

قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا يحميه وسيمنعه عنه

قال له : ما كان ليمتنع منى قال : أنت وذاك

فلما إنصرفوا عنه .. انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال ، والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبى جيشه وكان إسم الفيل (محموداً) ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن .. فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل « نفيل بن حبيب الخثعمى »[1] حتى قام إلى جنب الفيل ثم

---

(١) تعرض نفيل بن حبيب لأبرهة بأرض خثعم وهو فى طريقه لمكة فى قبيلتى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له (نفيل) أسيراً فأتى به ولما هم بقتله ، فقال له نفيل : لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب وهاتان يداى لك على قبيلى خثعم : شهران وناهس بالسمع والطاعة فخلى سبيله وخرج به معه يدله على الطريق .

أخذ بإذنه فقال :

« أبرك محمود أو إرجع راشداً من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام» ثم أرسل أذنه فبرك الفيل .. وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى . . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . . فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها . . حَجَر فى منقاره وحَجَران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هَلَك . . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا . . وصاروا يسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن وخرجوا يتساقطون بكل طريق .. ويهلكون بكل مهلك . . وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمثق قيحا ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى إنصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

قال ابن إسحق : فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ كان مما يَعُدُّ الله على قريش من نعمته عليهم ، وفضله مَارَدَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال الله تعالى : «ألم[1] تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل[2] ، ترميهم بحجارة من سجيل[3] . فجعلهم كعصف[4] مأكول »

---

(١) سورة الفيل ١ : ٥ (وقال تعالى بعدها : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » لئلا يغير شيئا من حالهم التى كانوا عليها .

(٢) الأبابيل : الجماعات

(٣) سجيل الشديد الصلب وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سنج وجل يعنى بالسنج الحجر وبالجل الطين يعنى الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين .

(٤) عصف : ورق الزرع الذى لم يعصف وواحدته عصفة .

﴿ الكعبة المشرفة ﴾

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن تنزل رسالة الإسلام فى مكة تلك البقعة المباركة التى إختارها الله سبحانه وتعالى بيتا له .

إن مكة التى شهدت مولد الرسول ﷺ ، وأحداث الرسالة لها مكانة خاصة عند الله سبحانه وتعالى . . ذلك أن أول بيت وضع للناس كان فى مكة المكرمة . . بناه الملائكة ، وعرفوه لآدم وحواء ليقوما بعبادة الله فيه ، وهو مكان للعبادة فقط ، وللصلاة التى هى الصلة بين الله وعباده ، ولقد تلقى آدم المنهج من الله مباشرة ، وأؤتمن عليه لكى يبلغه لأولاده . . ولكن مع الزمن غَيَّر أولاد آدم وبدلوا فى منهج الله ، وعبدوا الأصنام والأحجار ، والشمس ، والنجوم ، والحيوانات ، وغير ذلك من ألوان الشرك بالله . . ولأن الغفلة أصابت أولاد آدم فكان لابد من رسول يأتى إليهم يذكرهم بمنهج الله سبحانه وتعالى ويلفتهم إلى عبادته .. وبمضى الزمن وغفلة الناس عن البيت . . ضاعت العلامات التى تدل على مكانه . . فبيت الله هو قطعة الأرض التى يقوم عليها الحرم وما فوقها . . فالجو فوق الكعبة المشرفة وإلى عنان السماء هو إمتداد لبيت الله سبحانه وتعالى . . ولذلك بنى دور ثان ودور ثالث فى الحرم . . وهذا ينطبق على كل بيت من بيوت الله .

بيت الله الحرام هو المسجد الوحيد الموجود فى الأرض بإختيار الله سبحانه وتعالى . . فمساجد الأرض كلها هى أماكن عبادة بإختيار خلق الله . . أما المسجد الحرام فى مكة فهو بإختيار الله وحده . ولذلك كان المسجد الحرام هو قبلة مساجد الأرض كلها . . وكل المصلين فى جميع أنحاء الأرض

قبْلتهم هى ذلك المسجد الذى إختاره الله للعبادة بإختياره هو . . وإذا كانت الأرض مسجداً للمسلمين . . مصداقا لقول رسول الله ﷺ : « وجعلت الأرض لى مسجداً وتربتها طهورا » .

﴿ هداية الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بمكان البيت ﴾

حينما أصابت الغفلة أولاد آدم قيل إن عناصر التعرية والطبيعة طمست العلامات المميزة لمكان بيت الله الحرام . . وقيل إن الطوفان فى عهد نوح ، وهو الطوفان الذى أغرق الأرض كلها قد ضيع العلامات التى تحدد مكان البيت وتبينه للناس .

.. وعندما تريد أن نميز بقعة فى الأرض ونُعرِّفها للناس فهناك عاملان أساسيان : المكان والمكين . . المكان هو البقعة من الأرض التى تريد أن نميزها وأن نعرفها للناس . والمكين هو العلامة التى يهتدى بها الناس إلى المكان ، ولذلك فإن مكان البيت الحرام بقى كما هو لم يؤثر فيه شىء ولكن المكين أو العلامة التى تدل الناس ضاعت أو بمعنى أصح طُمِسَت ، فأصبح المكان غير معروف للبشر أو غير واضح حينئذ فإن الله سبحانه وتعالى هدى إبراهيم عليه السلام ، وبَيَّن له مكان البيت ... لماذا ؟ . . ليرفع القواعد من البيت حتى يستطيع الناس أن يهتدوا إلى مكانه . . إذن فالبيت كان موجوداً مكانه فى الأرض منذ خلق الله الأرض .. ولكن المكين ، أو العلامة المميزة هى التى طمست . . ومصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى : « **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى**

للطائفين والقائمين والركع السجود »[1] .

ومعنى بوأنا يعنى : بينا . . والحق سبحانه وتعالى بيّن مكان البيت لإبراهيم عليه السلام وأقام إبراهيم القواعد . . أو ذلك الجزء المرتفع عن الأرض الذى يدل على مكان البيت وهو الكعبة المشرفة . . المسجد الحرام ليس هو الكعبة المشرفة .. . بل الكعبة هى التى تدلُّ الناس على البيت .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه : « **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »[2]** . ولما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة جاءه جبريل عليه السلام فأراه كيفية الطواف بالبيت ثم دعا كذلك بهذا الدعاء : «**ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** » .

ولما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة جاءه جبريل عليه السلام فأراه كيفية الطواف بالبيت ثم دعا كذلك بهذا الدعاء « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم» .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الحج

(٢) البقرة الآيات : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

﴿تطهير المسجد الحرام﴾

الله سبحانه وتعالى خصص بيته فى هذا المكان فى الأرض للعبادة ، فلذلك لا يجب على أي إنسان أن يدخل المسجد الحرام إلا أن ينشغل بعبادة ربه ويعتزل الدنيا . . ويخلع الدنيا مع نعليه ويلقيها خارج بيت الله الحرام ويتفرغ للركوع والسجود وذكر الله .. ولكن الغفلة التى أصابت الإنسان جعلته يُدخل إلى بيت الله ما يُعبد من دون الله .. أدخلت الأصنام إلى بيت الله يعبدها الإنسان وهى من حجر يصنعه . . ولم يفكر أحد كيف يمكن أن يصنع المخلوق إلهه ؟ . . وكيف يمكن أن يكون الإله حجراً لا حول له ولا قوة ولكنها الغَفْلة والبعد عن منهج الله . . فالناس تريد أن تعيش حياتها حسب هواها تظلم وتسرق وتفعل كل فاحشة ، وتطلق لشهواتها العنان . . وأقصى أمنية الكافر أن يجد إلها بلا منهج . . أى إلها لا يقيده بمنهج حينئذٍ هو يفعل فى الحياة ما يشاء وفى نفس الوقت يُرضى فطرة التدين ، وفطرة الإيمان التى خُلق الناس عليها والتى لا تستقيم حياة الناس بدونها . . وكانت رسالة رسول الله ﷺ لتطهير بيت الله من كل شرك . . ولجعل العبادة فيه خالصة لله سبحانه وتعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿بناء الكعبة﴾

بناء قصى بن كلاب للبيت الحرام :

وقد بناه قصى بعد أن وُلّى مكة ، وهدم ما كان منه آيلا للسقوط . . وقد بنت قريش حول الكعبة بيوتهم من جهاتها الأربع وتركوا أبوابها تنفذ نحو البيت للطواف به . وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوة إبراهيم

عليه السلام التى جهر بها وحكاها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك .. الآية** »[1] .

فبعث الله محمداً ﷺ فكان دعوة إبراهيم التى تشير إليها تلك الآية ، وبشرى عيسى التى يشير إليها قوله تعالى : « **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد** »[2] .

ويقول ﷺ عن ذلك كله : « أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى »

وعلى هذا فقد بُنِيَ البيت ست مرات :

الأولى : الملائكة .

الثانية : بناء آدم عليه السلام .

الثالثة : بناء إبراهيم عليه السلام ، وتجديد قصى بن كلاب للأماكن الآيلة للسقوط .

الرابعة : بنته قريش فى الجاهلية ، وقد حضر هذا البناء رسول الله ﷺ .

الخامسة : بناه عبد الله بن الزبير .

السادسة : بناه الحجاج بن يوسف ، وهذا البناء هو الذى لا يزال قائما للآن .

---

(١) البقرة الآية ١٢٩ .

(٢) الصف الآية ٦ .

ويقال إنه بُنِيَ مرتين بعد سيدنا إبراهيم :

المرة الأولى : بنتــه العمالقــة والمرة الثانية بنتــه جــرهــم بعــد العمالقة .

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال : « المسجد الحرام » فقلت ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما قال : « أربعون عاما . ثم الأرض لك مسجداً فحيثما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه »(١) .

وقد تعرضت الكعبة - بإعتبارها أثراً قديماً - للعوادى التى أوهت بنيانها وصَدَّعت جدرانها . وقبل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم، إنحدر إلى البيت الحرام فأوشكت الكعبة منه على الإنهيار ، فلم تر قريش بُداً من أن تجدد بناء الكعبة حرصا على مكانتها . وقد إشترك سادة قريش ورجالاتها الكبار فى أعمال التجديد ونقل الأحجار بعدما هدموا الأنقاض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت .

وبناء رفع إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النُهى والصدارة ، ومن بينهم رسول الله ﷺ وأعمامه . . وتلك كانت المرة الرابعة وسنذكرها فى حينها إن شاء الله .

----

(١)حديث صحيح أخرجه البخارى (٣١٥/٦-٣١٧ ، ٢٥٩) ومسلم (٦٣/٢) والنسائى وابن ماجه والبيهقى والطيالسى وأحمد من حديث أبى ذر .

﴿ نسب النبى ﷺ إلى آدم عليه السلام ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ... ر لك الأمـــهات والآبـــاء
أبان مولده عن طيب عنـــصره ... يا طيب مبتدأ منه ومختتم

يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام مسلم :

« إن الله إصطفى من ولد إبراهيم : إسـمـاعـيل . . واصطفى مـن ولد إسمـاعيل : بنى كنانة ، وإصطفى من بنى كنانة : قـريشا . . واصطفى من قريش : بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

وإبراهيم هو الجد الرابع والستين لمحـمـد ﷺ . ومـعنى إسـمـه إبراهيم (الأب الرحيم)

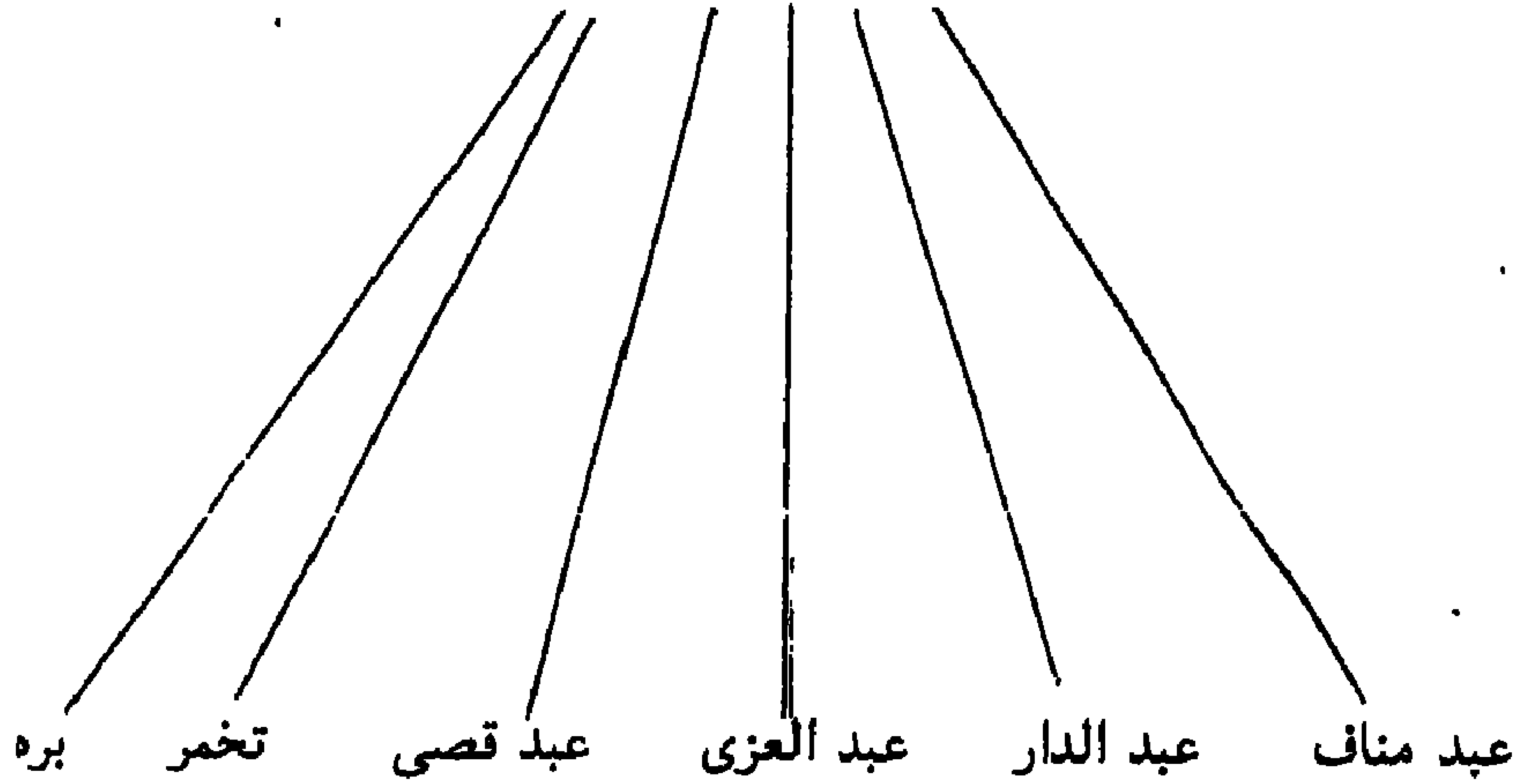
ذكر سرد النسب الذكى :

هو : محـمـد بن عـبد الله بن عبد المطلب (وإسم عبـد المطلب الحقيـقى شيبة وسنذكر سبب تسميته بعبد المطلب فى حينها إن شاء الله) بن هاشم (وإسم هاشم عـمرو وسنذكر سبب تسميته بهاشم فى حينها إن شاء الله) بن عبد مناف (المغيرة) بن قصى (زيد) بـن كلاب - بن مرة - بن كعب بن لؤى بن غـالب بن فـهـر بن مـالك بن النضـر بن كنانة بن خزيمة بن مـدركـه (عـامر) بـن إليـاس بن مضر بن نزار ين معـد بن عدنـان بن أد ويقال : أدد إبن مقوم بن ناحور بن تيرخ بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعـيل بن إبراهيم خليل الرحـمـن صلوات الله تعـالى عليـهم بن تارح (وهو آزر) بن

ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عيبر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ (وهو إدريس النبى ﷺ فيما يزعمون والله أعلم) وكان أول بنى آدم أعطى النبوة وخط بالقلم) بن يرد بن مهليل بن قنن بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام[1].

ولنبتدىء بفضل الله ذكر النسب للحبيب المصطفى من أول جده الرابع وهو قصى بن كلاب .

﴿ شجرة العائلة من أول الجد الرابع للحبيب المصطفى ﴾

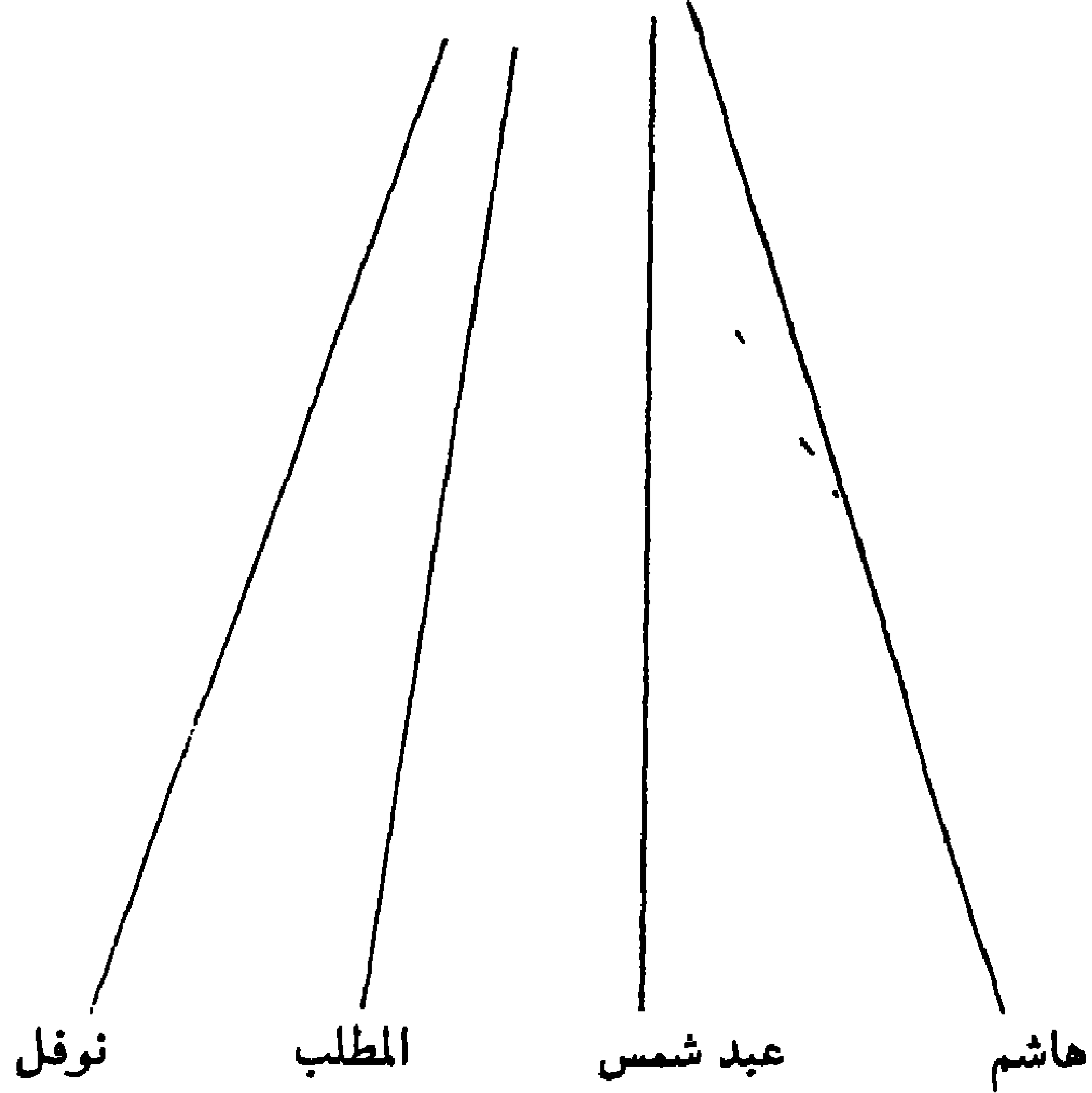


وأمهم : حبى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى

---

(١) قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن اسحق المطلبى بهذا الذى ذكرت من نسب محمد رسول الله ﷺ إلى آدم عليه السلام وما فيه من حديث إدريس وغيره .

﴿عبد مناف بن قصي الجد الثالث لرسول الله ﷺ﴾



وأم هاشم وعبد شمس والمطلب : عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبه بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة . وأمها صفية بنت حوزة بن عمرو بن سلول بن صعصعة بن بكر بن هوازن

وأم صفية : بنت عبد الله بن سعد العشيرة بن مذحج .

أما نوفل فأمه : واقدة بنت عمرو المازنية

مازن : ابن منصور بن عكرمة

هاشـــم

ابن عبد مناف بن قصى

عبد المطلب   رقية   أبا صيفى   حية   أسد   نضلة   شفاء   خالدة   ضعيفة

أم عبد المطلب ورقية : سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار

وإسم النجار : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر .

وأمها : عميرة بنت صخر بن حبيب بن الحرث بن هلبة بن مازن بن النجار .

وأمها : سلمى بنت عبد الأشهل النجارية .

أم أبى صيفى وحية : هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجية

أم أسد : قيلة بنت عامر بن مالك الخزاعى

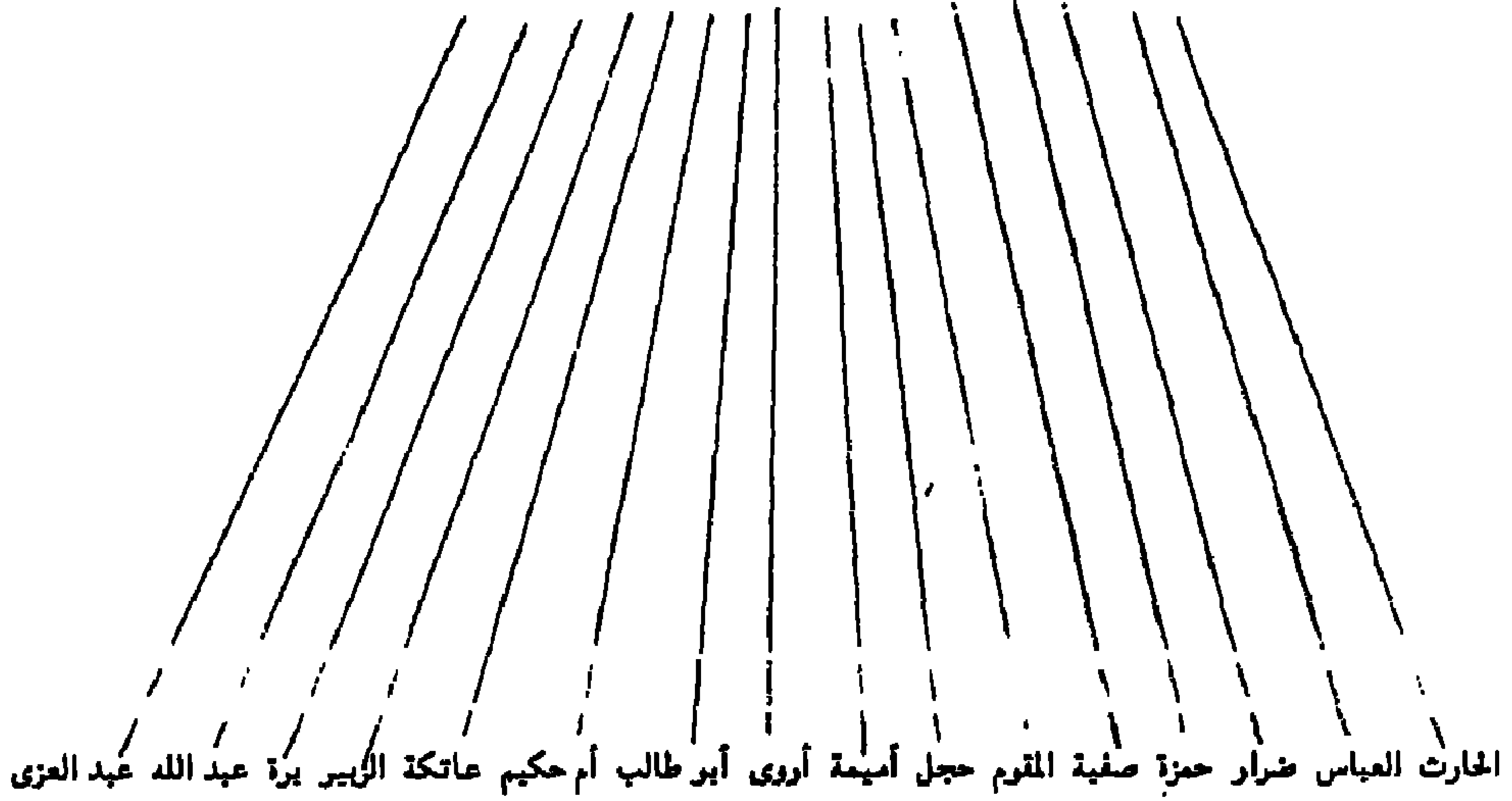
أم نضلة وشفاء : إمرأة من قضاعة .

أم خالدة وضعيفة : واقدة بنت أبى عدى المازنية .

فلقد تزوج هاشم بن عبد مناف خمسة نسوة وأنجب أربعة رجال وخمسة نسوة

﴿عبد المطلب

ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى﴾



وتزوج عبد المطلب : خمسة نسوة :

وأنجب ١٦ : عشرة رجال ، ستة من النسوة

أم الحارث : سمراء بنت جندب بن حجير بن رئاب بن حبيب بن سواءة ابن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة .

أم العباس وضرار : نتيلة بنت جناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر .

ابن زيد مناة بن عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم اللات بن النمر بن قاسط بن هنب بن أفصى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار ويقال : أفصى بن دعمى بن جديلة .

وأم حمزة والمقوم وحجل (وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله) .

وأم صفية : هالة بنت وهيب بن عبد مناة بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وأميمة وأروى وأم حكيم البيضاء وعاتكة وبرة : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأمها صخرة بنت عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب إبن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم صخرة : تخمر بنت عبد بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم أبى لهب : لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى .

★★★

﴿ عبد الله بن عبد المطلب ﴾

وأنجب عبد الله سيد ولد آدم محمداً رسول الله ﷺ .

وأمه : آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وأمها : بَرَّةٌ بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب إبن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم بَرَّة : أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم أم حبيب : برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

قال ابن هشام :

فرسول الله ﷺ وعلى آله وسلم أشرف ولد آدم حسبا وأفضلهم نسبا من قبل أبيه وأمه .

★★★

تكلمنا سابقاً عن الجد الرابع للرسول ﷺ (قصى بن كلاب) وأنه كان يتولى شرف أمر مكة وبيت الله الحرام . . ويتولى الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وأنه قبل موته أعطى مناصب الشرف كلها إلى أكبر أبنائه سنا وهو عبد الدار وكان من أبنائه عبد مناف .

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف أن رسول الله ﷺ إقتصر عليه حين أنزل الله تعالى : « **وأنذر عشيرتك الأقربين** »[1] فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة واجتمع إليه بنو عبد مناف تلبية لندائه قال لهم :

« إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإنى لا أملك لكم من الله حظا ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

ولنعد لعبد الدار الذى ولاه أبوه قُصَى كل أمور مكة والكعبة المشرفة .. ثم انتقلت هذه المناصب من عبد الدار إلى أولاده .

---

(١) الشعراء ٢١٤ .

ولكن أولاد عمهم عبد مناف ، وهو الابن الثانى لقصى ؛ كانوا فى قومهم ذوى شرف وذوى مكانة تفوق شرف أولاد عمهم عبد الدار ومكانتهم، فأجمعوا رأيهم على أن يأخذوا ما بيد أبناء عمومتهم من المناصب .

وبعد خصام شديد ، ومنازعات طويلة - إتفق الطرفان وتحالفا على أن يقتسما مناصب الكعبة فيما بينهما . فكان من نصيب بنى عبد مناف السقاية والرفادة وكان هاشم بن عبد مناف كبير إخوته ، وكبير قومه ، وكان ذا مال ويسار فَوَلِيَ هذين المنصبين .

﴿ هاشم بن عبد مناف ﴾

وهاشم هو صاحب : إيلاف قريش ، وإيلاف قريش هو دأبها وعادتها .. لقد كان أول من سن الرحلتين لقريش ترحل إحداهما فى الشتاء إلى اليمن ، وإلى الحبشة إلى النجاشى فيكرمه ويهديه الهدايا . ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزة ، وربما بلغ أنقرة ، فيدخل على قيصر فيكرمه ويهديه الهدايا[1] .

سبب تسمية هاشم بإسمه :

فى سنة من السنين أصابت قريشا سنوات جدب عجاف .. ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام - وكان يدعى عمرو - فأمر بخبز كثير فخُبِزَ له ، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة . فهشَّم ذلك الخبز يعنى كَسَّره وثرده ونحر الإبل ثم أمر الطهاة فطبخوا وقُدِّم الطعام لأهل مكة فأشبعهم فسمى لذلك هاشماً واسمه الأصلى عمرو .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد .

وكان هاشم رجلاً طيباً كريماً شريفاً طموحاً . . وكان يأمر بحياض من أدم[1] فتجعل فى موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من البئار[2] التى بمكة فيشربه الحجاج وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل يوم التروية بيوم بمكة ومنى وعرفه ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى .

﴿ خروج هاشم فى تجارة إلى الشام ﴾

فى إحدى السنين خرج هاشم فى تجارة له إلى الشام . . فَمَرَّ فى عودته بيشرب مع جماعة من التجار . وكان يصحبهم من أهل يثرب تجار يحملون تجارة لإمرأة من أهلها .

وأشرفت المرأة على تُجَّارها ، تسألهم عن حالة تجارتها ، وتستفهم عَمَّا باعوا ، وعما إشتروا وكانت تناقش الذين يتجرون لها مناقشة عاقلة لبيبة حازمة فَطِنَة ، وكان هذا على مرأى من هاشم فأُعْجِبَ بها ، وسُرَّ من فطنتها وذكائها ، وراقَهُ ما يبدو عليها من الكمال والإتزان فسأل رفقته من قومها : من تكون هذه المرأة ؟! .

قالوا : هى سلمى بنت عمرو من بنى النجار ، وهم من الخزرج .

قال : أهى ذات بعل ؟!

قالوا : لا ؛ وهى ذات شرف فى قومها ، ولا ترضى زوجاً إلا من يترك لها أمرها بيدها .

قال : إسألوها هل ترضانى زوجاً ؟

فلما سألوها قبلت ؛ لأنها تعلم ما لهاشم من المنزلة الرفيعة ، والمكانة العالية فى قومه .

---

(١) هى حياض من جلد (٢) الآبار

﴿ زواج هاشم من سلمى ﴾

تزوج هاشم من سلمى ، وصحبها معه إلى مكة حيث أقامت معه زمناً ، ثم عادت إلى يثرب ، فولدت له بها ولداً سمته « شَيْبَةَ » .

وَمرّت بعد ذلك أعوام . . ثم خرج هاشم للتجارة فى رحلة الصيف فمات بغزة من أرض الشام . فخلفه فى مناصبه أخوه (المطلب) .. ومرت الأيام .

وفى يوم مـا فَكَّر المطلب فى إبن أخيـه « شيبـة » الذى يقـيم مع أمـه ببلدها يثرب .. وعَزَم على أن يحضره إلى مكة ليقيم فى قوم أبيه ، وينشأ بين عشيرتهم وتوجه المطلب إلى يثرب ينشد هذا الغرض . فلما قابل زوجة أخيه سلمى قال لها :

لقـد كبـر ابن أخى ، وبلغ أشـده ، وأود أن أصحبـه معى إلى قـومه .. فإننا كما تعلمين أهل شرف فى قومنا . وهو هنا غريب فى غير قومه .

فـقـالت سلمى : إننى يعـزُّ علىَّ أن أفـارقـه ، ولكننى لا أود أن ينشـأ غريبا فى قومه ؛ فسله فيما يحب .

فلما سأل المطلب ابن أخيه شيبة فيما جاء من أجله ، قال له الفتى :

إننى لا أفارق أمى إلا أن تأذن لى .

عندئذٍ أذنت له سلمى فصحبه معه إلى مكة .

﴿ سبب تسمية شيبة بعبد المطلب ﴾

ودخل المطلب مكة وقـد أردف الفتى مـعـه على بعـيره ، فظنتـه قـريش عبداً لـه جاء به فى رحلتـه فـتـصايح الناس : لقـد جاء المطلب بعـبد له ! هل رأيتم عـبـد المطلب ؟! هذا هو عبد المطلب ! . . وتسامع المطلب بصيـاحـهم

فقال لهم : ويحكم يا أهل قريش !! وإنما هو ابن أخى هاشم قدمت به من يثرب .

على أن هذا اللقب الذى إبتدعه الناس ، كان هو الإسم الذى غلب على إسم الفتى فَدُعِيَ به ، ونسى الناس شيبة الذى دُعِيَ به منذ ولد وسُمِىَ من ذلك الحين بعبد المطلب ! . ،

ومات المطلب ، وكان عبد المطلب قد كبر ، وإشتد ساعده ، فتولى عمل أبيه هاشم وهو السقاية والرفادة . وشَقَّ أمر السقاية على عبد المطلب لما كان فيه من مشقة وتعب حيث كان يُؤْتَى بالماء من آبار مبعثرة كانت قد حفرت بأطراف مكة ويوضع فى أحواض بجوار الكعبة تُلْزِمُهُ الإشراف على مداومة ملئها ، ومباشرة نظافتها فَفَكَّر فيما يقال عن بئر زمزم التى كانت تعطى الحاجَّ حاجته من مائها العذب الزُّلال دون أقل تعب أو أدنى مشقة .

وسأل عن سبب ردمها وعمن ردمها فقيل له :

ردمها (مضاض الجُرْهُمِىُّ) آخر من تولى أمر مكة من قبيلة جرهم حين غلبه على أمره بنو خزاعة حيث حاربوه وقَوْمَه ليخرجوهم من مكة بعد أن أفسد فيها قومه ؛ فعمد إلى هدايا الكعبة ، فوضعها فى جوف زمزم ، ثم أهال عليها الرمال .

﴿ الأمر بحفر زمزم ﴾

فقال عبد المطلب :

إننى لن يهدأ لى بال ، ولن يستقر لى قرار حتى أعيد لزمزم حالتها

الأولى . وفى إحدى الليالى .. هتف به هاتف وهو نائم فى الحجر فقال له :

أحفر طيبة . فقال مستفهما الهاتف : وما طيبة ؟ ! فانصرف الهاتف وفى الليلة التالية نام عبد المطلب فى موضعه السابق فهتف به الهاتف :

أحفر برّة فقال : وما برّة ؟ ! وانصرف الهاتف

وفى الليلة الثالثة هتف به الهاتف :

أحفر المضنونة فلما استفهم عما هى المضنونة ، إنصرف الهاتف عنه فلما كانت الليلة الرابعة جاءه الهاتف يهتف :

أن أحفر زمزم . فلما إستفهم عبد المطلب : وما زمزم ؟ ! !

قال الهاتف : « لا تنزف أبداً ولا تذم . . تسقى الحجيج الأعظم . . وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل » .

وعند ذلك إستيقظ عبد المطلب وهو لا يدرى أتكون هذه كأحلامه السابقة ، ولكن ما بال هذا الهاتف وقد جاءه بالبشرى وتكررت زيارته ؟ .. أيكون ذلك أمراً من الله وبشرى منه سبحانه ؟ ! وهل طيبة هذه التى قالها الهاتف للطيبين والطيبات من أحفاد إبراهيم ؟ ! . . وبَرَّةٌ ألأنها فاضت للأبرار ؟ ! . . ومضنونة أليست هى وقفا للحجيج ولا يقرُّبها غيرهم ؟ فهى تضن على غير الحجاج وسكان بيت الله بالماء فهل يجد بئراً لا تنزف ، أى لا يفرغ ماؤها أبداً ، ولا تذم أى لا يصبح ماؤها غوراً أبداً ؟ . . وهذه البشرى بزمزم التى شغلتنى أياما أثر مشقة جلب المياه من آبار فى أطراف مكة ، ونيتى فى أن أعيدها لحالتها الأولى . . بيد أنى لا أعرف أين كانت ؟ ! . . إذن هى بشارة من الله تعالى وأمر منه .

﴿ حفر بئر زمزم ﴾

وما لبث عبد المطلب أن خرج وقد شغله هذا الهاتف ، وقد أشفق على نفسه من أن يَقُصُّه على غيره ، فيكون موضع الحديث الذى قد لا يتحقق .. وذهب كعادته إلى بيت الله فوجد فى المكان المخصص لذبح الأنعام التى تهدى إلى الكعبة وتوزع على الفقراء وبين بقايا الفرث فى بقعة ، والدم فى بقعة أخرى غراباً يمتاز على غيره ببياض فى إحدى رجليه ، ينقر الأرض فى هذا المكان الذى يسمى قرية النمل ...

ما كان أسعد نفس عبد المطلب عندما رأى باليقين ما سمعه من الهاتف ... إذا لقد إستجاب الله الدعاء ... وسيتحقق الرجاء . . فليلب النداء . . ويحفر فيما حدده الهاتف من المكان . وشاءت إرادة الله ألا يكون لأهل قريش مشاركة له فى الأجر والثواب فلم يستجب لنداء عبد المطلب منهم أحد . فكيف يحفرون فى أرض يذبحون عليها القرابين وعليها أصنامهم ؟ ! .. ولولا مكانة عبد المطلب فيهم وسيادته عليهم ، لمنعوه ، ولكنهم وقفوا يرقبونه وهو يضرب الأرض بمعوله ، ولا يعاونه إلا وحيده الحارث . ومضت ثلاثة أيام إمتزجت الأرض فيها بعرق الحارث ودموع عبد المطلب وهو يضرب الأرض لعلها تستجيب ، وما كان ليحزنه إلا إنصراف القوم عن مساعدته ، وقد وقف كل رجل منهم وحوله أولاده !! فهذا لديه ثلاثة أولاد .. وذلك خمسة . . وغيره سبعة . . ومنهم من عنده ثمانية رجال أو تسعة . . أما هو . . فولد واحد . . فكان إذا أخذه الجهد من العمل ووقف يلتقط أنفاسه يدعو الله : ألا تهبنى يارب عشرة من الولد وأذبح لك واحداً منهم قربى وقربانا ؟ ؟!!

﴿ منازعة قريش عبد المطلب على زمزم ﴾

وفى نهـاية اليوم الثـالث ضـرب عبـد المطلب بمعـوله فى صخـرة ضـربة طويت معها الأجيال العديدة لتظهر صورة جده إسماعيل وقد نبع بئر زمزم تحت قـدميـه .. فقد نبع الماء تحت ضربة عبـد المطلب .. إنها زمزم نفسها التى أغارت إحدى القبائل من سالف الزمان علي البلاد فردمتها .. وأخرج عبد المطلب من الحفرة غزالتين من الذهب وأسيافاً ودروعاً كثيرة .. وظل يكبر . . ويكبر . . فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فهرولوا إليه وقالوا : يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقاً . . فأشركنا معك فيها .

وَرَدَّ عليهم عبد المطلب : ما أنا بفاعل . . إن هذا الأمر قد خُصِّصْتُ به دونكم ، وأُعطيته من بينكم ..

.. فقالوا : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها

قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه .

قالوا :كاهنة بنى سعد هذيم .

قال نعم .

وكانت هذه الكاهنة تقيم بأشراف الشام .

﴿ ذهاب عبد المطلب وقبائل قريش إلى كاهنة بني سعد ﴾

ركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف .. وركب من كل قبيلة من قريش نفر . . وكانت الأرض إذ ذاك مفاوز .. فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فنى (إنتهى) ماء عبد المطلب فظمئوا .. حتى أيقنوا بالهلكة .. !! فاستقسموا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم فقالوا : إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .. فلم يلبثوا أن نفد ماؤهم هم الآخرين . فلما رأى عبد المطلب ما حدث له وللقوم ، وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟

قالوا : ما رأينا إلا تبع رأيك ، فمرنا بما شئت .

قال : فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفنه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا ..

قالوا : نِعْمَ ما أمرت به ، فقام كل واحد منهم فحفر حفرته .. ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد إرتحلوا .. فارتحلوا حتى إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها .

﴿ إنفجار الماء تحت خف راحلة عبد المطلب ﴾

لما انبعثت راحلة عبد المطلب به فوجيء بإنفجار عين ماء تحت خفها .. يا ألله ماء عذب فكبَّر عبد المطلب .. وكبَّر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه .. واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم .. ثم دعا القبائل من قريش ، فقال لهم : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فشربوا واستقوا ثم قالوا : قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب والله لا نخاصمك فى زمزم أبداً . إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم ودلَّك عليها ، فارجع إلى سقايتك راشداً . فرجع ورجعوا معه ولم يذهبوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها[1] .

وعفت زمزم على البئار التى كانت قبلها ، يسقى عليها الحاج .. وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها ، وعلى سائر العرب فقال مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو يفخر على قريش بما ولوا عليهم من السقاية والرفادة ، وما أقاموا للناس من ذلك ، وبزمزم حين ظهرت لهم وإنما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد .. شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل .

ورثنا المجــد من آبـــا ... ثنا فــنما بنا صــعدا
ألم نسق الحجــيج ونــنـ ... حــر الدُّلافة الرُّفْــدا

---

(١) إسناده جيد والخبر صحيح عن ابن اسحق عن يزيد بن أبى حبيب المصرى ، عن مرثد بن عبد الله اليزنى عن عبد الله بن زير الغافقى أنه سمع على بن أبى طالب يحدث حديث حفر زمزم .

وقال ابن إسحق :

وقال حذيفة بن غانم أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى :

وساقى الحجيج ثم للخبز هـاشم وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت سقايته فخراً على كل ذى فـخر

أما السـيوف والدروع التى عثر عليـها عبـد المطلب بجوف البئر فـقد ضربهما عبد المطلب بابا للكعبة وزينه بغزالتى الذهب . وتوفر الماء للحجاج من زمـزم .. وانتـهت مـشكلة عـبـد المطلب فى مـعـاناته فى جلب الماء من أطراف مكة .. وشـملت السعـادة نفـسه .. ومرت الأيام سراعـاً وإذا به يجد أن الدعاء قد سمعه الله فها هو ذا ينجب من الأولاد إلى أن أتم العشرة من الولد فكان لابد له من الوفاء بالنذر .

﴿ الوفـاء بالنـذر ﴾

جمع عبد المطلب أولاده العشرة وأعلمهم بنذره ، فتقدم العشرة كل يريد أن يسـتجـيب لأبيـه ويكون هو القربان لله !! .. فـاحتـار قلب الأب بينهم .. فكلهم ولده .. وكعادة العرب يذهب بهم إلى ضارب القداح بالكعبة ليقتـرع على من يحق عليه الوفاء .

وذهب مع عبد المطلب جمع غفير من الأهالى ، لايدفعهم الفضول ولا الحرص على المجاملة ولكن خوفا مما كانوا يتوقعون أن تصيبه القداح .. وتمر اللحظات ثقال على الأب عبد المطلب !! .. ويضرب العراف ليتحقق خوفهم .. فـقد خرجت القداح على (عـبـد الله أصـغـر إخـواته) وهـو من كـان أهل قريش يخشون أن تصـيبـه القـرعـة .. وخرجت النسـاء والرجـال شبـانا وكـبـاراً

يقدمون أنفسهم فداء عبد الله ، فهو خير شباب قريش الذى جمع - كما قالوا - الطيبيْن : الخلق ، والخلقة .. عقل رزين وقلب رحيم ونفس مطمئنة على وجه جميل .

وعند بئر زمزم تتشابه الصورة مرة أخرى بصورة إبراهيم وولده .. وكأنى بالتاريخ يعيد نفسه .. فقد خرج عبد المطلب ومعه ولده الحبيب عبد الله واستعد لنحره تماما كما حدث مع سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل .. فتجمع الأهالى ومنعوه بالقوة خوفا من أن يصبح ذلك من الأمور التى يعتادها العرب .. واستمهلوه حتى يحتكموا إلى عرافة يثرب التى ذاع أمرها ، واشتهر رأيها ، وسافرت الوفود إلي يثرب فسألتهم العرافة عن الدِّيَة فيهم فقالوا : عشر من الإبل ، فطلبت منهم أن يضربوا القداح بين عبد الله والإبل العشر ، فإن خرجت على صاحبهم فعليهم أن يزيدوا من الإبل بمقدار الدِّيَة حتى تخرج القداح على الدِّية . وفرح القوم واطمأنت نفوسهم بفداء عبد الله ، وضربت القداح فخرجت على عبد الله ، فزيدت الإبل عشراً فعشراً حتى بلغت المائة خرجت القداح فيها على الإبل .. فسارع القوم إلى عبد المطلب وهو أمام الكعبة يدعو ربه .. يبشرونه برضاء ربه عليه ، ولكنه لم يطمئن حتى تضرب القداح وتخرج على الإبل ثلاث مرات - وانظر مدى إلتزام واحترام العربى للنذر والوفاء به حتى على ذبح ابن من أبنائه ؟ ؟ !! - وقد كان .. ونُحرت الإبل المائة ليأكلها الفقراء والمحتاجون .. وتطرح كميات منها للطير والحيوان ..

واحتفلت مكة بعيد الفداء كما لم تحتفل بعيد من قبل .. كيف لا وقد نجا بالفداء عبد الله الذى أحبه كل من رآه وسعى لرؤيته كل من سمع عنه .

كان عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب ، وله فى قلبه منزلة جليلة .. وقد كان صورة طبق الأصل من أبيه عبد المطلب .. ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد أبيه .

﴿ عبد الله ومحبة الناس له ﴾

كان عبد الله فتى جميلاً وسيما .. يشرق النور من وجهه ، ويَشعُّ البهاء من طلعته .. كان جميلا خلقاً وخلقه .. وزاد النساء إعجابا به والفتيات رغبة فيه ما كان من حديث الفداء وما حدث فيه وكان من هذا أن تعرضت النساء لعبد الله يخطبن وُده ويطلبن الزواج منه .

وبينما مكة وأهلها فى فرح وبهجة يوم فداء عبد الله .. وكأن عبد المطلب أراد أن يتم أفراح مكة ويستكمل بهجة العيد .. فكما وجد أن كل ما تمناه تحقق .. إتجه إلى أمنية كثيرا ما طلب من الله تحقيقها ألا وهى أن يتزوج إبنه الحبيب . وقيل فى بعض ما قيل من هذه الخواطر والأمانى أنه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الإبل ، مَرَّ على إمرأة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهى عند الكعبة فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟

قال : مع أبى

قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وتتزوجنى

قال : أنا مع أبى ولا أستطيع فراقه ولا خلافه .

﴿ زواج عبد الله ﴾

توجه عبد المطلب بإبنه عبد الله إلى بيت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وهو يومئذ سيد زهرة نسبا وشرفاً ، وطلب منه إبنته آمنة لعبد الله ..

وإختار الأب زوجة عبد الله من بنى زهرة أحلاف بنى هاشم والمطلب في كل خلاف ... زوجه آمنة بنت وهب ، وهى أعرق بنى زهره نسبا وأكرمها مَحْتَداً ، وينتهى نسبه ﷺ لأبيه وأمه إلى عبد مناف وقد فخر رسول الله ﷺ بإنتسابه إلى هذه الأمومة فقال : « أنا إبن العواتك من سليم » .

﴿ نبذة عن آمنة بنت وهب ﴾

كانت آمنة بنت وهب موضع إعجاب القوم جميعاً بلا إستثناء .. الأطفال يحبونها ولا يطيقون فراقها . والشبان يعجبون بها ويخدمونها . والشابات لا يغادرن بيتها إلا لماما والرجال والنساء يتنافسون في التقرب إليها ، والتودد لها .. ذلك لخفة روحها وحديثها الجذاب . وقلبها الرحيم .. فقد كانت تساعد الشيوخ والعجزة وتأتى لهم بالماء من زمزم وكانت خَيِّرةٌ عطوفة .. تعطف على الصغار وتحنو عليهم .. وكانت تمتاز بجمال الخلقة والخلق كما إمتاز بهما عبد الله ، وتتمتع بالشرف والعزة والكرامة والعفة والطهر والفضيلة . فهل يا ترى لأى صفة من هذه الصفات كانت آمنة سيدة أهل مكة ؟ مما جعل عبد المطلب يتمسك بخطبتها لإبنه دون نساء مكة كلهن .

ولا شيء أشبه بالواقع المنظور فى قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته فإن أباه - لا جرم - قد إمتلأت نفسه زمنا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب إليه .. فليس أقرب إلى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالإطمئنان على بقاء فتاه ، والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده .. ولاسيما الدوام بعد النذر الذى كان يبعثه تَعْيير الشانئين بقِلّة الذرية .. وإبتئاس الأب خوفا من إنقطاع العقب مع ولد وحيد .

وتم الزواج والحمد لله .. تزوج عبد الله بآمنة لتكون أفضل أم وخير من ولدت من النساء فقد أصبحت أم نبى الله ورسوله محمد ﷺ .

وبعد أن تم الزواج . خرج عبد الله ثانى يوم الزفاف فَمَرَّ بالمرأة التى عرضت عليه ما عرضت بالأمس فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ؟

فقالت : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه سيكون فى هذه الأمة نبى ، وكانت قد رأت بالأمس نوراً يشع من جبهته فأيقنت في نفسها أنه نور النبوة ورجت أن تكون أما لهذا النبى المرتقب .

ولما إنتهت أيام العرس .. إنتقل عبد الله بعروسه من حى وهب إلى حى عبد المطلب ولم يطل فيه البقاء إلا ريثما أذن مؤذن برحيل قافلة إلى الشام فى رحلة الصيف ، وكان لم يمض على بنائه بآمنه أسبوعان على أرجح الأقوال . وخرج عبد الله وهو عروس . . . خرج فى مناكب الأرض يبتغى الرزق ، وبقيت آمنه وحيدة .. وقد بدأت علامات تنبئ بحملها .

﴿ حمل آمنة بالحبيب المصطفى ﴾

لما حملت آمنة بنت وهب كانت تقول : « ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء ، إلا أنى أنكرت رفع حيضتى . وربما كانت ترفعنى وتعود .. إلى أن أتانى آت ، وأنا بين النوم واليقظة فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : لا أدرى . . فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها .. وذلك يوم الإثنين . قالت : فكان ذلك مما أيقن عندى

الحمل ، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى فقال : قولى «أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد » قالت : فكنت أقول ذلك ، وذكرت ذلك لنسائى فقلن لى : تعلقين حديدا فى عضديك وفى عنقك .. قالت : ففعلت ، فلم يكن ترك على إلا أياما فأجده قد قطع ، فكنت لا أتعلقه » .

ويقول أبو جعفر محمد بن على : « أمرت آمنة وهى حامل برسول الله ﷺ أن تسميه أحمد » ورأت آمنة حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

﴿ رحلة اللاعودة ﴾

.. حين عودة عبد الله من رحلته ، رأى أن يمر على أخوال أبيه بالمدينة ليستريح عندهم من عناء السفر ، وليتمتع بقربهم .. ولكنه ما لبث أن مرض واشتد عليه المرض ! فتركه مرافقوه عند أخوال أبيه وعادوا إلى مكة فأنبأوا أباه نبأ مرضه .. فأوفد أكبر أبنائه الحارث إلي المدينة ليعود أخاه ويصحبه إلى مكة بعد شفائه .. لكن وا أسفاه !! . لم ير الحارث أخاه عبد الله ، ولم يُقَدَّر له أن يصحبه إلى مكة ليراه أبوه وعروسه وقومه !!! كان عبد الله قد مات ودفن منذ أيام !! بعيدا عن أبيه .. بعيدا عن عروسه .. بعيداً عن قومه !! ..

وعاد الحارث ينعى أخاه .. عاد ينعى الشاب الذى فُدِىَ من الموت فاختطفه الموت !! فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحاً حتى مات بعيداً عن زوجه التى فارقها عروساً وعن ولده الذى لم تره عيناه !! .. وتلقى الأب

نعى الإبن الذى ما كاد قلبه يطمئن عليه حتى انفطر هما وحزناً !! وتلقت آمنة نعى زوجها .. رجلها الذى كانت ترجو فى حياته هناءة وسعادة .. ولتشعره بأن فى أحشائها جنينا يوشك أن تَقَرَّ به عينهما غير أن القدر – لحكمة عليا – حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوجة المحسودة أيِّماً تَعَدُّ الليالى لتودع الحياة الموحشة « يتيمها » الفريد . لك الله يا آمنة ! ..

مات عبد الله وعمره خمسة وعشرون سنة ، ودفن فى دار (النابغة الجعدى) فى المدينة .

سبحانك ربى ... فعين القدر التى رعت عبد الله فأنجته من الذبح وأنقذته من الموت لم تمهله طويلاً .. لكأنما وُجِدَ هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الإلهية ، ثم يتركها فى كلاءة تلك العناية لقدر لا تغنى فيه عناية الآباء .

أنقذته العناية الإلهية بفدائه بالإبل المائة .. ليعيش أياماً .. ليتزوج من آمنة ولتحمل منه فى سيد الخلق ويرحل !!! هى كانت رسالته قضاها وانتهى !!! .

★★★

﴿ ميلاد الحبيب المصطفى ﴾

ومرت الأيام بحالها .. رضى بأمر الله وصبر على قضائه ، إلى أن أتمت آمنة شهور حملها وفى يوم الإثنين بعد إثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة ، عشرون من أغسطس عام ٥٧٠م وكان عام الفيل .. وضعت آمنة وليدها غلاما وضيئا مشرقا . . ويوم مولده تقول زوجة أبى العاص وهى ممن حضرن الميلاد :

« لقد شهدت ولادة آمنة بنت وهب ليلة ولدت رسول الله ﷺ فما شىء أنظره فى البيت إلا نور . . ولقد رأيت كأن النجوم تدنو ثم تدنو حتى لقد خشيت أن يقعن على » ، ولد سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ولكن ليس كما تولد الأطفال .. إذ لم تشعر أمه بما يصيب الأمهات أثناء الحمل من ألم أو تعب .. وفى ذلك تقول آمنة عن نفسها : « ما وجدت له مشقة حتى وضعته .. فلما فُصِلَ منى خرج معه نور أضاء بين المشرق والمغرب » . كما أنه نزل كما تقول أمه : « معتمداً على يديه رافعا رأسه إلى السماء ». فهل كانت أول لحظاته فى الدنيا ضراعة ودعاء ؟ .. أم كان يشكر رب السماء ؟ أم هى محبته لله جعلته يتعلق بالسماء إلى آخر لحظة هبط فيها إلى عالم المادة ؟ .. أم كان فى توديع الملائكة التى أحاطت به تيسر له السبيل إلى البشرية ليدعوها إلى خير دعوة ؟ .. كما أنه ولد مختونا ، وهذه كرامة له كما يقول هو عن نفسه : « من كرامتى على الله أنى ولدت مختونا ولم ير سوأتى أحد » .

﴿ ما حدث ليلة الميلاد ﴾

وجدير بالذكر أن نذكر ما حدث ليلة ميلاده ﷺ ، ففى هذه الليلة إهتزت حصون الظلم فى الدنيا .. إنطفأت النار المقدسة التى يعبدها المجوس، وغاضت بحيرة ساوة التى يقدسها الفرس ، وتصدع إيوان كسرى معقل الظلم والكفر فى الدنيا وتساقطت شرفاته . هل حدث هذا بفعل فاعل ، أم بقدرة الله ؟؟ حدث بقدرة الله لنعرف أن الحق الذى أوجد نبيه فى هذا اليوم سَيَدُكُّ حصون الظلم فى الدنيا ، وأن المنهج الذى سيأتى به هذا الرسول الكريم إذا أُتبِّع بحق وإيمان صادق ، وطُبِّق كما جاء فلن يبقى ظلم على الأرض .. وكان هذا إشارة إلى الدين الجديد وما يحمله إلى هذا العالم وقد حدث . وحدث بيثرب أنه شُوهدَ يهودى يقف على علِّيَّة وهو يصيح بأعلى صوته : « يا معشر يهود . . يا معشر يهود لقد طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به » .

ولنعد إلى النور الذى ولد فى هذه الليلة .. فالفرحة عمت جميع العرب على إختلاف ألوانهم ومعتقداتهم واختلطت أغانى النصر[1] عندهم بفرحة قريش بمولد اليتيم ابن عبد الله وقد عد جميع الأهالى مولد محمد طالع سعد وفألا حسناً فقد نصرهم الله نصراً عزيزاً ، وحفظ لهم البيت العتيق مثابةً وأمنا وَردَّ الغاصب أبرهة عنه وهزمه شر هزيمة .

وأرسلت آمنة إلى جده عبد المطلب تبشره بميلاد حفيده .. واستقبل عبد المطلب ميلاد محمد صلوات الله عليه باستبشار وجذل ، ولعله رأى فى مقدمه عوضا عن إبنه الذى حصرت المنون شبابه.. فَحَوَّل مشاعره عن الراحل الذاهب إلى الوافد الجديد يكلؤه ويغالى به .

---

(١) وكان يوم ولادته ﷺ فى عام الفيل وكانت قريش تحتفل أيامها بنصر الله لها على أبرهة .

ولكن الحقيقة القاسية - برغم حفاوة الجد الحنون - باقية ، فإن محمداً يتيم برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا .. ليكن .. ولنفترض أن عبد الله بقى حياً فماذا عسى كان يفعل لإبنه ؟ أكان يربيه ليهب له النبوة ؟ ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم فى مستقبل الطفل ، وتحفر له فى الحياة مجراه ، ولو كانت النبوة بالإكتساب لما قربتها حياة الوالد شبرا .. فكيف وهى إصطفاء ؟

كان يعقوب حياً يرزق له شيخوخته وتجربته وحكمته .. بل له نبوته .. وقد نظر يوما ما فلم يجد يوسف قريباً منه .. إنه فقده فى أخطر فترات العمر .. فترة الصبا اللدن واليفاعة الغضة ، ومع فساد البيئات التى إحتوت يوسف فقد كان باطنه ينضح بالتقى والعفاف كما يتقد المصباح فى أعماء الليل المدلهم ، فلما إلتقى الابن بوالده بعد لأى ، رأى يعقوب إبنه نبياً صدِّيقاً . لقد ولىٌ عبد الله وترك إبنه يتيما ، بَيْد أن هذا اليتم كان يعد من اللحظة الأولى لأمر جلل ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار . وما الأب والجد ، ما الأقربون والأبعدون ؟ ! ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من إصطنعه الله .

★★★

أقبلت آمنة على وليدها تحنو عليه وترضعه ، وأرضعته معها ثويبة جارية عمه أبى لهب .. وحدثت آمنة جده عبد المطلب بالرؤيا التى رأتها ، وما قيل لها فيها وما أمرت به أن تسميه وحمل عبد المطلب المولود فرحاً وقبله بين عينيه ثم خرج به إلى الكعبة فطاف به حولها ثم سماه « محمداً ». وفى الليلة السابعة لمولده ﷺ ، أمر عبد المطلب بالجذور فنحرت ، ودعا إليها رجال قريش فطعموا ، وسأل بعضهم عبد المطلب : لم رغبت يا عبد المطلب عن أسماء آبائك وسميت حفيدك محمداً ؟

قال : « أردت أن يكون محموداً فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه »
وذلك حسبما يروى السهيلى لرؤيا كان عبد المطلب قد رآها وقد ذكر حديثها على القيروانى فى كتاب البستان قال : كان عبد المطلب قد رأى فى نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره إلى طرف السماء وطرف فى الأرض وطرف فى الشرق وطرف فى الغرب ثم عادت كأنها شجرة على ورقة منها نور .. وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها . فَقَصَّها (حكاها) فعبِّرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه محمداً ، وأمه سمَّته من قبل أحمداً فهو محمود وأحمد ومحمد ﷺ .

﴿ رضاعته ﷺ ﴾

ولقد كان من عادات أشراف العرب أن يرسلوا أطفالهم منذ ولادتهم إلى المراضع للرضاعة وكان عليه الصلاة والسلام من نصيب حليمة بنت ذؤيب زوجة الحارث بن عبد العزى التى أخذته بعد أن فشلت فى أن تجد غيره . فهو يتيم الأب ! فمن يسخو عليها فى العطاء ؟ وكانت حليمة فى شدة وعسر ، فقد قدمت على مطية هزيلة ، وتسوق ناقة لا تكاد تحلب ومعها رضيع ظهر عليه آثار فقر مرضعته وجوعها ، ثم هاهى ذى حليمة تأخذ اليتيم محمداً فيقع حبه فى قلبها ، وتتعلق به أكثر من وليدها .. وما إن ضمته إلى صدرها حتى شعرت كأن اللبن قد ملأ جسمها .. فترضع طفلها ثم النبى ، وبينما هى فى دهشة من أمرها ترى زوجها وقد أقبل عليها هاشاً مبشراً أن الناقة تدلى ضرعها من كثرة اللبن ، وحلبت كما لم تحلب من قبل .. ويسير الركب عائداً إلى البادية فيلحق بباقى المرضعات بعد أن كان دائماً متخلفا عنهن .. بل وتسبقهن حليمة .. وهنا تتعجب الجموع .. كيف

أن مطية حليمة الهزيلة الضعيفة التى كانت تسير وكأنها تقتلع أرجلها .. تسرع السير الآن وتضرب فى الأرض بقوة ؟ .. وفى البادية كانت غنم حليمة تخرج لترعى فتعود مكتنزة سمينة لا كغيرها .. وقد غير القوم رعاتهم لعلهم يجدوا أغنامهم كغنم حليمة .. ولكن بدون جدوى .. إنها النسمة المباركة كما قال الحارث زوج حليمة : إن هذا اليتيم نسمة مباركة ، لقد وجدنا فيه بركة وأى بركة ؟ .. سمنت غنمنا وزاد لبنها وبارك الله لنا فى كل ما عندنا » .

أجل كانت البركة فى مقدمه معهم .. كانت سنواتهم عجافا من قبل ، فامتن الله عليهم بالخير دَرَّت الضروع بعد جفاف ، ولان العيش وأخصب وشعرت حليمة وزوجها وولدها بأن أويتهم من مكة كانت باليُمن والغنم ، لا بالفقر واليتم مما زاد تعلقهم بالطفل وإعزازهم له .

وتنشئة الأولاد فى البادية ليمرحوا فى كنف الطبيعة ، ويستمتعوا بجوها الطلق ، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء الأعضاء والمشاعر ، وإطلاق الأفكار والعواطف . إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا فى شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش .

ولا شك أن إضطراب الأعصاب الذى قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود إليه - إلى البعد عن الطبيعة ، والاغراق فى التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة إتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هى المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذى وجد فيه ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق !! .

﴿ عودة حليمة بمحمد ﷺ
إلى أمه بعد إنتهاء مدة رضاعته ﴾

وبعد عامين إنتهى الرضاع وعادت حليمة باليتيم إلى أمه .. وكلما إقتربت من داره شعرت كأن قلبها سيفارقها مع محمد !! فكيف السبيل إلى بقائه معها ؟ ولما وصل إلى أمه لم تسعها الدنيا من الفرحة إذ وجدته جميلا تلوح عليه علامات الصحة والنشاط ويبدو كأنه إبن أربع سنين لا إبن عامين. وظلت حليمة تحدث أمه آمنة حديثا طويلاً .. لم تحدثها عن تعبها في رضاعته ولا تربيته ولا رعايته ولا عن مجهودها في خدمته ، وكانت كل مرضعة لا تتحدث إلى أم رضيعها إلا في ذلك لتسخو في العطاء .. فقد كان يوم تسليم الرضيع إلى أمه هو ما تنتظره المرضعة لتنال أجرها ، ولكن حليمة تحدثها عن يمنه وبركته ويُسر حالها بوجوده معها .. وتطلب بدلاً من أجرها أن تأخذه فترة أخرى إلى البادية تشرف على خدمته وتطمئن على صحته فجو البادية أفضل ، وخاصة أنها تخشى عليه من وباء كان قد إنتشر في مكة .. ولم تجد آمنة بعد أن سمعت ذلك أي مجال للمفاضلة بالرغم من شدة شوقها إليه وتمنيها أن يظل في حضنها لا يفارقها مدى الحياة بيد أنها خافت عليه وباء كان بمكة حينئذٍ ... فأخذته حليمة وما أسعدها به وهي تضمه إلى صدرها وقد عادت به إلى البادية مرة أخري .

﴿ عودة محمد ﷺ إلى البادية ﴾

وعادت حليمة بمحمد في خفة من الفرح ، ونشوة من السرور ! وعاد محمد بين أحضان الصحراء إلى سيرته الأولى .. يلعب فوق رمالها ويرتع على حصبائها ، ويلهو مع أترابه في جو نقي خالص . وكانت حليمة دائما

تخاف عليه فكانت ترسل أخته فى الرضاعة (الشيماء) لترعاه وتحافظ عليه . وفى يوم إشتد حره ولفح جوه وقست شمسه خرجت حليمة فزعة تطلب محمداً وقد خافت عليه من الشمس لاسيما وقد إنتصف النهار فإذا بالشيماء تصحب محمداً فى طريقها إلى البيت .. وتتحسس حليمة محمداً بلهفة فلا تجد للشمس ولا للقيظ من أثر عليه .. وتعرف الشيماء قلق أمها عليه ، وأنها خشيت عليه من الحر فقالت لها : لا تجزعى يا أمى ، فوالله ما وجد أخى حراً .. لقد وجدت غمامة تظله حيثما ذهب إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت حتى أتينا .

﴿ أخوته فى الرضاعة ﴾

عبد الله بن الحارث - أنيسه بنت الحارث - خذامة بنت الحارث (وهى الشيماء) وغلب ذلك على إسمها فلا تعرف فى قومها إلا به .

﴿ شق الصدر ﴾

مكث محمد ﷺ فى مضارب بنى سعد حوالى خمس سنوات ، صح فيها بدنه وإطرد نماؤه .. وهذه السنوات الخمس هى عمر الطفل فلا ينتظر أن يقع فيها شىء يذكر .. غير أن السُنن الصِحاح سَجَّلت فى هذه الفترة ما عُرف بحادث (شق الصدر) .

عن أنس : « أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشق عن قلبه فاستخرجه واستخرج منه علقة فقال : هذ حظ الشيطان منك ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه . ثم جاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - أن محمداً قد قُتل ..

ففزعت حليمة وزوجها وخرجا مسرعين نحوه فإذا به مُنْتَقِعُ اللون »[1] .

وهذه القصة التى روعت حليمة وزوجها ومحمد فيهم تجدها تكررت مرة أخرى .. وأخرى .

قال ابن إسحق : حدثنى ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعى ، أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك

قال : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واستُرضعت فى بنى سعد بن بكر . فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا .. إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا فأخذانى فشقا بطنى واستخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم فقال : فدعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشيـــاء لا يسأل عنها غيره فقال يوما : يا رسول الله ما رأيت فى أمر النبوة ؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (١/١٠١ - ١٠٢) وأحمد (٣/١٢١-١٤٩-٨٢٨) وزاد فى آخره : (قال أنس : « وكنت أرى المخيط فى صدره » وللحديث شواهد كثيرة منها عن عتبة بن السلمي عن الدارمى (١/٨) والحاكم (٢/٦١٦) وصححه ، ووافقه الذهبى ، ومنها عن أبى بن كعب عن عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (٥/١٣٩) ومنها عن أبى ذر عند ابن جرير فى تاريخه (٢/٥١-٥٢) .

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : « إنى لفى الصحراء إبن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟

قال : نعم ، فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلىَّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا . فقال أحدهما لصاحبه : إضجعه، فأضجعانى بلا قسر[1] ولا هصر[2] . وقال أحدهما لصاحبه : « إفلق صدره » فهوي أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها .

فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هَزَّ إبهام رجلى اليمنى فقال : « اغد واسلم »

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير » .

وتكرر حادث شق الصدر للمرة الثالثة :

فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به وكان صلوات الله وسلامه عليه قد جاوز الخمسين قال[3] :

« بينما أنا فى الحطيم - وربما قال فى الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان ، أتانى آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه - يعنى ثغرة نحره إلى شعرته - قال : فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا ، فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد » .

---

(١) القسر : الإجبار

(٢) الهصر : ثنى العموم من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ، ولم يكرهانى .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى (٦/٢٣٣) ومسلم (١/١٠٣-١٠٤) والنسائى (١/٧٦) من حديث مالك بن صعصعة .

ولا يعنينا هنا لا فى قليل ولا فى كثير ، أن نجارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان . والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المحاكاة التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وإن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل ، إن الله سبحانه وتعالى - وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل . والإنسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس والتوبة ، والإخلاص أو - بتعبير آخر - بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول ﷺ ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .. وأرسلهم فشقوا عن صدره وأخرجوا الغل والحسد ، وأدخلوا الرأفة والرحمة فكان صلوات الله وسلامه عليه رقة على الصغير ورحمة للكبير . ثم أرسلهم فشقوا عن صدره فملأوه إيمانا .

وللدكتور عبد الحليم محمود رأى فى موضوع شق الصدر يقول :

وإذا كان رسول الله ﷺ هو المثل الكامل للإنسان الكامل فإن لنا فيه أسوتنا ، والأسوة فى شق الصدر إنما هى : التوبة .

وتوبتنا إلى الله إذن توبة نصوحا : إنما هى بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطائين ، بل وعن جو الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، هؤلاء الذين يقول الله فيهم:

« **عسى الله أن يتوب عليهم** »[1] . إن الله يعبر فى شأنهم بكلمة (عسى) ، والتوبة النصوح تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا فى جو : « **مع الذين أنعم الله عليهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** »[2] . والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة ، من الآثام والمعاصى : حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة الشيطان : سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة ، أو سيطرة مؤقتة، وعهد الإنطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطباً الشيطان : « **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** »[3] .

وبمجرد أن ينزع الإنسان سلطان الشيطان فى صورة من العزم المصمم وينطوى تحت لواء الله فى صورة من اليقين المطمئن ، فإن الله سبحانه وتعالى يتولاه ويتكفل به .

بل إن رعاية الله سبحانه وتعالى تبدأ مع الإنسان منذ أن يبدأ فى الإتجاه إليه سبحانه وتعالى مباشرة ، وبدء الإنسان فى الإتجاه إلى الله إنما يكون بالإستغفار .. فإذا بدأ الإنسان بالإستغفار بدأت رعاية الله له ، يقول الله تعالى : « **استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** »[4] . وكلما إزداد الإنسان إتجاها إلى الله ، وإقبالا عليه وتقربا منه وحبا فيه إزدادت رعاية الله له : « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

---

(١) التوبة ١٠٢

(٢) النساء من الآية ٦٩ .

(٣) من الآية ٤٢ سورة الحجر

(٤) نوح ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

إن حياة النفوس والعمل الصالح : أهم عنصر لسعادة الإنسان فى حياته الدنيا ، وسعادته فى الحياة الآخرة والله سبحانه وتعالى يبين ذلك فى أكثر من آية فى القرآن الكريم : « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »[1] « **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** »[2] . « **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه** »[3] .

التقوى والعمل الصالح نتيجتهما : السعادة وعناية الله ورعايته ، واللبنة الأولى فى أساس كل ذلك ، إنما هى التوبة أو هى : شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه وقد فتح الله بابها على مصراعيه .. إنه سبحانه وتعالى - فيما رواه الإمام مسلم - يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ويقول سبحانه : « **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له** »[4] .

وتوبة العوام إنما هى من الذنوب والآثام .. أما الخواص فإنهم لا يتوبون من الآثام والمعاصى .. فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه .. ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه مصبحين .

---

(١) سورة النحل ٩٧ .　　(٢) الأعراف ٩٦ .

(٣) الطلاق ٢ ، ٣　　(٤) سورة الزمر ٥٣ ، ٥٤ .

ويستغفرونه سبحانه ويتوبون إليه ممسين ، بل يستغفرونه ويتوبون إليه تعالى في كل وقت وكل حين خضوعا له وخشية منه وتقربا إليه وخوفا من الكبر الخفى .. أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التى قد لا يشعر بها الإنسان .

لقد كان رسول الله ﷺ فى ترقيه الدائم ، وفى أنواره التى تزداد كل لحظة ضياءً يستغفر الله ويتوب إليه إستغفار عبادة ، وتوبة إنابة وقربى ، يقول صلوات الله وسلامه عليه وفيما رواه الإمام البخارى : « والله لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وشىء واحد نرد ذكره .. أن بشراً ممتازاً كمحمد ﷺ لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت للشر « موجات » تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى إلتقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين - بتولى الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ، ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدلى ، وفى تطهير العامة عن المنكر لا فى التطهر منه فقد عافاهم الله من لوثاته .

عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير »[1] .

وفى حديث عائشة قال لها رسول الله ﷺ : أغرْت ؟ قالت : وما لمثلى لا يغار على مثلك ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : لقد جاءك شيطانك . قالت : أو معى شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا ومعه شيطان .. قالت : ومعك ؟ قال: نعم ، ولكن أعاننى الله عليه فأسلم »[2] أى إنقاد وأذعن ، فلا يستطيع أن يهجس بشر .

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٩/٨) عن ابن مسعود .
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم عنها فى الموضع السابق .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصيَّة عن مزالق الطبع الإنسانى ومفاتن الحياة الأرضية .

★★★

﴿ عودة محمد ﷺ إلى مكة ﴾

إنتاب حليمة وزوجها القلق بعد حادثة شق الصدر مما جعلهما يفكران فى العودة به إلى أمه . . بيد أن حليمة كانت لا تزال ضنينة به حريصة عليه .. ولكن كان لابد لمحمد أن يعود إلى أهله ، ويربى بين قومه . وكان هناك أيضا ما بعث حليمة إلى الإسراع إلى ذلك ، أما الباعث فهو أنه حينما كانت يوما مع محمد ، مَرَّ عليهما نفر من نصارى الحبشة ، وما إن وقع نظرهم على محمد ، حتى أقبلوا عليه يتفحصونه ، ويمعنون النظر فيه ، ويسألون حليمة من يكون هذا الغلام ؟! ثم تداولوا فيما بينهم بشأنه ، وقالوا : لنأخذن هذا الغلام ، ولنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فإن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره !!

فما فطنت حليمة إلى غرضهم ، وألمت بما يبيتون لمحمد ، وبما يعتزمون فى شأنه .. حتى فزعت خوفا عليه أن يأخذوه منها ، أو يختطفوه ، أو ينالوه بمكروه . . فتحايلت حتى إختفت به من أمامهم ، وأفلتت به من قبضتهم ؛ وهى ما تكاد تصدق بإفلاته ونجاته .

وأسرعت حليمة إلى آمنة حيث ردت إليها أمانتها وأرجعت لها وديعتها الغالية . وعاد صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة بعد أعوام طيبة قضاها فى البادية .. عاد ليجد أما كريمة حبست نفسها عليه .. وشيخا مهيبا

يلتمس فى مرآه العزاء عن إبنه الذى خلى مكانه فى شرخ الشباب .. عاد إلى أحضان أمه لتنعم به وتحاول أن تشبع منه .

وظل محمد فى كنف أمه ورعاية جده يلحظانه ، ويرعيانه ويَحْدَبان عليه .

وكأن الأيام أبت له قراراً بين هذه الصدور الرقيقة .. فأخذت تحرمه منها واحداً بعد الآخر !!! . رأت آمنة وفاء لذكرى زوجها أن تزور قبره بيثرب .. فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر فى الذهاب غير مثيلتها فى الإياب .. ومعها فى هذا السفر الشاق إبنها محمد ﷺ وكان سنه حوالى ست سنوات ، وخادمتها « أم أيمن » الحبشية . عبد الله لم يمت فى أرض غريبة فقد مات بين أخواله بنى النجار[1] .. وهناك أرت آمنة ولدها البيت الذى مات فيه أبوه ، والمكان الذى دفن فيه .. فكان هذا أول ما عَرَّفَ محمداً معنى اليُتم ، ومَبْدأ ما أحس من تأثُّر ومرارة !! ثم ذهبت آمنة بإبنها إلى أخوال جده من بنى النجار ، وقد ظل محمد عليه أفضل الصلاة والسلام لدى أخواله قريبا من قبر أبيه نحو شهر .. ثم قفل عائداً هو وأمه وخادمتها أم أيمن إلى مكة .

---

(١) قال ابن هشام : أم عبد المطلب بن هاشم (سلمى بنت عمرو النجارية فهذه الخؤولة التى ذكرها ابن اسحق لرسول الله ﷺ وقد أسهبنا فى شرحها فى باب شجرة العائلة لرسول الله ﷺ .

﴿ وفاة آمنة أم الرسول ﷺ ﴾

وفى أوائل الطريق مرضت آمنة كما مرض زوجها من قبل واشتد عليها المرض وما لبث أنْ أمْر الله نفذ وماتت آمنة « بالأبواء » !!! .. وتركت ولدها وحيداً مع الخادم المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ويفقد أمه وهو ابن ست سنوات .. ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم !! يتجدد له مصابه فى أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجوراً فى عرض الطريق !! .. لم يكد الصبى ينعم بحضن أمه بعد عودته من البادية حتى يفقدها على الطريق .. وما كان قد بقى فى الدنيا لآمنة غير هذا الصبى وذكرى أبيه الراحل فى غربتين : غربة الموت وغربة المكان ، فخرجت به ضيفا تزور الفقيد الراحل فى مثواه وتحسبه مشوقا تحت طباق الأرض إلى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار .

ماتت آمنة ودفنت بالطريق وكل ما وعته السيرة من مرضها أنها وعكت من لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام .. لك الله يامحمد شعر باليتم وهو إلى جانب أمه فكيف به وحيدا فريداً ؟؟ !!

وعاد محمد مع أم أيمن تحتضنه بكل العواطف وكل الحنان والحزن يغمرها باكية منتحبة !! .

﴿ كفالة عبد المطلب لمحمد ﷺ ﴾

زاد ذلك الحادث فى إعزاز جده عبد المطلب له وفى زيادة رعايته وحدبه عليه ، منحه أكثر قلبه ، وأغدق عليه من جميل حبه ... وأسبغ عليه كثيرا من عطفه وعظيم عنايته .. حتى كان لا يدعه لوحدته المفروضة بل يؤثر أن يصحبه فى مجالسه العامة .. كان إذا جلس على فراشه بجوار الكعبة وأولاده يجلسون من حول فراشه إجلالاً منهم وإحتراما لأبيهم .. وأتى محمد إلى جده قربه إليه وأجلسه على الفراش بجانبه وهو يربت ظهره بيده حبا وعطفاً .. ويحاول أعمامه أن يؤخروه عن الجلوس على فراش أبيهم إجلالاً له بيد أن أباهم عبد المطلب كان يقول لهم : دعوا إبنى فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه معه على الفراش وَيسُرُّهُ ما يصنع .

﴿ موت عبد المطلب ﴾

لما بلغ محمد ﷺ ثمانى سنين مات جده عبد المطلب بعد أن ناهز المائة والعشرين عاما .. وحزن محمد ﷺ كما حزن على أبويه من قبل وكان حزنه على جده أشد فقد شبَّ وترعرع ، وأحس العطف ، وقدَّر الحنان فهو يقدِّر الفقد ويحس مرارة الحرمان !! فلم ترقأ له عين ، ولم يجف له جفن ، ولم يكف له دمع حتى وُرِىَ جدث جده فى مقره الأخير ..

فاجعة محمد فى موت جده كانت فوق إحتمال صبى لم يناهز سنه الثمانى سنين .. مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه ، ولم يزل صبيا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه إليه بعد فقد أبويه !! .. لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها وإستنزفت كل ما حوته من

عطف وأمل ، فلا تعيش - إن عاشت بضرباتها - إلا كما يعيش الأشباح في ظلمات الحياة !! . فإذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التي تلقاها الصبي ، فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل أنها دلالة على القوة في مكمنها ، وعلى الروح العظيم الذي تجلى بعد ذلك في تاريخ بني الإنسان ، كفؤا لأعظم الأعباء ، وأفدح الخطوب .. وتلي ذلك وقفتنا أمام العطف الذي أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل .

وقد خرج الصبي من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التي تشمل العالمين عالم الحياة وما بعد الحياة .. مذ كان أحب الناس إليه في عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة .. وجاءت بعثته للناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم .. ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التي دان لها هذا العالم المشهود .

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس ، وأعم من دنيا الأحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحي والميت ، ولا ينتقل فيه الخلق في دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين .

وقليل في جنب هذا فائدة العطف الذي عهدناه من صباه إلى ختام حياته يحيط به كل إنسان وكل حي وكل شيء ، وإنما يترجم عنه عطفه على حاضنته .. وعلى مرضعته.. وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذي لم يحرمه أحد قط من صاحب أو صديق .

﴿ كفالة أبو طالب لمحمد ﷺ ﴾

« ألم يجدك يتيما فآوي ووجدك ضالا فهى »[1]

لم تتخلَّ العناية الربانية عن محمد بعد موت أبويه إذ وجدهما فى جده عبد المطلب ، ثم وجدها فى عمه أبى طالب الذى أوصاه عبد المطلب قبل وفاته برعاية إبن أخيه لأن أبا محمد ﷺ وأبى طالب أخوان شقيقان لأب وأم واحدة : وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

ونهض أبو طالب بشأن إبن أخيه ، وإحتضنه بفضل وإحترام وتقدير . ولم يكن أبو طالب أكبر إخوته سنا ولا أكثرهم مالاً .. ولكنه كان أكبرهم همةً ، وأكثرهم نبلاً ، وأطيبهم قلباً .

وأحب أبو طالب محمد ﷺ كحب عبد المطلب له من قبل .. وكان لا ينام إلا جنبه وإذا خرج أخذه معه ، وصبَّ به صبابة لم يصب مثلها بشيء قط .. حتى كان يقدمه على أولاده ، ويؤثره على نفسه لما كان يلمس فيه من الصدق والأمانة ، ويجد فيه من النبل والعفة .. ويلحظ عليه من آيات الذكاء وعلامات النجابة .

وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال ، ولقد حلت البركة بمقام محمد عنده .. وكان إذا أكل عياله جميعاً أو فرادى لا يشبعوا ، وإذا أكل معهم محمد ﷺ شبعوا .. فكأن أبوهم إذا أراد أن يغذيهم قال لهم : كما أنتم

---

(١) الضحى ٦ ، ٧

حتى يحضر إبنى ، فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم .. فكانوا يأكلون ويشبعون ويفيض طعاماً .. فيقول أبو طالب : إنك لمبارك .

ومضت أربع سنوات ومحمد فى كنف عمه ينمو جسمه ويتسع عقله وتتفتح مداركه .

﴿ طفولتـــه ﴾

كان طفلا يتسم سلوكه بالإتزان ولا يعرف اللهو ، وكان صادقاً فى كل أقواله أمينا حتى أنه لما بلغ سن الشباب كانوا يلقبونه بالأمين فهو منذ طفولته أميناً صادقا .. وكان هادئا مهذبا وإذا شارك أقرانه فى لعب كان بلا رعونة ولا طيش .. رقيقا عطوفا .. كانت طفولته مبعث العجب والإعجاب فلم ينشأ كغيره من الأطفال .. لم تُعْرَف عنه صغيرة ، ولم يأت بشائنة .. وكان لا يشتهى ما مع غيره ، ولا يطلب غير ما فى يده ، ولا يندفع كالأطفال إذا جاء الطعام ، ولا يبحث عنه إذا غاب وفى ذلك تقول أم أيمن : «ما رأيت محمداً ﷺ شاكيا صغيرا ولا كبيرا جوعاً ولا عطشاً ، كان يغدو فيشرب من زمزم فأعرض عليه الطعام فيقول : لا أريد فأنا شبعان» .
وقد كانت سمة الصدق عنده تبلغ مبلغا عظيما جعلت كل ما يقوله يكون قولا قاطعاً لا يحتاج إلى دليل أو تأكيد ، وليس أدل على ما إشتهر به من صدق من أنه لما جاءته الرسالة ونادى قريشاً عند الصفا للدعوة بدأهم بقوله المشهور « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسطح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقوني ؟ » فأجابوه : « نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط » .

ومما تميز به سيدنا رسول الله ﷺ - وكان كل ما فيه يجعله متميزاً -

رجاحة العقل وسلامة التدبير .. فمنذ طفولته إشتهر بالمنطق السليم والرأى السديد ، فكان قومه يستشيرونه فيما يصعب عليهم من أمورهم وهو أقلهم عمراً بكثير ويستمعون إلى رأيه وهو أصغرهم سناً . . كان عليه أفضل الصلاة والسلام اكبر من سنه .

﴿ بحيرا الراهب ﴾

ولما بلغ محمد ﷺ الثانية عشرة صار له جسم قوى متين البنيان ، وله عقل راجح ألمعيٌ الذكاء ، وله روح عظيمة محيطة واعية .. وحار أبو طالب فى أمر هذا الفتى الذى بلغ ما بلغ ، وأدرك ما أدرك وهو ما زال دون سن الحُلُم ! فعامله معاملة الرجال الراشدين وصار يبادله الرأى مبادلة الند للندّ .

ولذلك لم يتردد أبو طالب فى إستصحاب محمد معه حين أراد أن يخرج في رحلة صيف لتجارة بالشام مع أنه كان مُقدِّراً ما سيصادفه من عناء السفر ووعورة الطريق ، وسارت قافلة التجارة ومحمد ﷺ فى ركبها يتأمل فيما يرى ، ويفكر فيما يسمع ، ويعى فى مخيلته كل ما يراه ..

وَمَرّ الركب ببلاد كثيرة ونزل بمدن مختلفة حتى حَطّ بمدينة بُصْرَى من أرض الشام ، وكان من عادة تجار قريش ، كلما أتوا بصرى أن يحطوا رحالهم ويُنيخوا إبلهم فى مكان ظليل يجاور صومعة راهب إسمه بحيرا ، ويبقون فى هذا المكان حتى ينالوا قسطا من الراحة ، وحتى يتصلوا بعملائهم من التجار ، وحطّت القافلة فى هذا المكان ، وانصرف رجالها كل لشأن فمنهم من جلس ليستريح ، ومنهم من مدّ مائدته ليأكل .. ومنهم من شرع

يعد بضائعه لتصريفها و .... ومَرّ وقت وهم فى حالهم هذا ، ثم أقبل عليهم رسول يقول : إن الراهب بحيرا يدعوكم جميعا إلى طعام أعدَّه لكم ! ونظر القوم بعضهم إلى بعض مدهوشين يتساءلون : لماذا يدعوهم الراهب بحيرا إلى طعامه اليوم ، وما كان يدعوهم من قبل على كثرة ما مروا به وجاوروه ؟! ولكنهم لم يسعهم إلا أن يلبوا دعوته (وقد أشرنا فى باب بشريات من الكتب المقدسة) عما حدث وتبشير الراهب بحيرا لأبى طالب بأنه سيكون لابن أخيه شأنا عظيما ، وحَرَّصه من اليهود .

★★★

عاد أبو طالب بمحمد ﷺ إلى مكة وهو يفكر فيما قاله الراهب بحيرا، وفيما تنبأ به له . وعاد محمد ﷺ وسلم من أول رحلة له خارج بلاده يستعرض ما رأى فيها .. ويتأمل فيما سمع خلالها .. شاهد صحراء واسعة، وجبالا عالية .. ورأى رياضا ناضرة ، وحدائق يانعة !! جاز وهاداً ونجاداً !! .. ومر على مدن وقرى ، وسمع كل ما دار حوله من حديث عنها ، وما قيل عن ماضيها ، وعن أحداثها .. شاهد أناسا يعبدون ما يعبد قومه .. ورأى أناساً يتبعون ما أُنزل من كتب .. وسمع عن ناس يعبدون النار !! وناس يتعبدون حول صنم من حجر .. وناس يسيرون وراء ما يوجههم إليه أحبارهم اليهود .. وناس يتبعون ما يرشدهم إليه كهانهم النصاري ... !

ووسط هذا التيه المظلم كان محمد ﷺ يستعرض ويتأمل تُلِحُّ عليه الأفكار وتتبادر إلى ذهنه الخواطر .. مَنْ مِنْ هؤلاء الناس على صواب ؟؟ !! ومن منهم على خطأ ؟!! من منهم وراء الحق ؟ ! ومن منهم وراء الضلال ؟ ! أين الحق ؟ ! .. وما هو ؟ ... وحاول محمد الصغير السن الكبير العقل أن ينفذ ببصيرته إليه ، ويتعرف كنهه .. ويخرج به من الظلام إلى النور ! .

﴿ فترة التأمل ﴾

تجنب محمد ﷺ لهو الأطفال ، ونأى بنفسه عن عبثهم وهذرهم .. وانصرف إلى تَتَبُّع كل ما يظهر له منه قبس يهديه ، أو إشارة ترشده .

كان يخرج مع قومه وآله إلى أسواق (عُكَاظ ، ومَجَنَّة ، وذى المجاز) وهى أسواق ، كانت تقام بجوار مكة فى الأشهر الحرم ، التى يَحْرُمُ بها القتال ، وتُوقَّف فيها الحروب ، وفيها تُعرض بضائع من شتى الأنواع ، وتجلب إليها تجارة من مختلف البلاد .. وفيها تنشد الأشعار .. وتخطب الخطب ، وفيها يُبدى كلُ ذى رأى رأية ، وينشر كل ذى مذهب عقيدته ؛ كل حسب مبدئه وشريعته دون ماخوف فالكل آمن مطمئن لأنه فى الأشهر الحُرُم .

وهناك فى هذه الأسواق المكتظة المتباينة المتجانسة ، كان محمد ﷺ يجد أمامه الآفاق الواسعة لدراسة الناس وعقائدهم .. ويتعرف وجه الصواب والخطأ من أقوالهم وأفعالهم .. فإذا ما اعتكف وخلا بنفسه جلس يستخلص لعقله ما يراه حقا .. وينبذ عنه ما يجده باطلاً ، وكان مما ساعده على هذا التأمل .. ما كَلِفَ به وارتضاه من مهنة رعى الغنم .

قال رسول الله ﷺ : « كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[1] كما ثبت أن عدداً من الأنبياء إشتغل برعايتها ، أترى ذلك تعويدا لهم على

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٣٤٩) من حديث أبى هريرة مرفوعا بلفظ : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال (كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

سياسة العامة ؟ والرفق بالضعفاء ؟ والسهر على حمايتهم .. وتعلم الصبر ؟؟

وجو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل .. وحِدَّة اليقظان ، كالشعاع الذى ينمى الأشواك والورود معاً وقد كان محمد ﷺ يستعين بصمته الطويل .. صمته الموصول بالليل والنهار .. صمته المطبق على الرمال الممتدة ، والعمران القليل .. كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل ، وإدمان الفكر وإستكناه الحق .. ودرجة الإرتقاء النفسى التى بلغها من هذا النظر الدائم أرجح يقيناً من حفظ لا فهم فيه .. أو فهم لا أدب معه ، ومثله فى إحترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين إعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

وقد تسأل : أتنقدح المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، والناس وما يفيضون فيه - أتنقدح حقائقها فى نفوس المرسلين فجأة دون إعداد سابق ، أو تهيئة حكيمة ؟ والجواب كلا فالأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطرق التى يتعلم بها أمثالنا - لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم فى طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نعهد من أساليب .

ما العلم الذى ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الدروس ، واستيعاب القواعد والقوانين ؟ إن هناك ببغاوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعى !! ولقد ترى أطفالاً صغاراً يلقون - بإتقان وتمثيل - خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة ، فلا الأطفال بما استحفظوا من كلام الأئمة أصبحوا رجالا ، ولا الببغاوات تحولت بشراً ، وقد تجد من يحفظ ، ويفقه ، ويجادل ويغلب ، ولكن العلم فى نفسه كعروق الذهب فى الصخور المهملة لا يبعث على خير ، ولا يزجر عن شر ، وقد شبه القرآن الكريم أحبار اليهود الذين يحملون

التوارة ولا يتأدبون بها كالحمير « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** »[1] .

إن مراتب التعليم المختلفة هي مراحل جهاد متصل لتهذيب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظرته إلى الكون والحياة والأحياء .. فكل تعليم يقصر بأصحابه عن هذا الشأن لا يُؤْبَه له مهما وسم بالشهادات والإجازات . وأحق منه بالحفاوة ، وأسبق منه إلى الغاية المنشودة أن ينال المرء حظاً وافراً من حسن الفطنة ، وأصالة الفكرة ، وسداد الوسيلة والهدف ..

وقد أشار القرآن الكريم إلى نصيب إبراهيم عليه السلام من هذه الخصال عندما قال :

« **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** »[٢]. ومحمد ﷺ فى هذا المنهج وهذا النهج كجده إبراهيم عليه السلام . إنه لم يتلق علمه عن راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده .. ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية طالع صحائف الحياة ، وشئون الناس ، وأحوال الجماعات ، فعاف ما ساءه من خرافة ونأى عنه .. ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم . فما وجده حسنا شارك فيه بقدر .. وإلا عاد لعزلته العتيدة يتابع النظر الدائم فى ملكوت السموات والأرض ؛ وذلك أجدى عليه من علوم هى بالجهل المركب أشبه ، ومن مجتمع فقد الهداة من زمن بعيد ، فهو يضم ضلالاً جديداً إلى الضلال القديم كلما مرت ليلة وطلع صباح . وقد رأى أن يشهد الأعمال العامة التى إهتم بها قومه ..

---

(١) الجمعة : الآية ٥ . (٢) الأنبياء : الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها ، ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته (حرب الفجار) ثم شهوده من بعد ذلك ـ حلف الفضول) .

﴿ حرب الفجار ﴾

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم .. ومكانة أرض الحرم .. وهذه الشعائر بقية مما إحترمه العرب من دين إبراهيم، وكان إحترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضمانا لإنتظام مصالحهم ، وهدوء عداوتهم .. كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات .. وقد جاء الإسلام فَأَقَرَّ هذه المكانة الموروثة عن ديانة إبراهيم : « **إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم** »[1] .

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم بالقتال فيها وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة .. وليس هنا تفصيل خبرها ، وقد ظلت أربعة أعوام كان محمد ﷺ فى أثنائها بين الخامسة عشر والتاسعة عشر ، وقيل قاتل فيها بنفسه مع أعمامه ، وقيل بل أعان المقاتلين .

---

(١) التوبة من الآية ٣٦ .

﴿ حلف الفضول ﴾

أما حلف الفضول ، فهو دلالة على أن الحياة مهما إسودّت صحائفها ، وكلحت شرورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معانى النبل ، وتستجيشها إلى النجدة والبر ..

ففى الجاهلية الغافلة نهض بعض رجال من أولى الخير ، وتواثقوا بينهم علي إقرار العدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل فى أرض الحرم ..

قال ابن الأثير ..

..... ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا فى دار (عبد الله بن جدعان) لشرفه وسنه ، وكانوا : بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وبنى أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة فتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظَلَمَهُ حتى ترد مظلمته ، فسمّت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول) فشهده محمد ﷺ وقال حين أرسله الله سبحانه وتعالى :

« لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت »[(١)] .

---

(١) رواه ابن اسحق فى السيرة كما فى ابن هشام (٩٢/١ من الطبعة الجمالية) قال إبن زيد بن المهاجر قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : فذكره قلت : وهذا سند صحيح لولا أنه مرسل ، ولكن له شواهد تقوية ، فرواه الحميدى بإسناد آخر مرسلا أيضا كما فى (البداية) (٢٩/٢) وأخرجه الإمام أحمد (رقم ١٦٥٥ - ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعا دون قوله : « ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت وسنده صحيح .

﴿ سبب حلف الفضول ﴾

وقيل في سبب الحلف : أن رجلاً من بني « زبيد » أتى بتجارة فاشتراها (العاصي بن وائل السهمي) ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه ، فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكترثوا له ، فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد أبياتا يشكو فيها الظلم .. فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك . فاجتمع الذين ذكرهم ابن الأثير آنفا ، وذهبوا إلى العاصي بن وائل واستخلصوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن العاصي هذا رجل مماطل سمج فهو صاحب القصة كذلك مع (خباب بن الأرت) - بعد مبعث محمد ﷺ - وكان الخباب قَيْناً فصنع سيفا للعاصي ، فأتاه به لينقده ثمنه فقال له العاصي : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقال له خباب : لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال العاصي : وإني لميت ثم مبعوث ؟؟ قال : بلى قال : دعني حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولداً فأقضيك حق السيف . فنزلت الآيات : « **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم إتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا** »[1] .

وأمثال العاصي هذا في ميدان التجارة والسياسة كثير .. ومحمد ﷺ أولى الناس بخصومتهم ، وأولى الناس بمحمد ﷺ من أعان عليهم وواثق على حربهم .

★★★

---

(١) مريم : الآيات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .

﴿ خديجة بنت خويلد ﴾

خديجة مثل طيب للمرأة ، وكانت ذات حسب ، فهى من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى الجد الرابع لمحمد ﷺ ، تزوجت مرتين من رجلين من أغنياء بنى مخزوم وماتا عنها ، بعد أن خلّفا لها مالاً وثروة ، فصدت عن الزواج ، ورفضت يد أشراف قريش التى مُدَّت إليها ، ووقفت نفسها على تدبير مالها وإنماء ثروتها .

قال ابن الأثير : « وكانت خديجة إمرأة تاجرة ذات شرف ومال وكانت تستأجر الرجال فى مالها بشىء تجعله لهم » فلما بلغها عن رسول الله محمد ﷺ صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .

﴿ رحلة محمد ﷺ إلى الشام فى تجارة لخديجة ﴾

وتهيأت قافلة التجار الخارجة إلى الشام .. وفيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فى تجارة لخديجة بصحبة غلامها (ميسرة) .. ووقف أعمام محمد ﷺ وفى مقدمتهم أبو طالب يودعونه .. ويتمنون له رحلة طيبة وربحا وفيرا ، ويوصون ميسرة غلام خديجة بابن أخيهم خيراً . أول مرة يتحمل مسئولية وحده .

وسارت القافلة ، فاجتازت بمحمد ﷺ ما إجتاز مع عمه فى رحلته الأولى حتى أتت بُصرى بالشام .. ورفاق محمد ﷺ أحسن رفاق كما كان

هو لهم خير رفيق .

أما ميسرة غلام خديجة فكان وكأنه غلام محمد ﷺ حبا فيه وطاعة له. وتصرف محمد ﷺ فيما معه من التجارة تصرّف الحكيم العاقل المدبّر المجرب، فباع ما باع وقايض ما قايض ، وأبدل ما أبدل بالملاطفة والأمانة وإتباع الحق .

ولم تشغل كل هذه المشاغل محمداً ﷺ عن التهجد والإختلاء إلى نفسه يزن بعقله ما يرى من مفارقات بين الناس فى أحوالهم وأديانهم ، ومعتقداتهم ، ولم تُلْهِيه مهامُه عن الجلوس ساعات مفكراً متأملاً .

وفي يوم ما بينما هو كعادته فى إحدى الجلسات بجوار جذع دوحة عظيمة الجِرْم .. وميسرة يروح ويجيىء فى إعداد شئونهما وتهيئة لوازمهما - أتى إلى ميسرة راهب من رهبان أحد الأديرة القريبة إسمه (نسطور) ، وكان يعرف ميسرة من قبل لتردده على هذا المكان كل عام فى تجارة مولاته. فسأله :

من الذى يصحبك يا ميسرة ؟

قال ميسرة : شاب من قريش

قال الراهب : ما الذى رأيت من صفته ؟

قال ميسرة : الأمانة والنزاهة ودماثة الخلق ، وجلوسه الساعات هكذا كما تراه غارقاً فى بحار التفكير .. هائما بروحه فى فُسْحاتِ الفضاء .. له سَبَحات تشبه سَبَحات العابدين .

فعاود نسطور سؤال ميسرة بلهفة : وما شكل عينيه ؟

قال ميسرة وقد أخذته الدهشة من أسئلة الراهب : واسع العينين أدْعَجُهُما ، تشوب بياضهما من الجوانب حمرة خفيفة تزيد فى قوة جاذبيتهما

وذكَاءِ نظرتهما أهداب طوال سُودُ حَوالكُ .

فقال نسطور لميسرة وهو يتأهب للتوجه حيث يجلس محمد ﷺ : يا ميسرة إن من يجلس بجوار هذه الشجرة وتُظِلُّه هذه الغمامة المنخفضة ، وصفاته كما تصف ليس إلا نبيا ! .

وتوجه نسطور إلى محمد ﷺ يسأله أسئلة عن أديان قومه ليقف على مبلغ إتباعه لها ، وليتعرف مدى إحترامه لطقوسها ، فحاجَّه محمد ﷺ فيها، وعاب على قومه عبادتها ، فخاطبه الراهب فى دينه هو ، دين عيسى ، فحدثه محمد ﷺ فيما يراهم فيه على حق وفيما يراهم فيه على خطأ .

ومرت الأيام سراعاً ومالبث الركب أن تهيأ للعودة إلى مكة . فلما كانت القافلة بَمرِّ الظهران قال ميسرة : لمحمد ﷺ : يا محمد أسرع إلى خديجة فأخبرها بما منحها الله على وجهك من الربح الوفير ، فانطلق محمد ﷺ فوق بعيره حتى دخل مكة ساعة الظهيرة ، وكانت خديجة حينذاك فى عِلِّيةٍ لها بمنزلها ، تستروح ريح الشمال الباردة ، فأبصرت من عِلِّيَتِها راكبا يعدو به بعيرة فوق رمال الصحراء المحرقة ، وقد أظلته غمامة تسبح فوقه بمقدار عدو البعير ، وحَدَّجت خديجة النظر فى هذا الراكب تحاول أن تتعرف من شأنه ، فما شارف منازل مكة حتى تبينته فإذا به محمد يسارع العدو ببعيرة نحو منزلها !!

فما كان محمد ﷺ بباب خديجة حتى كانت هى فى إستقباله مرحبة بعودته . وفى عبارة فصيحة بليغة أجمل محمد لخديجة تفاصيل رحلته وبيَّن لها ما باع وما اشترى وعَرَّفها مقدار ما بَلَغَهُ ربحها فى تجارتها .

واستمعت إليه خديجة مسرورة معجبة مأخوذة .. سرُّها حديثه ، وأعجبها فصاحته وبلاغته ، وأُخذت بأمانته وصدقه ، وكان لِما جاءها به من ربح وفير فاق ما كان يأتيها به من إستأجرتهم فى تجارتها من قبله أثر كبير فى نفسها .

وجدت ضربا آخر من الرجال ، وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجة، ولعلها عندما حاسبت غيره سابقا فى تجارتها كانت تجد الشح والاحتيال ، أما مع محمد ﷺ فقد رأت رجلا تَقِفُهُ كرامته الفارعة موقف النبل والتجاوز فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها .. لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضيا . أما ما أخبر به ميسرة مولاته من بعد عن محمد ﷺ فقد ملأ نفسها غبطة وزادها إعجابا ودهشة .

أخبر ميسرة خديجة ما كان من محمد بشأن تجارتها وأثنى لها على صدقه وأمانته وحرصه على مالها ، ثم أعلمها ما كان من الراهب نسطور . وأخبرها عن الغمامة التى كانت تظله من حرارة الشمس المحرقة ومنعت عنه الهجير طول السفر ثم قال : وكان أيضا من أسباب عجبى ما كان منه فى عودتنا فقد تعب منى بعيران ، وعجزا عن السير ، وكنت فى المؤخرة ، فخشيت التخلف عن القافلة فأسرعت إليه وأخبرته الخبر .. فما كان إلا أن مسح أخفاف البعيرين بيده ثم أمسك بِمقْوَدِهما وقادهما فسارا خفافا نشاطا كأن لم يكن بهما شىء .

فقالت خديجة وقد أخذها العجب : والله إن له لشأنا عجبا !!

﴿ زواج محمد ﷺ من خديجة ﴾

ولم تستطع خديجة منذ هذه اللحظة أن تصرف فكرها عن التفكير في محمد ﷺ ، فتحول إعجابها به ، وسرورها منه حبا وإعزازاً له ، وتاقت نفسها أن يكون هذا الشاب الأمين الصالح زوجاً لها ، فكرت خديجة في هذا وتمنته ورغبت فيه وهي التي رفضت يد كبار رجال قريش وأغنيائهم ولم تستطع أن تكتم رغبتها هذه . وجدت خديجة ضالتها المنشودة .. فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها (نفيسة بنت منبه) وهذه ذهبت إلى محمد ﷺ تفاتحه أن يتزوج من خديجة .. فلم يبطيء في إعلان قبوله ودار هذا الحديث بينهما :

قالت نفيسة : ما يمنعك أن تتزوج يا محمد ؟

قال : ما بيدى ما أتزوج به !

قالت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف ألا تجيب ؟

قال : فمن هى ؟

قالت : خديجة .

وبوغت محمد ﷺ .. لقد أعجبه من خديجة أدبها وحزمها ، وكان ما لمسه فيها مصداقا لما كان يسمعه من قومها عنها ، حيث كانوا يلقبونها بالطاهرة ، ولكنه لم يخطر بباله أن يفكر في الزواج منها لما يعلم من ردّها أشراف قريش وأغنيائها عنها .

وقال : ولكن كيف لى خديجة ؟

فقالت نفيسة : عليَّ ذلك .

وذهب محمد ﷺ إلى أبى طالب ينبئه نبأ خديجة .. ودهش أبو طالب لهذا الخبر ولكنه كان لا يعهد فى إبن أخيه غير قول الحق والصدق .

فقال : عجبا يا بنى أن ترد خديجة سيدة قريش ذوى المال والجاه ، ثم ترتضيك أنت بعلا لها .

ثم أردف يقول : ولكنك يا بنى إن افتقرت فى المال فأنت غنى فى الشرف والنسب !

فقال محمد : يا عمى إننى لا طمع لى فى مال ولا حاجة بى إليه . وما لبث أبو طالب أن أخبر أخوته أعمام محمد ﷺ . فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهم إلى عم خديجة عمرو بن أسد - إذ أن أباها مات فى حرب الفجار - وخطبوا إليه إبنة أخيه خديجة وساقوا إليه الصداق عشرين ناقة ، ووقف أبو طالب يخطب فى حفل الزفاف قائلاً :

إن محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قلاً ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله رغبة فى خديجة ولها فيه مثل ذلك .. فكان جواب ولى خديجة - عمها عمرو - هو الفحل الذى لا يقدع آنفه وأنكحها منه .

تزوج محمد ﷺ خديجة وهو فى الخامسة والعشرين وكانت هى قد ناهزت الأربعين .. وظل هذا الزواج قائما حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاما كانت طوالها محل الكرامة والإعزاز .. وقد أنجب محمد ﷺ أولاده جميعا منها ما عدا إبراهيم .

﴿ حياته مع خديجة ﴾

وكانت حياة محمد ﷺ مع خديجة أجمل حياة .. والعيش معها أهنأ عيش فخديجة إمرأة ذكية حكيمة مجربة .. وهى مَثَلٌ طيب للمرأة التى تكمل حياة الرجل العظيم .. إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبا شديدة الحساسية .. ويلقون غبناً بالغاً من الواقع الذى يريدون تغييره .. ويقاسون

جهاداً كبيراً فى سبيل الخير الذى يريدون فرضه وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه .. وقد كانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال .. وكان لها فى حياته الكريمة أثر كريم .. وفى بداية حياتهم الزوجية - قبل الرسالة - عرفت ميول محمد ﷺ فحققتها له ، وأدركت رغباته ، فساعدته على نيلها . وكانت ميول محمد ﷺ الصدق فى القول .. والأمانة فى العمل .. وتجنب مجالس الصخب والضجيج ، والنزوع إلى التأمل والوحدة ، فكفلتها له خديجة ، وعملت ما وَسعَها فيما يود ويحب .. فظلَّ محمد ﷺ على عهده القديم يخرج إلى فضائه الواسع المحبب إلى نفسه الطليقة يهيم بروحه فيه ما شاء أن يهيم ويتأمل ما شاء أن يتأمل . ولم يهمل شئون خديجة .. ولم يلهه تهجده عن أن يكون الزوج الكفء القدير .. رعى لها أموالها .. وأشرك معه من رأى فى شركته حسن المعاملة ، وعهد منه الأمانة والصدق .. ولم يكن ميله إلى الوحدة ليمنعه من أن يخالط قومه أحيانا فيستمع إلى أحاديثهم بإمعان وروية . كان محمد ﷺ حَسنَ الإصغاء قليل الكلام .. بعيداً عن اللجاجة .. وكان لا يخلو كلامه من ملاحظة ومفاكهة .. ولا يخلو وجهه من ابتسامة حلوة حبيبة إلى محدثيه .

﴿ اولاده ﷺ ﴾

قال ابن اسحق : ولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولده كلهم ما عدا إبراهيم وهم : القاسم ، وبه كان يكنى ﷺ. والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليهم السلام .

قال ابن هشام : أكبر بنيه القاسم ، ثم الطيب ثم الطاهر وأكبر بناته رقية ، ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة .

قال ابن اسحق : فأما القاسم والطيب والطاهر فماتوا فى الجاهلية ..

مات القاسم بعد أن بلغ سنا تمكنه من ركوب الدابة ، والسير على النجيبة ، ومـات الطيب والطاهر وهم أطفال ، ومـات سائر بناته في حيـاته مـاعـدا فاطمة فقد بقيت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .

وقد كانت حياة محمد ﷺ مع خديجة خيراً لهـا وله .. ولاشك أن هذا البيت الجديد قد إصطبغ بروح رب البيت ، وروح التطهر من أدران الجاهلية، والترفع عن تقديس الأوثان . ولم يكن ثمة ما يقلق في هذه الزيجة الموفقة إلا ألم خديجة لهلاك الذكور من بنيهـا مع ما لِلذُكْران من منزلة خاصة في أمة كانت تَئِدُ البنات .. وتَسْوَدُّ وجوه آبائهن عندما يبشرون بهن .. والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يعيرون محمداً ﷺ بهـذا ويعلنون إرتقـابهم لإنقطاع أثره ، وإنتهـاء ذكره ، فعن ابن عبـاس رضى الله عنه أن قـريشـا تواصت بينها بالتمادى في الغي والكفر وقالت : الذى نحن عليه أحق مما عليه هذا الصنبور المنبتر - والصنبور النخلة التى إندقّ أصلها - يعنون أن محمداً عليه الصلاة والسلام إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل رسالته أحد **« أم يقـولون شاعـر نتـربص به ريب المنون قل تربصـوا فـإنى معكم من المتربصين »**[1] .

ومحمد ﷺ فوق هذه الأمـانى الصغيرة ، إلا أن الأسى كان يغزو قلب الوالد الجليل وهو يودع أبناءه الثرى !! فيجدد الشكل ما رسب في أعماقه من آلام اليتم . إن غُصنَه تشبث بالحياة فاستطاع البقاء والنماء برغم فقدانه أبويه .. وها هو ذا يرى أغصانه المنبثقة عنه تذوى مع رغبته العميقة ورغبة شريكة حياته في أن يرياها مزهرة مثمرة .

---

(١) الطور : الآية ٣٠ ، ٣١ .

وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً من كيانه .. فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طُبِعَت على القسوة والأثرة .. وعاشت فى أفراح لا يخامرها كدر .. أما الرجل الذى خَبِرَ الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ، ومداواة المجروحين .

★★★

﴿ بنيان الكعبة وحكم رسول الله ﷺ بين قريش فى وضع الحجر الأسود ﴾

لما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة ، أصاب أهل مكة حدث عظيم فقد طغى على بلدهم سيل جارف إنحدر إليها من الجبال المحيطة بها فهدم كثيراً من منازلها ، وصدَّع جدران الكعبة ، وأوهن أحجارها مما دعا أهل مكة إلى التفكير فى أمرها ، وفى كيفية إصلاحها فهى بيت عبادتهم، وموئل أصنامهم .. وتساءل القوم ماذا يفعلون ؟ أينقضون بناءها القديم ويعيدون بناءها من جديد ؟ ومن الذى ينقض بناءها ؟ .. ،ومن الذى يعيد بناءها ؟ .. كانوا يخافون رب الكعبة ، ويخشوْن أن يصيبهم السوء إذا أقدموا على هدمها ، ولكن ماذا يفعلون ؟! لابد من الإقدام على ذلك قبل أن تنهدم أحجارها وتنهار جدرانها ، فأقدموا فى خوف وخَشية وتردد ! ولكن أنى لهم بأدوات البناء اللائقة ؟ لتكون الكعبة متينة صلدة .. وأنى لهم البنَّاء الماهر الذى يجيد بناء الأحجار ويحسن تنسيقها ؟ .. ولم تطل حيرة القوم فقد ساقت الصدف الطيبة لهم سفينة محملة بالأخشاب ، وبأدوات البناء مملوكة لرجل رومى أتى بها من مدر فأصابها عَطَبْ وجنحت إلى جده ، وهناك أفرغت حمولتها التى كانت تقصد بها إلى الحبشة فى إنتظار سفينة

أخرى لتحملها ، فسرعان ما جاء نبؤها إلى أهل مكة ، فأوفدوا وفدا منهم إلى جدة ليحصلوا على حاجتهم منها . وما عرف صاحب السفينة واسمه (باقوم) حاجتهم حتى أجاب طلبهم وأعلمهم أنه بنّاء ماهر ، فطلبوا منه أن يرافقهم ليعاونهم فيما هم بشأنه .. ولما عاين « باقوم » الكعبة أخبر القوم أن بناءها هينٌ سهل ، وإنما يلزم أن يقام بساحتها عدد من الأعمدة يُعْرش من فوقها سقفها الذى أراد القوم أن يقيموه لها ليحفظها ويدرأ عنها الأعاصير ، فوافق القوم علي إقامة الأعمدة . وكان بمكة رجل قبطى مصري إسمه «صُلَيْح» يعرف نجر الخشب وتسويته فدعى إلى معاونة باقوم . واقتسمت قريش جوانب الكعبة ، بحيث تقوم كل قبيلة على هدم جانب من جوانبها الأربعة وبنائه .

وجاءت ساعة الهدم .. فعاود القوم الخوف ، وأخذتهم الخشية ، وانتابهم التردد ، فصلوا ودعوا ، وأهدوا ، ونحروا ، ثم تقدم أحدهم وهو «الوليد بن المغيرة » فى خوف ، وأمسك المعول بيد مرتعشة ، وهدم ركنا من أركان الكعبة ! .. وحبس الجميع أنفاسهم .. ومكثوا ينتظرون ما سَيَحلُّ بالوليد .. وما سوف يُنْزِلُهُ الله به . ومرَّت الليلة وأصبح الصباح ، ولم يصب الوليد بسوء ! حينئذ أقدمت قريش على هدم الكعبة بقلوب مطمئنة ، ونفوس راضية ، ونقلت قريش الأحجار من الجبال المجاورة .. وشرعت تبنى . وكان فى مقدمة المعاونين على هذا العمل محمد ﷺ وأعمامه . وارتفع البناء وآن وضع الحجر الأسود فى مكانه من الجانب الشرقى ، حينئذ إختلف القوم فيمن يحوز هذا الشرف ويكون له حق الفخار فى وضعه ! فكل فريق يرى أنه أحق بنيل هذا الشرف ، والاستئثار بهذا الفخار . واتسعت هُوَّة الخلاف ، وتفرقت القلوب التى إئتلفت وإحتمت فى سبيل بيت الله . ومرت ليالٍ خمس والقوم على حالهم لا ينتهون إلى رأى ، وزاد منهم بنو عبد الدار وبنو عدى فتحالفوا فيما بينهم على أن يحولوا بين أى قبيلة وبين هذا

الشرف العظيم ، وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم .. وقرّب بنو عبد الدار جَفْنَة مملوءة دماً .. وأدخلوا أيديهم فيها توكيداً لما أقسموا عليه .. واستعدوا للفصل فيما اختلفوا فيه بحد السيف .. حينئذٍ وقف فيهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي ، وكان أسَنُّ شيخ فى قريش وله بينهم منزلة طيبة ، وكلمة مطاعة فقال يناشدهم : يا معشر قريش ، كلكم فى السُؤْدُدِ والشرف سواء ، فلا تتشاحنوا ولا تتنافروا ؛ ثوبوا إلى أنفسكم ، ودعوا الحكم فيما اختلفتم فيه إلى أول قُرشي يدخل من باب الصفا ، ورضي المتشاحنون بهذا الرأى ، وجلسوا ينتظرون وعيونهم معلقة بباب الصفا ، يترقبون من ستسوقه الأقدار للحكم بينهم . ومالبث أن أهَلَّ من الباب شاب وسيم ، يسرع فى سيره فما رآه القوم المترقبون حتى صاحوا :

الأمين .. الأمين ! قد رضينا بحكم محمد الأمين . وسارعوا إلى محمد ﷺ يعرضون عليه قضيتهم ، واستمع محمد ﷺ إليهم ثم قال : هلموا إلى ثوبا .

-.. فأُتى إليه به فنشره ، وأخذ بيده الكريمة الحجر الأسود فوضعه فيه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً. فتقدم كبراؤهم فأخذوا بأطراف الثوب ورفعوه والحجر الأسود بداخله حتى حازى مكان وضعه من بناء الكعبة فتناوله محمد ﷺ من الثوب ووضعه بيده الكريمة فى موضعه[1] بين فرح القوم ، وتهليلهم بزوال الشر ، وانحسام النزاع .. ثم أتمت قريش بناء الكعبة وعَرّشت لها سقفا فوق عُمُد أقيمت لهذا الغرض وفُتح لها باب يؤدى إلى جوفها حيث أقيم صنم هبل !!!

وهكذا كان محمد ﷺ حبيبا إلى قومه .. رفيع المكانة بينهم ، حكيما فى رأيه ، مسموع الكلمة عندهم .

★★★

---

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٤٢٥/٣) عن حديث السائب بسند حسن .

﴿ البحث عن الحقيقة ﴾

ذكرنا سابقا أن الوثنية تزين باطلها بطلاء الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من مرارة ، فهي تزعم الإيمان بإله خلق السموات والأرض .. وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة ، ولما كان خالق السموات والأرض بعيدا عن مرأى العين ، فقد أنس العباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم ، والتي يترددن عليها صباحاً ومساءاً .. حتى صارت صلتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأصيل ، وأصبح ذكر هذا الإله - المتوسل إليه بغيره - لا يرد إلا في معرض الجدال والإعتذار « **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ، وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون** »[1] .

بيد أن التعصب لهذا السخف جاوز الحدود .. فأما العامّة فهم بُهْمٌ أحلاس ما توارثوا .. فقدوا نعمة العقل الحر المدرك .. وأما الذين أوتوا حظا من التفكير فإن تفكيرهم يرتطم بحدود شهواتهم وربما كتموا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا ، وقليل من الناس من يتجرأ على التقاليد المستحكمة ويجهر بالحق .. وأقل من ذلك من يعيش له ويضحي في سبيله . وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة إستهزاء .. ومن عرف أن قومه يلتقون على أباطيل مفتراه ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفِّهم .. ومن هؤلاء « زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل - وقد تحدثنا عنهما سابقا - وعثمان بن الحارث وعبيد بن جحش . ففي صبيحة يوم نادى في مكة هؤلاء الرجال الأربعة : يا معشر قريش .. يا أبناء إبراهيم .. طهروا

---

(١) الزخرف : الآيات : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

بيت الله ، وكسّروا الأصنام .. يا قوم إلتمسوا دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه .. يا قوم لقد أظلكم زمان يظهر فيه نبى من أنفسكم وَرَدَ ذكره فى التوراة والإنجيل ، و استدلّ عليه الأحبار والرهبان والكهان .. فتوبوا إلى أنفسكم وارقبوه تكن لكم الدنيا وثواب الآخرة .

كانوا جميعاً شيوخاً أجلاء فى قومهم ، يعرف الجميع عنهم أنهم على دين إبراهيم .. فهم يحرمون على أنفسهم الخمر ، ولعب الميسر .. ويتجنبون عبادة الأوثان .. ويفتدون الموءودة من مالهم .. فإذا ما سمعوا أن أبا يريد قتل إبنته لفقر أو خشية عار ، تقدموا إليه فكفلوها عنه .. فإذا ما شبّت ورغب الأب فيها أعادوها إليه .

ولكن أبناء قريش ما كانوا ليستسيغوا أن يجهر هؤلاء بما جهروا به ، ولا أن يدعوهم ليعيبوا عليهم ديانتهم ، ويُحَقِّروا من شأن أصنامهم .. فهذه هى عبادتهم التى شَبُّوا عليها .... وهذه هى آلهتهم التى يعبدونها لا يريدون عنها بديلا ، ولا يبغون لها تغييرا .. لذلك صَمُّوا آذانهم عن نداء هؤلاء الشيوخ . وزاد فريق منهم فانبروا يسبونهم ، ويطعنون فيهم ، ويضيقون عليهم ويهزءون بهم . ومرّ على هؤلاء الشيوخ وقت هاجر منهم من هاجر ، وتَنصَّرَ منهم من تَنَصَّر وبقى على دين إبراهيم واحد منهم هو « زيد بن عمرو بن نفيل وهو الذى ذكرناه آنفاً .

★★★

﴿ فى غار حراء ﴾

ومرت الأيام وأخذت سن محمد ﷺ تصعد نحو الأربعين .. وكانت تأملاته الماضية قد وسَّعت الشُّقة العقلية بينه وبين قومه ، فأمست نظرته إليهم نظرة عَالِم الفلك – فى عصرنا – إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور ، أو نظرة عالم الذرة إلى جماعة يتراشقون بالحجارة ، إذا تحاربوا ، ويتنقلون بالمطايا إذا سافروا .

ذلك من الناحية الفكرية .. أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذى شاع فى الجاهلية وجعل أهلها يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . هذا الإلحاد المغرق الطامس غزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ .. إلى أين تصير هذه القافلة الحائرة ؟ لئن كان الوجود – أولا وآخراً – هذه الأعمار المُسْتَنْفَدَة على ظهر الأرض .. إن الفناء خير وأجدى .

أما من بصيص نور خلال هذا الظلام المخيِّم ؟؟ !! أما آن لهذه الظلمة أن تنجلى ؟؟ !!

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم ؟؟ !! .. أوليس هناك أمل فى قبس من نور . . أو إثارة من علم . أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى والرشاد ؟؟

ويلجأ رسول الله ﷺ إلى الله يستغيث به ، ويستعيذه ، ويرجوه ، ويُلِحُّ فى الرجاء ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وما كان أسعده حينما يخلو إلى نفسه بعيدا عن الناس ينظر فيما حوله ويتأمل .. كان يستولى عليه الإطمئنان وهو وحده ، بعكس ما كان عليه

قومه لا يسيرون فى الصحراء إلا فى جماعة ، وإذا إنفرد أحدهم أحس الدهشة والخوف والرهبة ..

وهكذا أحب سيدنا محمد ﷺ الخلاء .. ففيه تسبح نفسه وتتأمل فى ملكوت الله ، إلى أن إتخذ مكانا لخلوته بأعلى جبل حراء .. وهو على بعد فرسخين من شمال شرق مكة .. فى مكان بعيد عن الناس ، خال من كل أسباب الحياة ، حيث وجد به غاراً قد دخل فى الجبل يكاد لا يتسع إلا له .. وقد كونت صخرتان كبيرتان ما يشبه المدخل .. دخله محمد ﷺ متأملاً مفكراً متعبداً لمن خلق كل ما حوله فى الكون . واعتاد أن ينتزع نفسه من شئون الحياة مرة كل عام يأخذ معه القليل من الزاد والماء ويعتكف فى هذا الغار لمدة شهر من الزمان هو شهر رمضان .

-. إن الإنسان يتكون من روح وجسد ، أما الروح فهى نفخة من الله ، وأما الجسد فحفنة من تراب ، فإذا ساد الجسد الروح إقترب من التراب ، وإذا سادت الروح قَرُبَ صاحبها من السماء .. وها هو ذا محمد ﷺ قد طهَّر الله جسده من كل دنس وأبعد عن قلبه كل ريب وسمت روحه فوق الآخرين .. وها هو ذا يعتكف بعيداً لا يهمه غذاء جسده ، إنما روحه التى صفت ونمت ، وبعد سنوات أمكنها أن تحلق فترى فى منامها الرؤيا الصادقة التى يحملها الصباح حقيقة واقعة . ودامت الرؤيا الصادقة .. وكانت البداية لطريق الحق والنور .

كان يبحث عن الحقيقة فى مَاهِيةِّ هذا الكون الذى يعيش فيه ، ويحاول أن يكشف عنها فيما غَمَضَ منه عليه .. ويزيح من أمامه ما أُسْدِلَ من أستار خَوَافِيهِ !

وإذا ما إنقضى شهر رمضان كان يعود إلى زوجته خديجة وإلى أولاده فتسأله خديجة مشفقة حانية :

أأنت بخير يا محمد ؟ فيجيبها : نعم والحمد لله . ويلتف أولاده حوله فيتعلق به صغيرهم ويسأله كبيرهم : أين كنت يا أبى ؟ نريد أن نكون معك يا أبى .. فيداعبهم الأب الحنون ويحنو عليهم ، ويعدهم أن يأخذهم من حيث يذهب للعبادة بين فترة وأخرى .. ويمضى محمد ﷺ بين آله فترات سعيدة ولحظات هنيئة .

ولكن هذه الفترات السعيدة ، واللحظات الهنيئة لمحمد بين أولاده .. لم تدم طويلا فلم يلبث أن إحتسب أولاده الذكور جميعا الواحد بعد الآخر !! فمات القاسم والطيب والطاهر وذاق الأب مرارة فقد الأبناء كما ذاق صغيراً مرارة فقد الآباء وبقيت له بناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وشبت زينب فزوجها إبن أخت خديجة أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس .. ثم زوج رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة إبنى عمه أبى لهب . ولم تبق بجانبه غير فاطمة الحدثة الصغيرة .

حُرِمَ محمد ﷺ البنين من أولاده ، ولكن ساقت المقادير فى طريقه غلامين كانا له بمثابة الولدين . . وكان هو لهما بمكان الأب .

﴿ زيد بن حارثة ﴾

أتت خديجة يوما من زيارة لإبن أخيها (حكيم بن حزام بن خويلد) وبصحبتها غلام وضيىء تبدو عليه آثار من الرفاهة والنعمة ، فسألها محمد ﷺ : من يكون هذا الغلام يا خديجة ؟ قالت : وهبنى إياه إبن أخى حكيم

من رقيق أتى به معه من الشام . قال محمد ﷺ : والله إنى لأجد فى وجهه عنصر الكرم ، وأرى فى ملامحه مخايل الذكاء .

قالت خديجة : يقال إنه ابن نعمة أصابته خيل من بنى القَيْن بن جِسْرٍ فباعوه بسوق حبَاشَة . قال محمد ﷺ للغلام وهو يتأمل وجهه فى حنان وعطف: ما اسمك يا بنى ؟

قال الفتى : إسمى زيد بن حارثة

سأل محمد ﷺ : وما نسبك ؟

قال : أبى حارثة بن شُرَحْبِيلَ بن كَعْب وأمى سُعْدَى بنت ثعلبة من بنى مَعْنٍ من طيىءٍ .

فقال ﷺ لزوجته : يا خديجة ألا وهبتنى إياه .

قالت : هو لك يا ابن العم

فأعتق محمد ﷺ الغلام لساعته ، وصَيرُه منه بمثابة الإبن ! ثم أرسل إلى والدى الغلام من يطمئنهما على مصير ولدهما .. فلم يمض من الوقت غير قليل حتى أتى أبو زيد وعمه إلى محمد ﷺ يسألانه أن يفديا الغلام منه

فقال عليه الصلاة والسلام : أوَ غيرُ ذلك ؟!

قالا : وما هو ؟ !

قال : أدعوه وأخيرُه . . فإن اختاركما فهو لكما دون فداء .. وإن إختارنى ، فوالله ما أنا بالذى أختارُ على من إختارنى أحداً .

فقالا : قد زدت على النُّصْف

ودعا محمد ﷺ بزيد . فلما جاء سأله : من هذان ؟ قال زيد : هذان أبى وعمى ! قال محمد ﷺ : قد خيرتك : إن شئت ذهبت معهما وإن شئت أقمت معى .

قال الغلام : بل أقيم معك .

فغضب حارثة وقال لولده معنِّفا : يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك ؟!

فأجاب زيد : إن هذا الرجل ما اتخذنى عبداً ، وقد رأيت فيه شيئاً ما أستطيع معه أن أفارقه أبداً .

عندئذ أخذ محمد ﷺ بيد زيد : وخرج به إلى الملأ من قريش وقال إشهدوا أن هذا إبنى وارثا وموروثا !

فطابت نفس حارثة وتركه لمحمد وانصرف . وزَامَلَ زيداً فى نفس محمد ﷺ ، وحَظِىَ بعطفه وأبوته أيضا إبن عمه على بن أبى طالب ، إذ طلبه محمد ﷺ من عمه أبى طالب إثْرَ سنة قحط مُجْدِبَة شديدة ليكفله عنه . لأن أبا طالب كان كثير الأولاد رقيق الحال - كما نوهنا عنه سابقا - يعانى عسرا ، ويشكو شدة ، زادتهما عليه ضيقا ما أتى على مكة من سنة مُجْدِبة مُعْسِرة .. فخاطب محمد ﷺ عمه العباس وكان من أيسر بنى هاشم؛ فى أن يكفل كل واحد منهما ولداً من أولاد أبى طالب ، وطلبا منه ذلك . فقال لهما : لكما ما شئتما فأخذ العباس جعفراً ، وأخذ محمد ﷺ عليا ، فصار له من ذلك الحين أكرم أب وصار علىّ له أبرَّ ولد ! .

ومرت الأيام وهل رمضان من هذه السنة .. فاعتكف محمد ﷺ بغار حراء كعادته ، يتعبد ويتحنث ، يأتى إليه أهله من حين إلى حين يزودونه بالزاد ، ويُطَمْئِنون قلوبهم عليه ، ويَفِدُ عليه بعض المساكين من وقت لآخر فينالون منه البِرَّ والخير .

ومرت ليالى رمضان وهو فى كفاح المستميت .. وجهاد المستبسل .. يتجه إلى الله فى الصباح ، ويتجه إليه فى الظهر ، ويتجه إليه فى الآصال ويتجه إليه فى مغيب الشمس ، ويتجه إليه حين تلمع النجوم .. إنه مهاجر

إلى الله فى كل وقت وكل لحظة ، وفى كل نفس من أنفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب .. وفى كل همسة من همسات الضمير .

إن حياته كلها لله .. فقد أضاءت هذه السنين الطويلة فى العبادة والتحنث روحه ، فصفت وإهتدت ، وأرهفت نفسه فشفَّتْ ، وألهمت .. وتفتح قلبه قصفا وَوَعى .. تبلجت له الحقيقة فى نومه رؤيا صادقة أنارت له حالكات الظلام التى جاهد فى إختراقها ، وأضاءت له طريق الحق وسبيل الهدى ! رأى فى رؤياه أن زخرف الحياة وهم باطل ، وأن نعيمها وترفها عرض زائل .. وأدرك مبلغ ما وصل إليه قومه من بهتان ، وما هَوَواْ إليه من ضلال وما حادوا عن الطريق السويِّ القويم . عرف أن الله لا إله إلى هو وحده لا شريك له وأنه هو خالق الكون بما حوى ، وأنه يجزى كل إمرىءٍ بعمله . كانت الرؤيا الصادقة تعاود محمداً فتريه كل ما بحث عنه وأراد معرفته ، والوقوف على كنهه وماهيته .. تَبلَّجَ أمامه الحق . وظهر أمام ناظريه الباطل فكان أن إمتلأ قلبه راحة وطمأنينة ، وإيمانا ونوراً لقد إرتاحت نفسه وإطمأنت ؛ بعد أن طال بها المطاف وراء نشدان الحقيقة .

﴿ الوحـــى ﴾

ويضاعف محمد ﷺ رجاءه وأمله .. حتى أصبح صلوات الله وسلامه عليه فى النهاية وكأنه صفاء من الصفاء .. ونور من النور .. . .

فلما إستوت على الجودى .. ولما كاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار .. فى هذا الغار إتصل محمد ﷺ بالملأ الأعلى ..

ومن قبله .. من قرون مضت شهد بطن الصحراء أخا لمحمد ﷺ يخرج من مصر فاراً مستوحشا .. يجتاز القفار متلمساً الأمن والسكينة والهدى لنفسه ولقومه ، فبرقت له من شاطىء الوادى الأيمن نار مؤنسة فلما تيممها إذا النداء الأقدس يغمر مسامعه ويتخلل مشاعره : « **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** »[1] ، إن شعلة من هذه النار إجتازت القرون لتتقد مرة أخرى فى جوانب الغار .. لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر .. بل كانت نوراً ينبسط بين يدى وحى مبارك يسطع على القلب العانى ، بالإلهام والهداية ، والتثبيت والعناية .. فإذا بمحمد صلوات الله عليه وسلامه يصغى فى دهشة وإنبهار إلى صوت الملك يقول له : « إقرأ »

ويحدث اللقاء بين نور مخلوق منه ملك ، وبشرية مخلوق منها رسول الله ﷺ يحدث هذا اللقاء إهتزازاً شديداً فى جسد محمد ﷺ .. فيقول : «ما أنا بقارىء »

فأخذه الملك فَغطَّه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال : « إقرأ »

قال رسول ﷺ : « ما أنا بقارئ »

فأخذه الملك فغطَّه الثانية حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال : « إقرأ »

فقال الرسول ﷺ : « ما أنا بقارىء »

فأخذه الملك فغطه الثالثة ثم أرسله فقال : « **إقرأ باسم ربك الذى خلق .. خلق الإنسان من علق . . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم** »[2] .

فقرأ الرسول ﷺ ما قاله له الملك وقد نُقش وطبع على صفحة فؤاده فتركه الملك وانصرف .

---

(١) طه الآية : ١٤ . (٢) العلق : ١- ٥ .

هَبَّ محمد صلوات الله عليه قائماً وقد تولاه الجزع وتملكه الفزع . . فأخذ يتلفت فى أرجاء الغار فزعاً . . ورعباً !! وخرج من الغار مسرعاً .. وقد حسب أنه لحقه مَسٌّ من الجن ، وأصابه ما كان يخشى .. وهام محمد ﷺ في شعاب الجبل يرتعد فَرَقًا .. ويتساءل بينه وبين نفسه : لقد تَبدَّت له الرؤيا الصادقة فى نومه ، فأنارت له كل ما غَمَّ عليه ، وأوضحت له ما كان يريد .. لكن من هذا الشخص الذى تمثل له ؟! وما الذى عُنِيَ بما أقرؤه؟ وتوسط محمد ﷺ الجبل ، وفجأة سمع صوتا يناديه يملأ الأرجاء :

محمد .... فرفع محمد ﷺ رأسه مُرَوَّعاً فزِعاً .. فرأى أمامه الملك قد تمثل فى صورة رجل يناديه ! يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فزاد به الرعب واشتد عليه الفزع ، وَوَقَفَهُ الهلع فلم يجد لنفسه مهرباً .. فجعل يدير رأسه يمنة ويسرة يحاول أن يصرف عن ناظريه صورة هذا الشخص الذى أمامه ، ولكنه كان يراه أينما ولى وجهه ، وحيثما حَوَّله !

فعالج أن يتقدم أو يتأخر ، فإذا هو يراه فى كل مكان .. وفى كل جهة .. وحيث يُرسِلُ بصره فى آفاق السماء . ومضى وقت طويل ، ومحمد ﷺ يعانى ما يعانى من الرعب ويقاسى ما يقاسى من الخوف والفَرَقِ . وخديجة إذ ذاك تبعث برسلها يلتمسونه فى الغار فلا يجدونه ، فيلتمسونه فى بيوت أقاربه فلا يجدونه ، ويلتمسونه هنا وهناك دون جدوى وأخيراً انصرف الملك عن محمد ﷺ .. وعاد إلى خديجة يرتجف ويتصبب عرقاً ويقول : زملونى .. زملونى .. فزملته خديجة ودثرته ، وهى مشفقة أن يكون أصابه مرض .. أو نزلت به حمى . فلما هدأ قليلاً وانصرف عنه بعض الرَّوع ، وخفت عنه شدة الرجفة .. سألته خديجة عما به وأين كان ؟! .. فنظر إليها رسول الله ﷺ نظرة المستغيث المستنجد وقال : يا خديجة ما الذى بى ؟!!

ثم حدثها بما رأى .. وأفضى إليها بخوفه مما حدث !! وقال : « لقد خشيت على نفسى يا خديجة » !! قالت خديجة : كلا والله ، لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ ، وتُقرى الضيف ، وتُؤدى الأمانة وتَصْدُق الحديث وتعين على نوائب الحق .

﴿ ليلة القدر ﴾

وهكذا كانت ليلة نزول القرآن .. أول لقاء بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام .. لقاء فى الغار الذى طالما تعبّد فيه الرسول ﷺ وتأمل ..

لقاء بين كلام الله وأشرف خلق الله .. إنها ليلة القدر ، التى جعلها الله خيراً من ألف شهر . قيامها والعبادة فيها تساوى فى الثواب أكثر من عبادة ثلاثة وثمانين عاماً . لقد كرم الله هذه الليلة تكريما عظيما لأنها هى الليلة التى بدأ فيها القرآن يمارس مهمته على الأرض . ولقد دار جدل كبير فى أن القرآن وهو كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، وكلام الله أزلى .. فكيف يقال إن القرآن قد نزل فى هذه الليلة ؟ نقول[1] : إن القرآن كلام الله أزلى موجود فى اللوح المحفوظ ، وأنه ليلة نزول جبريل نزل القرآن إلى السماء الدنيا ليمارس مهمته فى الأرض ، ونزل إلى السماء الدنيا دفعة واحدة . ثم نزل به جبريل كما شاء الله ووقتما شاء الله تثبيتا لرسول الله ﷺ، وإبلاغه للمنهج ، وطبقا للأحداث التى قدرها الله لنزول القرآن . وكان نزول الوحى الكريم بأول سورة فى القرآن الكريم هو بداية الهداية للكون كله. لقد إختار الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ رسولاً ليُبلّغ الدنيا آخر بلاغ عن الله .. بالمنهج المكتمل لمسيرة الإنسان فى الكون حتى يوم القيامة .. ومادام هذا البلاغ من الله قد جاء آخر بلاغ .. فلابد أن يكون مستوفيا

---

(١) عن الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى من كتابه محمد رسول الله

لكل ما يمكن أن يؤدى معنى الخير فى حركة الحياة بحيث لا يترك داء إلا عالجه .. ولم يأت هذا المنهج ليعالج الداءات ساعة بداية مهمته فى الأرض .. بل جاء ليعالجها إلى يوم القيامة .. ولذلك فإن القرآن الكريم معجزة وقت نزوله ... ومعجزة فى يومنا هذا .. ومعجزة للأجيال القادمة التى ستأتى بعدنا حتى قيام الساعة .

لقد وضع القرآن الكريم المبادىء التى لا يمكن أن ينصلح الكون إلا بها ، ولأن الله سبحانه وتعالى عليم لا يخفى عليه شئ ، فإنه وهو المشرّع هو وحده القادر لأن يَشَرِّع لكل زمان ومكان ، ذلك أن البشر حين يضعون تشريعاتهم يعرفون أشياء وتغيب عنهم أشياء .. ولذلك نرى القوانين البشرية تتبدل وتتغير .... ولا يمضى على القانون البشرى سنوات حتى يحتاج إلى تعديل .. لأن هناك مشكلات ظهرت لم يكن الذين وضعوا هذه القوانين منتبهين لها ... ولذلك فإن القوانين البشرية تعانى من كثرة التبديل والتغيير والإلغاء والاستحداث .

ولكن الحق سبحانه وتعالى حينما يضع قانونا لا يغيب عنه شيء ، لأنه عليم بما فى كونه عليم بما سيحدث إلى يوم القيامة .. عليم بالنفس البشرية التى خلقها ، ولذلك يأتى التشريع الإلهى صالحاً لكل زمان ومكان ، وأنه من وضع العليم القدير ، والله سبحانه وتعالى حكيم ، ولذلك فهو يضع كل شيء فى موضعه بحكمة وإقتدار .

وبدأ الدين الجديد .. وبدأ فجر الإسلام يشرق على الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان المبارك يقول الله عز وجل : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** »[1] .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٨٥ .

وقال تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر »[1] .

وقال تعالى : « حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين »[2] .

وقال تعالى : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم إلتقى الجمعان »[3] وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر .

قال إبن إسحق : وحدثنى أبو جعفر محمد بن على بن حسين أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان « إسناده جيد » .

★★★

﴿ نبذة عن الوحى ﴾

إذا كان حديثنا عن رسول الله ﷺ والوحى ، فلابد أولا أن نعرف ما هو الوحى الوحى : هو إعلام بخفاء . . أى تُعلم شخصا بشىء ولا يشعر إلا أنت وهو بأنك أعلمته .. فإذا كنت متفقا مثلا مع أهل بيتك على إشارات معينة لا يفهمها إلا أنت وهم لإحضار الطعام والشراب ، وقمت بالإشارة بحيث لم يفهمك أحد ، فإن هذا يؤدى إلى معنى الوحى .. لأنه إعلام بخفاء

---

(١) سورة القدر ١ : ٥ .

(٢) سورة الدخان ١ : ٥ .

(٣) سورة الأنفال من الآية ٤١ .

بين الموحيِ والموحَى إليه . والله سبحانه وتعالى أوحى إلى رسله جميعاً أي أن الرسالات السماوية كلها نزلت بطريق الوحى وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا** »[1] وقوله جل جلاله : « **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** »[2] .

ولكن هل إقتصر الوحى من الله على أنبيائه ورسله ؟ .. كلا فقد أوحى الله إلى الملائكة وإلى الإنسان .. وأوحى للنحل ، وأوحى للجماد كما أخبرنا القرآن الكريم .. فالوحى للملائكة جاء فى غزوة بدر ، عندما أراد الله أن يثبت المؤمنين وينصرهم فى أول معركة على أئمة الكفر فقال تعالى : « **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** »[3] .

وأوحى الله إلى أم موسى عندما أمرها أن تلقى إبنها فى البحر قال جل جلاله : « **فأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم** »[4] .

---

(١) سورة النساء آية ١٦٣ .

(٢) سورة الشعراء آية ٦٣ .

(٣) سورة الأنفال آية ١٢ .

(٤) سورة القصص آية ٧ .

وساعة يأتي الوحي من الله سبحانه وتعالى ، فإنه يسيطر على الذهن تماماً ، ولا يكون هناك موضع لفكر بشرى .. أو إستخدام العقل .. والله سبحانه وتعالى يوحي إلى أم موسى وهى خائفة على إبنها من أن يقتله فرعون حيث أمر فرعون بقتل أي طفل ذكر يولد من بنى إسرائيل .. ولو كانت إجتهادات للعقل البشرى ، ما فعلت أم موسى ذلك ، فكيف تلقى بطفل رضيع فى صندوق فى البحر لتنجيه من الموت ؟! ... وكان العقل والمنطق يقتضيان من أم موسى أن تخفى إبنها عن أعين الناس فى أى مكان .. ولكن أن تلقيه فى البحر ؟ ! فإنها تنجيه من موت مظنون لتلقيه إلى موت محقق . ولكن عندما جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى وقال الحق :

« إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن إقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل »[1] . لم تفكر أم موسى فى هذا كله ، ولكنها نفذت أمر الوحي .. ولكن بعد أن نفذت الأمر وذهب عنها الوحي أفاقت .. ولذلك أسرعت إلى أخته تطلب منها أن تتبع الصندوق وتلاحظه .. وعندما حمل الماء الصندوق إلى قصر فرعون إنزعجت أم موسى لأنها بدلاً من أن تخفى إبنها عن أعين رجال فرعون قادته إلى فرعون نفسه ، ولكن الله تعالى كانت له حكمة فى أن يرينا أنه جل جلاله بقدرته يجعل العدو وهو فرعون يربى ويحتضن من سيزيل ملكه .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوحي إلى الملائكة ، ويوحي إلى رسله ، ويوحي لمن يشاء من البشر كما أوحى إلى أم موسى ويوحي إلى الصالحين من عباده كما أوحى إلى الحواريين والحواريون ليسوا رسلاً ، ولكنهم المخلصون من أتباع عيسى ، وفى ذلك يقول الحق :

---

(١) سورة طه الآية ٢٨ وجزء من الآية ٢٩ .

« **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون** »[1] .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى النحل فى قوله : « **وأوحى ربك إلى النحل أن إتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون** »[2] .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى الجماد فى قوله : « **إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها** »[3] .

إذن فالوحى من الله ليس للأنبياء فقط ، ولكن لمن شاء الله سبحانه وتعالى أن يوحى إليه والوحى من رحمة الله بعباده .. ذلك أن الله لا يمكن أن يعطى منهجه مباشرة إلى رسله .. الطبيعة البشرية لا تحتمل إلا أن يكون ذلك رحيما ... وفى ذلك يقول الحق : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب** »[4] .

وعندما أراد موسى أن يرى ربه وقال : « **رب أرنى أنظر إليك** »[5] قال الحق : « **لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن إستقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا** »[6] وهكذا نرى أن الطبيعة البشرية وطبيعة خلق الإنسان من طين لا تجعله يحتمل نور الله .. هذا بالنسبة للحياة الدنيا .. أما فى الآخرة فيغير الله طبيعة خلقه ليعطيهم الحياة الأبدية .

---

(١) سورة المائدة الآية ١١١ .

(٢) سورة النحل ٦٨ .

(٣) سورة الزلزلة الآيات من ١: ٥ .

(٤) سورة الشورى الآية ٥١ .

(٥) سورة الأعراف من الآية ١٤٣ .

(٦) سورة الأعراف من الآية ١٤٣ .

إن محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام بشر مثلنا ، لكن الوجود لا يعرف تفاوتا بين أفراد جنس واحد ، كما يعرف ذلك في جنس الإنسان .. إن بعضهم أرقى من الأفلاك الزاهرة ... وبعضهم الآخر لا يساوى بعرة وإن كان الكل بشراً .

وذاك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بوحي .. فكيف إذا إصطفى إنسان ما ؟! وزيدت أطوار كماله المعتاد طوراً آخر تومض فيه أشعة التسديد، والتوفيق ، والإمداد ؟؟ !

« ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون »[1] .

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقا آخر .. يغاير الأطوار الستة الأولى التي مرَّ بها : سلالة الطين - فالنطفة - فالعلقة - فالمضغة - فالعظام - فالجسم المكسو باللحم .. والأنبياء بعد إتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة في أرواحهم يتحولون بشرا آخرين لا يدانيهم غيرهم أبدا في مجاده وإشراق ..

وهذا التغيير الملحوظ سرُّ تذكير الله لمحمد ﷺ بالقدرة التي خلقت الإنسان من علق . إن القدرة التي خلقت هذا الإنسان العجيب من علقة طفيلية هي التي ستنساق بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولاً بعدما كان أميا : **« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض »**[2] .

---

(١) سورة النحل : الآية : ٢ .

(٢) سورة الشورى : الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. ثم حبب إليه الخلاء .

★★★

﴿ المعنى الذى ترمز إليه أول سورة أنزلت فى القرآن ﴾

إن « **إقرأ باسم ربك الذى خلق** »(1) تنص على أن القراءة لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ولا باسم منفعة شخصية .. ولا باسم مصلحة إقليمية .. ولا بإسم غاية مادية أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة .. وإنما هى بإسم الله ، وإذا كانت بإسم الله فإنها تفيد الشخص باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه وطنا ، وتفيد المجتمع الاسلامى العام .. بل وتفيد الإنسانية جمعاء . وإذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو الله مصدر الخير والنور كانت خيراً ، وكانت نوراً فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان . وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى القراءة وحسب .. وإنما كانت القراءة رمزاً لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى .. وكل ما يدعه الإنسان فى الجانب السلبى . إن هذه الكلمة الأولى تريد أن تقول : إقرأ باسم ربك .. تحرك باسم ربك .. تكلم باسم ربك .. إعمل باسم ربك ، أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضا باسم ربك ، ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسباباً وغايات لله سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى الذى يحث

---

(1) سورة العلق 1 .

على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة باسم الله . . فإن الجانب السلبى - قد نزلت فيه - فيما بعد - آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى يقول الله تعالى : « **ولا تأكلوا مما لم يذكر إسم الله عليه وإنه لفسق** »[1] .

أما ما ذبح على النصب فلم يُرَدْ به وجه الله تعالى ، فهو أيضا فسق لأنه لم يذكر اسم الله عليه .. إذن يجب الإمتناع عنه . أما الإقدام عليه فإنه فسق يتفاوت فى درجته من الرجس زيادة ونقصانا .

وهكذا يضعنا الإسلام منذ « إقرأ باسم ربك » أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان .. وفى خضم من التقوى .. وعلى السنام من الصدق .. فما دامت الحياة كلها لله فليس هناك مجال للكذب والرياء ، والنفاق والخديعة وإرادة غير الله بالأعمال .

إقرأ والتربية :

يقول الله تعالى فى هذه الآية : « **إقرأ باسم ربك الذى خلق** »[2] .. ولم يقل : إقرأ باسم الله ، ذلك لأنه أراد سبحانه وتعالى منذ البدء أن يشير إلى أن الدستور الإلهى النازل من السماء إنما هو تربية . إنه ينزل باسم المربى ، ومادامت هذه التربية إلهية المصدر فهى إذن محكمة الإحكام كله .. كاملة فى جميع جوانبها ، وقد قال الله تعالى فيما بعد عن هذا الدستور : « **كتاب أحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير** »[3] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١ .
(٢) سورة العلق الآية ١ .
(٣) سورة هود الآية ١ .

وقال تعالى : « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** »[1] .

والتربية التامة تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق ، وجانب التشريع .

ولقد نزل الدستور الإلهى على التوالى مبينا لكل هذه الجوانب ، مفصلا لها .. ولكن الله سبحانه وتعالى بيَّن فى هذه الآية التى بين أيدينا أن هذه التربية يجب أن تتقبل دون تَشَكُّك ، أو تَرَدُّدٍ لأنها من الذى خلق .. ذلك أن الذى خلق فَكَوَّن كل خلية فى الجسم ونَسَّقها مع غيرها لِتُؤَدِّىَ ويؤدى المجموع وظائف معينة . هذا الذى فعل ذلك محيط علما بالإنسان المربِّى ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق ، وإنما هى تربية الخالق نفسه ، الذى أحاط بدقائق الخلق ، وعرف ما تحتاج إليه مخلوقاته وعرف الضار والنافع .. وعرف الخير والشر ، فتربيته إذن قيادة على علم ، وهداية على بصيرة ، وهى من أجل ذلك كله « تربية خالدة » لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة لأن الإنسان هو الإنسان أينما وجد وأينما كان .. لم يتبدل خلقا بخلق ولا تركيبا بتركيب .

إقرأ والعلم :

كانت (إقرأ) دعوة آمره إلى الثقافة .. إلى العلم .. إلى الفكر .. إلى البحث المستفيض فى السماء ، وفى الأرض .. وفى الجبال ، وفى البحار .. وفى كل ما خلق الله تعالى من كائنات صغرت أم كبرت .. إنها إقرأ بإطلاق .. إنها إقرأ دون تحديد ، ولا تقييد .. اللهم إلا أن تكون باسم الله .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢ .

ولقـد إتسم الإسـلام منذ هذه الكلمـة بالطابع العلمي كـسـمـة تجـاور السـمات الأخرى . « **وقل ربي زدني علمـا** »[1] . وذلك إحدى شعـارات المسلم .. ومـن استـوى يوماه فـهو مـغبون ! ومـن لم يكن إلى زيادة فـهـو إلى نقـصـان .. وهل يسـتـوى الذين يعلمـون والذين لا يعلمـون ؟! .. وإن مـداد العلمـاء المتقين ليوزن فى مـيزان الخير والحسنات بدم الشـهداء فـيرجح مداد العلماء ! .

إن الله سبحانه وتعالى قد إمتن علينا فى آيات كثيرة من القرآن بأنه سخّر لنا الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخّر لنا الأرض والسماء ، وما بين الأرض والسماء .. والإمتنان الإلهى بهذا معناه :

دعوة صريحة للمسلمين أن يستجيبوا إلى التوجيه الإلهى .. فيسخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة ، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة فى نفع الإنسانية .

ولكن العلم والمعرفة فى الإسلام لا يقتصران على الجانب المادى ، لأن النظرة الحديثة الإسلامية أوسع بكثير وأعمق من النظرة الحديثة الأوربية التى تقصر العلم على الجانب المادى :

إن العلم المادى : علم تسخير الكون يحث عليه الإسلام ، ولكنه لا يقف عنده ، فـغـاية المسلم تتـمـثل فى قـوله تعـالى : « **وإن إلى ربك المنتهى** »[2] . وإن « إقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى .. العلم عبـادة ، وإذا كنا - كمسلمين - مدعوين إلى تسخيـر الكون .. مأمورين بتسخيره فى سبيل الله . . وتذليله رجاء مرضاة الله .

---

(١) سورة طه الآية ١١٤ .

(٢) سورة النجم آية ٤٢ .

فنحن بهذا متجهون إلى الله غير ناظرين إلى هذا التسخير وإنما إلى الكون وبذلك يكون التسخير نفسه عبادة « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

فالسيطرة على الطبيعة فى الوضع الإسلامى الصحيح هجرة إلى الله . إنها قراءة باسمه فهى داخلة فى نطاق « إقرأ باسم ربك » وإذا قرأت باسم ربك ، فأنت عابد فى أعمالك وفى أقوالك والعلم فى الإسلام على الوضع الصحيح إذن عبادة حتى فى الجانب المادى منه .

ولا يتأتى ولن يتأتى أن يقف الإسلام عقبة فى سبيل العلم ، وأن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث . إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم إنما نشأت فى أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التى حثت الإنسانية على التعليم ، والتى ولد المنهج العلمى الذى يسمونه (المنهج الحديث) بين ربوعها ، والتى أنشأت على أساس هذا المنهج حضارة ضخمة لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة ، وما من شك فى أن الحضارة الإسلامية هى التى قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية فى كثير من المجالات المختلفة . إن المنهج العلمى الحديث فى أوربا يرجع إلى : « روجر بيكون » فهو الذى أذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ (بريفولت) فى كتابه (بناء الإنسانية) يقول عن روجر بيكون :

---

(١) من حديث البخارى باب بدء الوحى .

أنه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء العرب فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولالسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى إبتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية . ولقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد إنتشر إنتشاراً واسعاً ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا[1] .

ويقول بريفولت أيضا :

لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها ، إلا بعد مضى وقت طويل على إختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد لأوربا الحياة ، بل إن مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية[2] .

وإذا كان الإسلام هو الذى أنشأ هذا المنهج وهذا العلم فمن الطبيعى ألا يتعارض معه ، على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم : إنما هى مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، تأليف محمد إقبال ترجمة الأستاذ عباس محمود .

(٢) المصدر السابق « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » .

وذلك أن العلم دائرته : المادة والحس ، أما الدين ، فدائرته : (ما وراء الطبيعة) والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع فكيف يتعارضان ؟

إقرأ والإخلاص :

حينما سمع ورقة بن نوفل هذه الكلمة الأولى .. لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول لشخص قد تجرد لله ، ويدعوك أن تتجرد إليه سبحانه، شخص لم يطلب مالاً .. ولا جاهاً .. ولا ملكاً إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها بإسم ربها ، وأن تقوم في كيانها كله على أساس من تربية ربها .. ماذا يمكن أن تقول له ؟ أيمكن أن تقول له إنك كذاب ؟ فما هو الصدق إذن ؟! أيمكن أن تقول له : إنك منافق ، فأين هو الإخلاص ؟ إن هذه الكلمة الأولى قادت ورقة فور سماعها إلى الإيمان .

ولنكتفي هنا بهذا القدر ، فالمجال واسع في هذا الموضوع .. ولنعد إلى الحبيب المصطفى في ليلة نزول الوحي عليه وعودته إلى زوجته خديجة .

﴿ ورقة بن نوفل ﴾

فلما هدأت خديجة من روع رسول الله ﷺ .. نظرت إليه نظرة إجلال وإكبار وتبسمت في وجهه تبسم المطمئن الواثق وقالت له مُطَمئِنَة : أبشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، فأشاع كلام خديجة في نفسه الهدوء والسكينة .. وبثَّ في روحه الإستبشار، فشكر لها حسن قولها ، وطيب حديثها وأغمض عينيه ونام وقد استبشر خيراً .

وجلست خديجة تستعيد ما حدثها به زوجها .. وأخذت تفكر .. فانتابها بعض الخوف والقلق !! إلا أنها كان يغلب عليها الاستبشار بالخير فبداخلها إطمئنان وراحة فقط مشوبة بنوع خفى من قلق زوجة على زوجها .. فرأت أن تلجأ إلى إبن عمها (ورقة بن نوفل) وتستشيره لما تعرف من حكمته ، ولما تعلم من بحثه فى الأديان ، ودراساته فيها .. وكان ورقة قد تهود ، ثم تنصر، ودرس الإنجيل ، ونقل منه إلى العربية .. فلما جاءته خديجة وحكت له ما حدث .. قال ورقة بن نوفل : قدوس . . قدوس .. (أى طاهر طاهر) والذى نفس ورقة بيده ؛ لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة .. فقولى له فليثبت .

وعادت خديجة مسرعة إلى محمد ﷺ تبشره بما بشرها به ورقة بن نوفل ... وإذا بها تجده يرتجف ، وقد تفصد جبينه بالعرق ، ونال منه الجَهْد وهو يقرأ :

« يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرُّجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر »[1] .

ونظرت خديجة إليه بعطف وإشفاق وحنان ، فلما إنتهى من قراءته تقدمت منه تحنو عليه وتمسح رأسه وتسأله : ماذا رأيت وماذا سمعت ؟ فأجابها ﷺ : أتانى جبريل وحفظنى ما قرأت . فقالت له خديجة : أبشر . وأخبرته بما قاله إبن عمها ورقة ، وبما طلب منها أن تُبلغه إياه .

---

(١) سورة المدثر آية ١ : ٧ .

﴿ إسـلام خديجـة ﴾

وفى هذا اليوم المجيد أعلنت خديجة محمدا الرسول ﷺ بإسلامها وإيمانها بنبوته ، وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ .. فكان لا يسمع شيئا مما يكرهه أو تكذيب له فيحزنه ذلك إلا فَرَّج الله عنه بها .. إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس رحمها الله .

قال إبن إسحق :

وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن جعفر إبن أبى طالب رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

قال ابن هشام : القصب هنا : اللؤلؤ المجوف (حديث صحيح وإسناده جيد) .

وكان موقف خديجة هنا أشرف المواقف التى تُحمد لا مرأة فى الأولين والآخرين .. طمأنته حين قلق ، .. وأراحته حين جهد .. وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدة له : أن الأبرار أمثاله لا يُخذلون أبداً وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم الجزلة ، والمناقب السمحة فلكيما يجعله أهل إعزازه وإحسانه وبهذا الرأى الراجح والقلب الصالح استحقت خديجة أن يحييها رب العالمين فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين[1] ..

---

(١) أتى جبريل إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » عن أبى هريرة أخرجه البخارى (١٠٩/٧) ومسلم (١٣٣/٧) .

وخرج محمد ﷺ بعد أن هدأت حالته بعد مجيء الوحى إليه للمرة الثانية ، خرج يطوف بالكعبة .. فلقية ورقة بن نوفل فقال له : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت .. فلما أخبره قال : والذى نفسي بيده إنك لنبى هذه الأمة وقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتُكَذَّبن ولتُؤْذَيَنَّ ولتُخْرَجَنَّ ، ولَتُقَاتَلَن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم مال إلى رأس محمد ﷺ فقبله .

وإنصرف محمد ﷺ وهو يفكر فى تَبعَةِ الرسالة الجسيمة التى ألقيت على عاتقه ليبلغها إلى قومه ويسائل نفسه : كيف يدعوهم ؟ وكيف يرشدهم ؟ وهم المؤمنون بما هم فيه من الضلال السادرون فى غَيهِّم ، المقيمون على بهتانهم ، المشركون بربهم المُعَظِّمون لأصنامهم ؟؟ !

★★★

ولكأن الأربعين عاما السابقة يوم واحد .. وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد .. إن العقل الجوأب الباحث المستفسر أخذ يشم أنوار الحق ... والصدر المحرج المثقل بالتشاؤم والإرتياك أخذ يُحس بَرْدَ اليقين وفُسحة الأمل .. والنقلة الطارئة بعيدة المدى .. إنها النبوة ..

تقلصت ظلال الحيرة ؛ وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف محمد صلوات الله عليه معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال .. وأن ما جاءه سفير الوحى ينقل إليه خبر السماء ، إلا أن الروعة التى إنتابته من هذه الصلة بين إنسان وملك تركت فى نفسه أثرا من الجهد كأنما كان يعالج عملاً مُرهقاً صعباً !! .

﴿ فتور الوحى ﴾

ولا عجب فقد ظلّ يعانى من التنزيل شدة أمداً طويلاً . وشاء الله أن يفتر الوحى بعد ابتدائه على النحو الذى أسلفنا حتى يكون تشوف الرسول ﷺ ، وارتقابه لمجيئة سببا فى ثباته ، واحتماله عندما يعود ، ومع ذلك ، فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته .

ثم الأوامر التى تلقاها الرسول ﷺ من ربه سبحانه وتعالى (إقرأ باسم ربك) (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) كانت إيذانا للرسول ﷺ بأن الماضى قد إنتهى بمنامه وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعى اليقظة والتشمير والإنذار والإعذار ، فليحمل الرسالة ، وليوجه الناس ، وليأنس بالوحى ، وليقو على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

وإنتظر محمد ﷺ معاودة زيارة الملك له .. وطال الإنتظار وازداد الشوق واللهفة إلى مجيئة .. وإستبد به القلق ، وشاركته خديجة إحساسه وشعوره فألحّ عليها الهم كما ألحّ عليه ولكنها غالبت نفسها وجعلت تطمئنه وتهون عليه الأمر .. حتى قال أحد الكفرة ممن علموا بما جاء لمحمد ﷺ : أن رب محمد قد قلاه .. وشق الأمر على محمد ﷺ فعاد إلى غار حراء يتعبد ويسأل ربه : لم ودعه وقلاه بعد أن إصطفاه ؟! .

وفيما هو يوما برأس حراء وقد بلغ به الشوق مبلغه ظهر أمامه جبريل الأمين .. يا ألله !! كم أنت رحيم بعبدك المخلص لك المؤمن بك !! وارتجف محمد ﷺ وإرتعش وليس كما ارتجف وارتعش أول مرة خوفاً ورعباً بل ارتجف فرحا وارتعش ابتهاجاً ، ونزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ

برسالة ربه إليه بسورة الضحى يقسم بها له ربه - وهو الذى أكرمه بما أكرمه به - ما ودعه ربه وما قلاه فقال تعالى : « **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث** »[1] .

وسكنت نفس محمد ﷺ أن الله لم يَقْلُ محمداً ولم يتركه بل تولاه بعطفه وشمله برحمته وأسبغ عليه نعمته . وحمد ربه بعد أن تبددت مخاوفه وزالت هواجسه ، وشاركته زوجته خديجة هذا كله فقد تحقق لها ما كانت تريده لزوجها ووصل الله له ما ظنت أنه إنقطع ، فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد سراً إلى من يطمئن إليه من أهله .

وتتابع نزول الوحى على الرسول ﷺ يُعَلِّمُهُ آيات الله ويرشده إلى ما يجب عليه أن يفعله ويدعو به الناس .. والوحى إلهام ينضح على القلب بمراد الله فى صورة واضحة لا تحتمل الريبة .. وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض فعن عمر : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل[2] وكان أحيانا يأتى فى مثل صلصلة الجرس - وكان أشده عليه - فيلتبس به الملك حتى أن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد

---

(١) الضحى الآية ١ : ٨ .

(٢) حديث ضعيف أخرجه الترمذى (٢/١٥١-١٥٢) وذكر أن فى سنده إختلافا . ومداره على يونس بن سليم رواه عنه عبدالرازق ويونس هذا مجهول ومن طريقه أخرجه أحمد (رقم ٢٢٣) والحاكم (١/٥٣٥ ، ٢/٣٩٢) والنسائى كما نقلوا عنه وقال هذا حديث منكر لا نعلم أحداً رواه غير يونس ويونس لا نعرفه وقال الحاكم صحيح الاسناد وهذا من تساهله .

البرد[1] وحتى أن راحلته لتبرك به على الأرض إذا كان راكبها[2] وقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه الى فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها[3] . وقد يأتى أيسر من ذلك وأخف .

وربما قيل لماذا كانت أوائل الوحى بهذه المثابة من الشدة ؟ ولماذا لم يبدأ نزول القرآن إلهاماً فى منام أو إلهاما فى يقظة على نحو ما قال الرسول ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ... »[4] .

أوليس هذا أبعد عن دواعى الفزع والإعياء ؟؟

والجواب أن نزول القرآن إتخذ هذه الطريقة أول الأمر ونزل الملك به فى هذا المظهر[*] قطعاً لكل شبهة فى أنه - ألفاظاً ومعانى من عند الله ، وأن محمداً ﷺ حمله تحميلاً بعد أن أصطفى له ، فاختص به ، فهو ليس إفتعال عابد منقطع تَخَيَّل فخال ، ولا صناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة ، وتنميق المقال « **إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى**

---

(١) روى معنى هذا البخارى (١/١٤-١٧) من حديث عائشة .

(٢) أخرج معناه أحمد والحاكم (٢/٥٠٥) من حديث عائشة وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى وهو كما قال وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد عند أحمد (٦/ ٤٥٥-٤٥٨) وآخر عند رقم (٦٦٤٣) من حديث ابن عمرو .

(٣) أخرجه البخارى (٥/١٨٢) من حديث زيد بن ثابت .

(٤) صحيح جاء من طرق الأول عن ابن مسعود وأخرجه الحاكم (٢/٤) والثانى : عن أبى أمامة أخرجه الطبرانى فى لكبير وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٧/١٠/٢٧) والثالث : عن حذيفة أخرجه البزار كما فى الترغيب (٣/٧) والهيثمى فى (مجمع الزوائد) (٤/٧١) فهذه طرق يقوى بعضها بعضا .

(*) إن إتصال الأبدان بعالم الغيب يرهق الطبيعة البشرية .

ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى »[1] .

★★★

﴿ إبتداء فرض الله سبحانه وتعالى على النبى ﷺ من الصلاة وأوقاتها ﴾

قال إبن إسحق :

وحدثنى صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : « افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترض عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعاً وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين » . (حديث صحيح وإسناده جيد)

فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأ كما توضأ لها رسول الله ﷺ ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

قال ابن إسحق :

وحدثنى عتبة بن مسلم مولى بنى تيم عن نافع بن جبير بن مطعم - وكان نافع كثير الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال : « لما افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله .. ثم صلى

---

(١) سورة النجم الآية ٤ : ١٢ .

به المغـرب حين غـابت الشـمس ، ثـم صلى به العـشـاء الآخـرة حين ذهب الشـفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفـجـر . ثم جـاءه فصلى به الظهـر من غد حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غـابت الشـمس لوقتـها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مسفرا غيـر مشرق ثم قـال : يا محـمد الصلاة فـيما بين صـلاتك اليوم وصلاتك بالأمس » (حديث صـحيح وإسناده جيد)

وقـد يتـسـاءل بعض النـاس : كـيف سـجـد المسلمـون ولـم تنزل الصـلاة المفروضة بعد ؟

نقول[1] : إن السـجـود كـان مـفـروضـا فـى كـل الأديان .. بل إنه قـبل أن يخلق آدم عليه السلام ، كان السجود علامة من علامات العبادة لله سبحانه وتعالى ، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى ملائكته أن يسجدوا لآدم ساعة خلقه فقال جل جلاله : « **وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس** »[2] . والملائكة هنا سجدوا طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود وكل من فى الكون يسجد لله مصداقاً لقوله جـل جلاله : « **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً** »[3] . وكـل مخلوقات الله ساجدة مسبحة فى الدنيا والآخرة ماعدا الإنس والجن اللذين أعطوا حق الإختيار فى الحياة الدنيا وسجودهم فى الدنيا طوعا .. فإذا أخذنا قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة يوسف : « **يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** »[4] .

---

(١) الحديث عن الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى من كتاب (محمد رسول الله)

(٢) سورة البقرة اية ٣٤ .

(٣) سورة الرعد آية ١٥ .

(٤) سورة يوسف آية ٤ .

وقوله جل جلاله : « **يا مريم إقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** »[1] . نعرف أن السجود كان معروفا ومأموراً به فى كل الديانات .

★★★

« الأعمال التى كلف الله بها عباده »

شرع محمد ﷺ يكلم الناس فى الإسلام ، ويعرض عليهم الأخذ بهذا الدين الذى أرسله الله به . وسور القرآن التى نزلت بمكة تبين العقائد والأعمال التى كلف الله بها عباده وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونماءها وأول ذلك :

١ - **الوحدانية المطلقة** : فالإنسان ليس عبدا لكائن فى الأرض ، أو عنصر فى السماء .. لأن كل شىء فى السماء والأرض عبد لله يعنو لجلاله ، يذل فى ساحته ويخضع لحكمه .. وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ، ومن حق كل إمرىء أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقا آخر كبر أو صغر ، وحق على كل إمرىء أن ينكر من أقاموا أنفسهم ، أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ما سوى ذلك . ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله فى ملكوته بهذه الوحدانية التامة . ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التى يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التى تبنى بها البيوت أو ترصف بها الطرق ، وأن البشر الذين أُلهِّوا فى ديانات أخرى صُحِّحَت أوضاعهم فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم يتقدمون عنده بالطاعة ويتأخرون بالمعصية ولا شأن لهم فى خلق أو رزق .

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٣ .

٢ - **الدار الآخرة** : فهناك يوم لاشك فى قدومه يلقى الناس فيه ربهم ، فيحاسبهم حسابا دقيقا على حياتهم الأولى : « **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** »[١] .

فإما نعيم ضاحك ينعم فيه الأخيار ويستريحون ، وإما جحيم مشئوم يشقى فيه الأشرار ويكتئبون .. والنظر إلى الدار الآخرة فى كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح فى الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل فى محط قادم ، فكذلك المسلم يعلم بأن الأيام الجارية به ستقف - حتماً - لترده إلى مولاه حيث يلقى جزاء العمر ، ويجنى ما غرست يداه .

٣ - **تزكية النفس** : وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل وترك أموراً أخرى حذراً من مغبتها : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** »[٢] .

---

(١) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآيات : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

قال أكثم بن صيفى : إن ما جاء به محمد ص لو لم يكن ديناً لكان فى خلق الناس حسناً .

٤ - **حفظ كيان الجماعة المسلمة** : باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الإخوة والتعاون وذلك يقتضى نصرة المظلوم ، وإعطاء المحروم ، وتقوية الضعيف ، وفى سورة (المدثر) وهى أول سورة أمر الرسول ﷺ فيها بالبلاغ - تقرأ قول الله تبارك وتعالى : « **كل نفس بما كسبت رهينة، إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون . عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين** »[١] .

وكان أبو بكر لا يرى مستضعفا يعذب من المسلمين إلا بذل جهده وماله فى سبيل فك أسره وإنقاذه مما به ، وذلك حق الفرد على الجماعة

★ ★ ★

(١) سورة المدثر الآيات ٣٨ : ٤٨ .

﴿ الرعيل الأول ﴾

ومن الطبيعي أن يعرض رسول ﷺ - أولاً - الإسلام على ألصق الناس به من آل بيته، وأصدقائه .. وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قط في عظمة محمد عليه الصلاة والسلام وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

آمنت به خديجة وكانت أول من آمن به، ثم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ ، وهو يومئذ إبن عشر سنين وكان - كما ذكرنا سالفا - مما أنعم الله به عليه أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام .

.. ثم آمن زيد بن حارثه مولى رسول الله ﷺ ، وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب ، ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة واسمه عتيق واسم أبي قحافة : عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[١].

قال إبن إسحق : فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ورسوله .. وكان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا .. وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير

---

(١) قال ابن هشام : اسم ابى بكر عبد الله وعتيق لقب لحسن وجهه وعتقه .

واحد من الأمر ؛ لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه .. فأسلم بدعائه فيما بلغني :

١ - عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أميه بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى .

٢ - والزبير بن العوام بن خويلد بن عبد العزى بن قصى .

٣ - وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب .

٤ - وسعد بن أبي وقاص (واسم أبي وقاص مالك) بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب .

٥ - وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم .

فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا .

قال إبن إسحق : فكان هؤلاء النفر الثمانية[١] الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ وصدقوا بما جاءه من الله .

ثم أسلم :

١ - أبو عبيدة الجراح .

٢ - وأبو سلمة - واسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال .

٣ - والأرقم بن أبي الأرقم واسمه أبي الأرقم عبد مناف بن أسد ، وكان أسد يكنى : أبا جندب بن عبد الله .

---

(١) هؤلاء الخمسة وقبلهم ابو بكر وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثه بخلاف السيدة خديجة

٤ - وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافه .

٥ - ٦ - وأخواه : قدامه ، وعبد الله إبنا مظعون بن حبيب .

٧ - وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف .

٨ - وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

٩ - وامرأته فاطمة بنت الخطاب بن نفيل بن عبد العزى (أخت عمر بن الخطاب) .

١٠- وأسماء بنت أبى بكر .

١١ - وعائشه بنت أبى بكر (وهى يومئذ صغيرة) .

١٢ - وأسلمت بنات محمد رسول الله ص : رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة

١٣ - وأسلم خباب بن الأرت حليف بنى زهرة .

١٤ - وعمير بن أبى وقاص أخو سعد .

١٥ - وعبد الله بن مسعود .

١٦ - ومسعود بن القارى (وهو مسعود بن ربيعه).

١٧ - وأبو ذر الغفارى .

١٨ - وعمرو بن عنبسة .

وغيرهم كثير وكثير ... وفشا الإسلام فى مكة بين من نورّ الله قلوبهم، مع أن الإعلام به كان يقع فى إستخفاء ، ودون مظاهرة من التحمس المكشوف أو التحدى السافر ...

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما .. ولعلها حسبت محمدا ﷺ أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون فى الألوهية وحقوقها كما صنع أمية بن أبى الصلت وقس بن ساعده وعمرو بن نفيل وأشباههم ... إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره. وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام

مصيره ودعوته .

وتكاثر المسلمون يتبعون محمدا ﷺ ويعلنون إسلامهم فيما بينهم خفية من غير أن يجهر الرسول بالدعوة على ملأ قريش ويدعوهم إلى ما بعثه الله به .. بل كان المسلمون يخفون إسلامهم ، ويشيعونه سرا فيما بينهم وبين من يتوسمون فيهم الأمانة والميل إلى الحق ، ويستخفون عن عيون ذويهم والملأمن قومهم ويتخيرون الأماكن القصيّة فيتلون فيها آيات الله ، ويُحَفظّها بعضهم بعضا ، ويخرجون إلى شعاب الجبل فى سر من الناس يؤدون الصلاة ويتعلم حَديثُهم ممن سبقه إلى تعلُمها .

وما لبثت قريش أن تأكدت بما يفعل المسلمون ، فتربصوا لهم يحاولون الإطلاع على سِرِّهم وكشف ما يخفون من أمرهم .. فما لبثوا أن إطلعوا على ما يؤدون من صلاة !! وكشفوا ما ينشدون من تسابيح . عرفوا أن محمدا يدعو إلى دين لعبادة الله وحده ، وينهى عن دين الشرك بالله دين قومه .. ياللعجب!! أمحمد يتيم أبى طالب يَدعّى النبوة ، ويحض الناس على ترك دينهم والتنكر لآلهتهم ؟؟!!! أيجسر محمد أن يخرج على دين قومه ودين آبائه ؟!

وكثر الجدل .. وكثر اللغط وكثر العجب بين القوم ففريقاً رأى أن محمدا قد جُنَّ ولا شك وفريق رأى أنه قد أصيب بداء الشهرة ، والرغبة فى الظهور ، وعما قريب يخيب أمله .. فلم يأبهوا له .. وفريق حَكَّم عقله ومال إلى هذا الدين ، فسعى ليطلع عليه ، ويتزود من حكمه ثم لا يلبث أن يتبعه ويعتنقه .

وفى ذات يوم خرج أبو طالب ليتحقق من دين ابن أخيه الذى يدعو له

وكان معه إبنه جعفر .. وإذا به يجد محمدا ﷺ وهو يصلى فى شعب من شعاب مكة ، وكان عليٌ يصلى معه مستخفيا من أبيه أبى طالب، ومن جميع أعمامه .. فقال أبو طالب لمحمد ﷺ :

يا ابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟!

قال الرسول ﷺ : أى عم .. هذا دين الله ودين ملائكته .. ودين رسله .. ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا للعباد وأنت - أى عم - أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى وأحق من يجيبنى إليه .

قال أبو طالب : أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخْلَصُ إليك بشئ تكرهه ما بقيت ثم التفت أبو طالب إلى إبنه عليّ ، وقال : أى بنى ، أتعرف الدين الذى أنت عليه ؟

قال : يا أبت ، آمنت بالله ، وبرسول الله ، وصليت معه لله ، وصدَّقت ما جاء به ، قال أبو طالب : أما إنه لم يَدْعُكَ إلا إلى خير فاتَّبِعْهُ . ثم التفت إلى إبنه جعفر وقال : يا بنى صِلْ إلى جناح إبن عمك .

لم يعلن أبو طالب الإسلام وارتضى لولديه الإسلام فهل كان ذلك لحكمة يخفيها ؟!

هذا ما سوف يكشف عنه ما كان منه لقريش وما كان منه لمحمد رسول الله ﷺ .كانت قريش تسخر بالمصلين إذا صلوا وتهزأ بهم إذا ركعوا .. وتضحك منهم إذا سجدوا وزاد ذلك منهم وكثر ، فاتخذ منه صعاليكهم وسفهاؤهم مادة لهو وضحك ، فكانوا يخرجون إلى شعاب مكة حيث يصلى

المسلمون صلاة الضحى وصلاة العصر ، فيعيبونهم ويتغامزون ، ثم ينفجرون ضاحكين !! فكان من ذلك أن إشتبك الفريقان يوما فى عراك ، ضرب فيه سعد بن أبى وقاص أحد المشركين ، فشجَّ رأسه ، فسال منه الدم ، وكان ذلك أول دم أريق فى الإسلام وللإسلام . ولكى يَبْعُدَ المسلمون من شر المشركين كان محمد ﷺ يستخفى بأتباعه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم إذا ما أراد أن يتلو عليهم قرآنا نزل ، أو يطلعهم على وحى جديد .

ومضى على بعث محمد ﷺ ثلاث سنين استمرت فيها الدعوة سرية وبعدها لم يعد سراً أن محمدا يدعو إلى دين جديد .. ولم يعد خافيا أن محمدا ﷺ قَوِيَ وكَثُرَ أتباعه ... فأمره الله جل جلال أن يجهر بالدعوة .. وأن يُظهر ما يخفى من أمره قال تعالى : « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** »(١) وقال تعالى :« **وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن إتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون**»(٢).

﴿ دعوة الرسول ﷺ إلى عشيرته الاقربين ﴾

« **وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم** »(٣) . أمر إلهى صدر إلى رسوله ﷺ .. وصدع الرسول لأمر ربه واعتكف فى داره أياما يدبر ما يبدأ به آله

---

(١) سورة الحجر آيه ٩٤ (٢) سورة الشعراء ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦

(٣) سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ إلى : ٢٢

وعشيرته .. ويفكر فيما يفعل ووصل خبر اعتكافه وانقطاعه فى داره إلى بعض من عماته وقريباته ، فجئن إليه يَعُدْنَهُ وقد خشين أن يكون قد ألمَّ به مرض أو حدث له حدث . فلما جئنه واستفسرن عن حاله وعن سبب إعتكافه قال لهن : ما اشتكيت شيئا ، ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين .. وأنا أتدبر فيما أفعل وأفكر فى أن أدعوهم إلى دارى ، وأنذرهم بما أمرنى ربى أن أنذرهم به .

فقلن له : فادعهم ، ولكن لا تدع عمك عبد العزى (يعنين أبا لهب) فيمن تدعو ، فإنه غير مجيبك إلى ما تحب .

وبادر محمد ﷺ فدعا آله وذويه إلى طعام أعده لهم فى داره ، ودعا عمه أبا لهب فيهم رغم تحذير عماته . ورغم ما يعلمه هو من شدة بأس عمه أبى لهب عليه ومناهضته له فحضروا جمعيا وكانوا خمسة وأربعين رجلا . واجتمع إلى طعام محمد ﷺ عدد كبير من أعمامه وبنى عمومته وأقاربه يأكلون .. وجلس محمد صلوات الله عليه ينتظر فراغهم من تناول الطعام فيحدثهم بما دعاهم من أجله ، ويدعوهم إلى ما أمره به ربه ، ولكن عمه أبا لهب وجد فى هذه الدعوة فرصة مواتية له يراجع فيها محمدا ﷺ ويرده عن صبأته التى صبأها على دين أبائه وينهاه ويحذره على مسمع من آله وذويه أجمعين فبادره بقوله : يا محمد هؤلاء هم عمومتك وبنوعمك فتكلم بما يريدون منك ، وارجع عن الصبأة التى صبأتها على دين آبائك ، والخَرْجَة التى خرجت بها من دينك إلى دين أخر ، فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بَشرٍّ مما جئتهم به ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وإن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك إن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك أبناء قريش وتُحالفهم العرب على ذلك . وحاول محمد ﷺ أن يتكلم، وأن يبين لهم الحق الذى جاءهم به ، ويُبَصِّرهم بالسوء الذى هم

عليـه .. ولكـن أبا لهب هَبَّ مـقـاطعاً له يثـير الحاضـرين عليـه قـائلا : هذه والله هي السـوأة، خـذوا على يديه قـبل أن يأخـذ على يديه غـيـركم، فـإن أسلمتموه حينئذٍ ذللتم ، وإن منعتموه قُتِلْتُمْ .. فانبرت صفية عمة الرسول ﷺ وكـانت من الحـاضـرين تقـول لأبي لهب : أي أخي أيحـسن بك خـذلان ابن أخيك؟ فـو الله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضِئْضِئ (أصل) عبد المطلب نبي فهو هو !

فقـال أبو لهب هازئا من قـولها : هذا البـاطل أمانيُّ النسـاء في الحِجَالِ .. فـإذا مـا قـامت قـريش علينا وقـامت معـها قبـائل العرب فـمـا قـوتنا بهم؟! والله مـا نحن عندهم إلا أَكَلَةُ رأس (أي عـددنـا قليـل) فـقـال أبو طـالب : لَنَمْنَعَنَّهُ ما بقينا .

حنيـئـذ أهاب أبو لهب بالحـاضـرين أن ينفـضـوا ، فـانـصـرفـوا دون أن يتحدث إليهم محمد ﷺ بما كان يريد أن يتحدث به .

وأعاد الرسول ﷺ الكَرَّةَ ... فدعا آله وعشيرته إلى طعام جديد ثم قام يحدثهم بما جـاءه من ربه وكان من قـوله لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا مـاكذبتكم ولو غـررت الناس جميعاما غـررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسـول الله اليكم ومـا أعلم أحداً في العـرب جـاء قـومـه بأفـضل مما جئتكم به : لقد جئـتكم بخـيـر الدنيـا والآخرة ، وقـد أمـرني ربي أن أدعـوكم إليـه، فـأيكم يؤازرني على هذا الأمـر ، وأن يـكـون أخي ووصيٌّ وخليفتي فيكم ؟

وسكـت الرسـول ﷺ ... وأخـذ يتـصـفـح وجـوه ذويه ليـرى من منهم مـال

قلبـه للإيمان ومن منهم تفـتح صـدره للإسـلام ؟ .. ومـن منهـم سـيـؤازره ؟ .. ولكن لم يؤازر مـحـمـداًﷺ فى دعـوته أحـد من آله الذين جـمـعـهـم ، ولم يستجب له واحد منهم !! بل حملق بعضهم بعيونهم إليه دون أن ينطقوا لفظا واحدا .. وأعـرض بعض آخر ، وولُّوا بوجوههم عنه ، وقد هَمُّوا بالانصراف من مجلسه وتركه ! ... وفى وسط هذا الوجوم ، وهذا الإعـراض هَبَّ غلام حدث لم يبلغ الحُلم بعد ، يجيب محمداًﷺ إلى دعوته ويرد عليـه : أنا يا رسـول الله مُسـاعـدك وشادٌ أزرك، فـضـج أكـثـر الحـاضـرين بالضـحك، ونظر بعضهم إلى أبى طالب وهم يقولون له هازئين ساخرين :

أتتبع ابن أخيك محمدا، أم تتبع إبنك عليا ؟!!

فقال أبو طالب : ما أحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك .. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم لما تحب فامض لما أمرت به .. فو الله لا أزال أحوطك ، وأمنعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

..

وانفض الإجـتـمـاع الثـانى ، ولم يجب أحـد من الحـاضـرين مـحـمـداًﷺ ولكنه لم ييأس واستمر فى الجهر بدعوته .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت الآية «وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبى صلوات الله وسلامه عليه على الصفا فجعل ينادى :

« يا بنى فـهر .. يا بنى عـدى » - لبطون قـريش - حتى اجـتـمـعـوا ، فـجعل الذى لم يسـتطع أن يخرج يرسل رسـولا لينظر مـا الخبـر ؟ فـجـاء أبو لهب وقريش فقال النبى ﷺ :

« أرايتم لو أخبـرتكم أن خـيـلا بالوادى تريد أن تغـيـر عليكم ، أكنتم مصدقى» ؟

قالوا : ما جربنا عليك كذبا

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم .. ألهذا جمعتنا ؟

وأُرْتِجَ على محمد ﷺ، ونظر إلى عمه نظرة المستعطف الذى يرجو أن يَكُفَّ عنه ليستطيع أن يخطب الناس ، ويدعوهم إلى دين الحق ، ويبلغهم رسالة ربه اليهم ، ولكن أبا لهب لم يُمَكِّنه من ذلك ، بل إشتد عليه واغلظ له وبالغ فى مخاشنته وحينئذ نزل جبريل على محمد ﷺ يعرفه مصير أبى لهب الذى أعده الله له ويوحى إليه : « **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب** [1] (البخارى (٤٠٦/٨) ومسلم (١٤٣/١)) .

وعن أبى هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : « يا معشر قريش إشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا.. يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا .. يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا .. يا صفيه عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا .. يا فاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت فى مالى لا أغنى عنك من الله شيئا »[2] .

هذه الصيحة العالية هى غايه البلاغ .. فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم ، وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله .

---

(١) سورة المسد آيه ١:٣

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٠٨/٨) ومسلم (١٣٣/١) من طريقين عن أبى هريرة

لقد كان محمد ﷺ كبير المنزلة فى بلده مرموقاً بالثقة والمحبة.. وها هو يواجه مكة بما تكره ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء ، وأول قوم يغامر بخسران مودتهم هم عشيرته الأقربون .. لكن هذه الآلام تهون فى سبيل الحق الذى شرح الله به صدره ، فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار ومكة تموج بالغرابة والإستنكار ، وتستعد لحسم هذه الثورة التى إندلعت فجأة ويُخشى أن تأتى على تقاليدها وموروثاتها .

وصارت مكة تموج فى أقاويل شتى فمن قائل : إن فتى عبد المطلب يُكَلَّمُ من السماء.. ومن قائل : لماذا لا يدع من يكلمه يكلمنا ؟ ...

ومَرَّ وقت من الزمن ومحمد ﷺ يجتمع بأتباعه فى داره أو فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يتلو عليهم ما يُنزِّل الله عليه من الآيات .. ويستعيدها للأميين منهم حتى ترسخ فى أذهانهم ويحفظوها عن ظهر قلب ، أما من لهم إلمام بالقراءة والكتابة فكانوا يكتبونها ثم يحفظونها بعد ذلك.. ويُحَفِّظونها لآلهم ولكل من رغب فى دخول الإسلام وشرح الله صدره للإيمان .

نبذة عن أبى طالب :

إن أبا طالب - برغم بقائه على الشرك وتمسكه بدين الآباء - ظل حى العاطفة، ظاهر الحدب على أبن أخيه ، وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته .. بيد أن إعزازه لمحمد ﷺ ، وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له ، بل على التعهد بحمايته وهو يبلغ عن ربه .

وأبو طالب من رجالات مكة المعدودين .. كان معظماً فى أهله ، معظماً بين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته .. وكان بقاؤه مع أهل مكة محترما للأوثان - من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه .

أما أبو لهب : فصورة لأرباب الأسر المتهالكين على مصالحهم ، وسمعتهم من غير نظر إلى حق أو باطل . فأى عمل يُعرِّض مصالحه للبوار أو يخدش ما لإسمه من منزله يهيج ثائرته ، ويدفعه لإقتراف الحماقات ! وفى طبيعة أبى لهب قسوة تغريه باقتراف الدنايا ! كان أبناؤه متزوجين ببنات رسول الله ﷺ، فأمرهم بفراقهن ! فطلق عتبه وعتيبه رقية وأم كلثوم ولعل أبا لهب كان متأثرا فى هذه البغضاء بزوجته أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان وهى إمراة سليطه ، تؤزها على كراهية محمد ﷺ ودينه علل شتى ولذلك بسطت فيه لسانها ، وأطالت عليه الإفتراء والدَّس .

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفع عم الرسول ﷺ إلى الإغلاظ معه على هذا النحو الوضيع ، فكيف يكون مسلك الأباعد الذين يتمنون العثار للسليم والتهمة للبرئ ؟!! لكن ما أبو لهب ؟ .. وما قريش ؟ .. وما العرب ؟ .. وما الدنيا كلها ؟ بإزاء رجل يحمل رسالة من الله الذى له ملك السموات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فقد رشده ؟! وأن يمحو بها الأوهام فى حياة مرغتها الأوهام فى الرغام .. ما تُجْدى وقفة جهول ، أو غضبة مغرور فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى إلى هدفها البعيد ؟؟
إن الطحالب العائمة لا توقف السفن الماخرة .، ولئن نَقَمَ الجاهليون على المسلمين مروقهم من بين قومهم بهذه الدعوة – حتى ليسمونهم الصباة – فإن المسلمين لأشد نقمة عليهم أن سفهوا أنفسهم ، وحقروا عقولهم ، وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان .

إن الدعوة التى بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة .. لم تكن لبناء وطن صغير بل كانت إنشاءً جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتندفع به فى رحاب الأرض إلى أن تنتهى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء .

فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها ؟ ومن أولئك الخصوم ؟ متعصبون تحجرت عقولهم .. تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم « **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله ...** »[1] .أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية، وصياح منكر عندما تقرأ الآيات حتى لا تُسمع فتفهم فتترك أثرا في عقل نقي وقلب طيب « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**»[2] .لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد ﷺ حتى يبحثوا أمره، ويمحصوا رسالته ، ويزنوا - على مهل - مالديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل ، ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعدما إنكشفت جريمته وثبتت إدانته .

وقد حزن رسول الله ﷺ لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدي ، ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألفى نفسه مُكَذَّباً مهجورا .. إلا أن الله واساه ، فأبان له بواطن أولئك المكذبين المتألبين : « **قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** »[3].

ومن ثم فعلى محمد ﷺ أن يمضي في سبيل البلاغ وأن يجتاز ما يلقى أمامه من صعاب وعقبات ... وعلى المؤمنين برسالته أن يثبتوا وليس ثباتهم

---

(١) سورة يونس من الآية ١٥

(٢) سورة فصلت الآية ٢٦

(٣) سورة الأنعام الآيه ٣٣ .

لمصلحتـهم الخاصـة فـقط ، ولا حق الإيمان عليـهم وكـفى ، بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة .. إن البنيان الشامخ الذرى لا يرتكز على سطح الأرض ، إنما يرتكز على دعائم غائرة فى الثرى .. هى التى تحمل ثقله وترفع عمده وقد كان أصحاب محمد ﷺ الأولون - بصلابة يقينهم وروعة استمساكهم - دعائم رسالته وأصول امتدادها من بَعْد فى المشارق والمغارب .

★★★

﴿ مرحلة الاضطهاد ﴾

وبدأت الحرب بين الحق والباطل ، وأحست قريش بالخطر .. لقد اختار الله سبحانه وتعالى بيته الكريم فى مكة لتبدأ منه صيحة الحق .. ولتبدأ فى آذان سادة العرب لأن قريشا كانت لها السيادة فى الجزيرة العربية .. فى مكة بيت الله الذى يحج اليه الجميع ولذلك كانت القبائل تتحاشى أن تتعرض لقريش لأنها تعلم أنهم حينما يحجون سيكونون تحت رحمة قريش فيحسبون لذلك ألف حساب ، بدأت صيحة الإسلام فى آذان سادة العرب لتنهرهم .. وليعلموا أن الحق سبحانه وتعالى عندما يريد أن ينزل دينه إلى الأرض يجعل الصرخة الأولى للإيمان فى آذان السادة من قريش حتى لا يقال إنهم قوم ضعفاء إلتفوا حول الرسول .. ولكن الصرخة الأولى كانت فى آذان أقوى الأقوياء تهزهم هزاً ، ولكن الإسلام لم يحقق النصر فى مكة ، ولكنه حققه فى المدينة حتى لا يقال إن قريشا سادة العرب انتصرت لواحد من أبنائها .. ولكن ليعرف الجميع أن الله هو الذى نصر دينه بدون أرضية .. وأن محمدا ﷺ أخذ العزة بدين الله ولم يأخذها بأسباب البشر . بيد أن المشركين قرروا ألا يألوا جهدا فى محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه .. والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام . . ومنذ جهر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله وأعلن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم إنفجرت مكة بمشاعر الغضب .

ففى يوم مَرَّ عليهم رسول الله ﷺ بالكعبة ، ورآهم يسجدون للأصنام ، فلم يملك إلا أن قال يردهم عما يفعلون ، ويُبَصِّرهُمْ بشر ما يتبعون :

« يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم ، وأغضبتم الله بعبادتكم هذه الأصنام البغيضة تشركونها به »

فاستنكر المشركون قول محمد وقالوا يحاجونه : إنما نعبد الأصنام حبا لله لتقربنا إليه .

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »

فغضبوا وسخطوا وقال بعضهم لبعض : إلى متى نسكت على هذا الرجل ؟! لقد صبرنا عليه حتى تجرأعلينا فعاب آلهتنا ، وسَفَّهَ عقولنا ، وضلل آباءنا .. فو الله لا نسكت عليه بعد الآن أبدا .

وتفرق الجمع والغضب يملأ صدورهم ويُعمى بصيرتهم ولا حديث لهم إلا عن محمد يهددونه ويتوعدونه ويضمرون له السوء والأذى .

وظلت هذه المشاعر عشرة أعوام تَعُدُّ المسلمين عصاه ثائرين .. فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم .. واستباحت فى الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم !! وجعلت مقامهم تحملا للضيم وتوقعا للويل !! ..وصاحب هذه السخائم المشتعله حرب من السخرية والتحقير قُصد بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرَمَى النبى ﷺ وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفيهة .. وتألفت جماعة للإستهزاء بالإسلام ورجاله على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتا لازعة ، وصورا مضحكة للحط من مكانتهم لدى الجماهير .

وبهـذين اللونين من العـداوة وقع المسلمـون بين شـقى الرحى فـرسـولهم يُنادىَ بالجـنون وقـالوا: « **يا أيهـا الذى نـزل عليـه الذكـر إنك لمجنـون** »[1].

ويوصم بالسحـر والكذب : « **وعـجـبـوا أن جـاءهـم منذر منهـم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب** »[2].

ويُشَيّعُ ويستقبل بنظرات ملتهمة ناقمة وعواطف منفعلة هائجة : «**وإن يكاد الذين كفـروا ليـزلقـونك بأبصارهم لما سمـعـوا الذكر ويقولون إنه لمجنـون** »[3].

وليس حظ سـائر المسلمين بأفـضل من هذه المعـاملة فـهـم - فى غـدوهم ورواحهم - محل التندر واللمز « **إن الذين أجرمـوا كانـوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مـروا بهم يتغـامـزون وإذا انقلبـوا إلى أهلهم إنقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين** »[4].

وانقلبت هذه الحرب إلى تنكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من المؤمنين ، فمن ليست له عصبية تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شئ بل يُحـبس على الآلام حـتى يكفـر أو يموت أو يسـقط إعـيـاء .. ! واحـتـمل المسلمون فى سبيل دينهم أذى ما كان يخطر على بال إنسان .

---

(١) سورة الحجر : الأيه : ٦

(٢) سورة ص : الأيه : ٤

(٣) سورة ن و القلم : الآيه ٥١

(٤) سورة المطففين : الآيات : ٢٩ . ٣٠ . ٣١ . ٣٢ . ٣٣

﴿ ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة ﴾

فهذا عمار بن ياسر :

وهو من السابقين الأولين فى الإسلام وكان مولى لبنى مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها .. ومرّ بهم رسول الله ﷺ يوما وهم يعذبون فقال : « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

فمات ياسر فى العذاب ، وأغلظت إمرأته (سمية) القول لأبى جهل فطعنها فى قبلها بحربة فى يديه فماتت ! وهى أول شهيدة فى الإسلام وشددوا العذاب على عمار .. بالحر تارة وبوضع الصخر الملتهب على صدره أخرى !! وبالتغريق أخرى ويقولون له : لن نتركك حتى تسب محمدا أو تقول فى اللات والعزى خيرا .. ففعل .. فتركوه .. فأتى النبى ﷺ يبكى وينتحب

فقال : ما وراءك ؟

قال : شر يا رسول الله كان الأمر كذا وكذا .

قال رسول الله ﷺ : فكيف تجد قلبك ؟

قال : أجده مطمئنا بالإيمان .

فقال : يا عمار إن عادوا فعد

فأنزل الله تعالى : « **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** »[2]

(أخرجة الحاكم (٢/٣٥٧) عن أبى عبيده)

وقد حضر عمار المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن اسحق فى السيرة (١/٢٠٣) ووصله الحاكم (٣/٣٨٨-٣٨٩) والطبرانى فى الأوسط كما فى المجمع (٩/٢٩٣) عن جابر بن عبد الله وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) سورة النحل من الأيه : ١٠٦

وهذا بلال بن رباح :

ومن هؤلاء بلال بن رباح ، كان سيده أميه بن خلف - إذا حميت الشمس وقت الظهيرة - يقلبه على الرمال الملتهبة ظهرا لبطن ، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول :

لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فما يزيد بلال عن ترديد أحد ..أحد .. واشتراه أبو بكر من أمية وأعتقه وأعتق معه ست رقاب : عامر بن فهيرة وأم عبيس ، وزنيرة وأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .. فقالت : كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .. فَرَدَّ الله بصرها وأعتق النهدية وابنتها ، وكانتا لا مرأة من بنى عبد الدار : فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : حل يا أم فلان فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال : فبكم هما ؟ قالت بكذا وكذا .. قال : قد أخذتهما وهما حرتان .. أرجعا إليها طحينها ، قالت : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما ومر بجارية بنى مؤمل وكانت مسلمة وكان عمر بن الخطاب يعذبها فابتاعها وأعتقها .

وهذا خباب بن الأرت :

ولما إشتدت ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب خباب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ يستنجد به قال خباب : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده فى ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ .. فقال : « قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسة فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه .. والله لَيَتِمَّن الله

تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله ولكنكم تستعجلون ولقد عذبه قومه حتى أنهم أداروا رأسه فأصبح به عاهه وأى عاهه ، ولم يترك دين الله بعد أن هداه الله إليه .

وهذا صهيب بن سنان الرومى ، وعامر بن فهيرة .. وحتى النساء لم يسلمن أمثال لبينه جارية بنى مؤمل بن حبيب ، وأم عنيس ... وماذا عسى يفعل محمد ﷺ لأولئك البائسين إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد منهم . . إنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه هو . . فإنه لم يسلم من أذاهم ، فقد كانوا يضعون الشوك والقذر فى طريقه ، ويلقون على رأسه التراب وهو ساجد لله !! بل خنقه عقبه بن أبى معيط حتى كادت نفسه تفيض لولا أن تداركته رحمة الله فأرسلت أبا بكر يخلصه منه ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟؟!

إن محمدا ﷺ لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل .. إنه أزاح الغشاوة عن الأعين ، فأبصرت الحق الذى حجبت عنه دهرا .. ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذى فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه .. إنه وَصَّل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق وكانوا - قبلا - حيارى محسورين ، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائله ،، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم ، فازدروا الأوثان المنحوته ، وتوجهوا للذى فطر السموات والأرض .

حَسْبُ محمد ﷺ أن قدم هذا الخير الجزيل .. وحَسْبُ أصحابه أن ساقته العناية لهم ، فإذا أوذوا ، فليحتسبوا ، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلى غبارها يوما ، ثم تتكشف عن شهداء وعن هلكى ، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله .

« وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون»[1].

وكان رسول الله ﷺ يبث عناصر الثقة فى قلوب رجاله ، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب فى إنتصار الإسلام وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاه أمام طلائعه المظفره فى المشارق والمغارب.. وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم، كان الأسود بن المطلب وجلساؤه - إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ - يتغامزون بهم ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر ثم يصفقون ويصفرون .

★★★

« إيمان المسلمين الأوائل »

ونحن نتساءل لماذا ترك الحق المسلمين الأوائل يواجهون هذا التعذيب ؟! ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرا من أول يوم أن يعز دينه ؟ وأن يوقف إيذاء الكفار عن المؤمنين برسول الله .. لماذا إختار الله سبحانه وتعالى ذلك الرسول اليتيم الأمى ليحمل الدين الخاتم إلى الدنيا كلها ؟ .. ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرا على أن ينزل رسالته على أحد كبار زعماء القبائل فى مكة أصحاب النفوذ والسلطان ألم يكن هذا ممكنا ؟ .. وكان فى هذه الحالة سيكون عدد المؤمنين كبيرا ، وتكون الدعوة أسهل فى انتشارها ، وفى عدد المؤمنين بها وتكون مقاومة الدعوة أقل .. لقد تمنى الكفار ذلك وينقل الحق

---

(١) سورة هود : الأيات ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣

سبحانه وتعالى الصورة لنا فيقول : « **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** »[1].

أى أنهم تمنوا أن ينزل القرآن على أحد أصحاب النفوذ والسلطان .

نقول إن الحق سبحانه وتعالى أراد لدينه بداية الإيمان الحقيقى .. أراد مؤمنين بهذا الدين لا يرجون ولا يطلبون إلا الجنة .. ولا يكون دخولهم فى الإسلام طمعا فى مغنم دنيوى .. فهؤلاء المسلمون الأوائل هم الذين إختصهم الله سبحانه وتعالى بحمل الرسالة إلى الدينا كلها .. ولو أنهم دخلوا الدين عن إيمان غير حقيقى لا نحرفوا بالإسلام وتعاليمه من أجل الدنيا .. ولكن ربهم أراد لهم أن يكون إيمانهم ملء القلب لا تهزه الدنيا كلها ، ولو أن هذا الدين نزل على رجل من سادة مكة ، لدخل الناس إلى الإسلام نفاقا ورياء وطلبا للدنيا .. تماما كما يلتف المنافقون حول الحاكم ذى النفوذ والسلطان لتحقيق منافعهم الشخصية .. فإذا زال السلطان عنه إنفضوا من حوله .

ولو أن الإسلام بدأ باجتذاب المنافقين والباحثين عن الدنيا لا نتهى بمجرد زوال الدنيا عن صاحب الدعوة .. ولكن الإسلام لابد أن يبدأ بقلوب يملؤها نور الله .. يُعَذَّبُ الواحد منهم فلا يترك دينه .. ويُقتل وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .. ويعادونه فى ماله ورزقه ويعذبونه ويرى أهوالا كثيرة فوق احتمال البشر !! ولكنه لا يتزحزح عن إيمانه لذلك كان المؤمنون الأوائل لا يريدون إلا الجنة ، ولا يؤثر فيهم العذاب ، ولا تؤثر فيهم أسباب الدنيا لأن إيمانهم أقوى من الدنيا كلها ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : «**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** »[2] ولذلك نجد أن صهيبا

---

(١) الزخرف أيه ٣١

(٢) آل عمران آيه ١٤٢

الرومى عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة طلبوا منه أن يترك أمواله كلها فى مكة ، فلم يتردد .. وعندما علم رسول الله ﷺ بالقصة قال : ربح البيع ربح البيع .

والإسلام جاء ليبنى الإنسان من الداخل بناءً صلبا إيمانيا[1] .. لماذا ؟ لأن الإنسان هو سيد الكون فإذا أحسن بناؤه ساد العالم وإذا أسئ بناؤه لا تقوم له حضارة .. وهذا صحيح حتى يومنا هذا.. وسيبقى صحيحا إلى يوم القيامة، فإذا نظرنا فى العصر الحديث إلى دولة كاليابان نجد أنها من أغنى دول العالم ، وأكثرها تقدما فى الصناعة مع أنه لا توجد مواد خام فى اليابان يمكن أن تقوم عليها أية صناعة .. بينما هناك دول أخرى تملك كل مقومات الصناعة من موادخام وموارد طبيعية . ومع ذلك لم تقم فيها صناعة واحدة .. وهناك دول فيها من الأراضى الزراعية ما يكفى لتطعم العالم كله.. ولكنها تعانى مجاعة وقحطا، وتستورد الطعام من الخارج .

إذن فالمؤثر فى الحضارة الإنسانية هو الإنسان إن صلح صلح كل شئ .. وإن فسد فسد كل شئ ومن هنا فإن الإسلام حرص على أن يُبنى الإنسان المسلم البناء الإيمانى القوى الذى يجعله سيد هذه الأرض.. ولذلك ما تمسك المسلمون بدينهم إلا وزادوا رفعة وتقدماً وحضارة وما ترك المسلمون دينهم إلا وزادوا تخلفا وضعفاً ! . . ومن هنا كانت أهمية بناء الإنسان المسلم فى الأيام الأولى للدعوة نموذجا لذلك الإنسان الذى قهر الدنيا ولا تستطيع الدنيا أن تهزه مهما لاقى من صعاب .. لأنه لا يريد منها شيئا ولذلك عندما ذهب خالد بن الوليد إلى حرب الفرس - بعد انتشار الإسلام - قال : أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة .

هكذا كان المسلمون الأوائل .. أعينهم على الآخرة ، وكانوا حملة الدعوة إلى

---

(١) عن الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى عن كتابه محمد رسول الله

العالم كله ، فكانوا المثل والقدوة التى دفعت الناس إلى الدخول فى الإسلام .. فالمبشر بالدين لابد وأن يكون قدوة وإلا فإن أحدا لا يستمع إليه ، وهذا ينطبق على الدين وحده ولا ينطبق على علوم الدنيا كلها فالناس يأخذون العلم عن عالم كيمياء فاسق أو طبيب لا يلتزم بخلق كريم.. وأى عالم دنيوى يستهين بالقيم .. ولكنهم لا يأخذون دينهم إلا عن عالم يتمسك بمنهج الدين ، وبالسلوك الحسن وينصرفون عنه إذا كان فى سلوكه ما يشين .

★★★

﴿ محاولة منع الوافدين إلى مكة من الاستماع إلى دعوة محمد ﷺ ﴾

وتواصى المشركون بعد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنعوا الوافدين إلى مكة من الإستماع إليها ، قال الوليد بن المغيرة لرجالات قريش : إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف فيه أقوالكم يقول هذا: ساحر ، ويقول هذا : مجنون ، ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا شاعر وليس يشبه واحدا مما يقولون .. ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر لأنه يفرق بين المرء وزوجه وأخيه ، وقد اقتسم هؤلاء المتآمرون مداخل مكة أيام الموسم يحذرون القادمين من الداعية الخارج على قومه وينعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق . ولكن الرسول ﷺ كان يذهب إلى الحجيج فى مجامعهم ويحدثهم عن الإسلام ، ويطلب منهم النصرة .

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله ص يعرض نفسه بالموقف فيقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟. فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى »[1].

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٢٧٨/٢) والترمذى(٥٧/٤) وابن ماجه (٧٨/١) باسناد صحيح عنه .

﴿ الترغيب والترهيب ﴾

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الإستجابة لداعى الله وظنوا أن وسائل السخرية والتهكم التى جنحوا إليها ستهد قوى المسلمين المعنوى ، فيتوارون خجلا من دينهم ، ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم .. غير أن ظنونهم سقطت جميعا ، فإن أحدا من المسلمين لم يرتد عن الحق الذى شرفه الله به .. بل كان المسلمون يتزايدون ، ولم تفلح طرق الاستهزاء فى الصد عن سبيل الله ، أو تشويه معالمها ... إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرات ومخاز تستحق الفضيحة والإستئصال : « **قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخذيه ويحل عليه عذاب مقيم**»[1].

رأت قريش أن تجرب أسلوبا آخر تجمع فيه بين الترغيب والترهيب فلترسل إلى محمد ﷺ تعرض عليه من الدنيا ما يشاء ، ولترسل إلى عمه أبى طالب الذى يحميه تُحذِّره مغبة هذا التأييد حتى يكلم هو الآخر محمدا أن يسكت فلا يجر المتاعب على كافله ووليه .

﴿ مفاوضة عتبة بن ربيعة ﴾

أرسلت قريش (عتبة بن ربيعه) وهو رجل رزين هادئ إلى رسول الله ﷺ يقول له : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان والنسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم .. فاسمع منى أعرض عليك

---

(١) سورة هود : الآتيان : ٣٨ ، ٣٩

أمـورا لعلك تقبل بعضـهـا : إن كنت إنما تـريد بهـذا الأمـر مـالا جـمـعنا لك أمـوالنا حـتى تكون أكـثـرنا مـالا ، وإن كنت تريد شرفـا سـودناك علينا فـلا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك عـلينا ، وإن كـان هذا الذى يأتيك رئِيـاً تراه لا تسـتطيع رده عن نفـسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فـيـه أموالنا حتى تبرأ . فلما فرغ من قوله قال رسول الله ﷺ:

أفرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم قال : فاسمتع منى

قـال : أفعل ، فـتلا رسـول الله ﷺ صـدر سـورة فـصلت : «حم تـنـزيـل من الرحـمـن الرحـيم كـتـاب فـصلت آياتـه قـرآنا عـربيـا لقـوم يعلمـون ، بشيـرا ونذيـرا فـأعرض اكـثـرهم فـهم لا يسـمـعـون ، وقـالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعـونا إليه وفى آذاننا وقـر ومن بيننـا وبينـك حـجـاب فـاعـمـل إننا عـاملون ، قل إنما أنا بشـر مـثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فـاستـقـيمـوا إليـه واسـتـغـفـروه وويل للمـشـركين الذين لا يؤتون الزكـاة وهم بالآخرة هم كافرون »[1].

حتى وصل الى قوله تعالى : « فـإن أعرضوا فـقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »[2].

---

(١) سورة فصلت الآيات ١:٧

(٢) سورة فصلت آيه ١٣ (وهذه القصة أخرجها ابن اسحق فى المغازى (١٨٥/١) من سيرة ابن هشام بسند حسن عن محمد بن كعب القرظى مرسلا ووصله عبيد بن حميد وابو يعلى البغوى من طريق أخرى من حديث جابر كما فى تفسير ابن كثير (٤/ ٩٠-٩١) وسنده حسن) .

تخير رسول الله ﷺ هذه الآيات من الوحى المبارك ، ليعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول .

إن محمدا ﷺ يحمل كتابا من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال ، وينقذهم من خبال .. وهو - قبل غيره - مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه ، فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه ، فمحمد ﷺ ألهج الناس بالاستغفار وألزمهم للإستقامة ،، وما يطلب ملكا ولا مالا وجاها ، لقد أمكنه الله من هذا كله فعف عنه ، وترفع أن يمديده إليه ، وبسط العطاء مما سيق إليه من خيرات ، فأنفق وادياً من المال فى ساعة من نهار .. وترك الحياة غير معقب لذريته درهما .

إن عتبه باسم قريش جاء يفاوض الرسول ﷺ، ويريد منه أن يترك الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس .. ماذا تصير إليه الحياة لو أن صخرة من الأرض إنخلعت عنها وصعدت إلى دارات الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره واشعاعه ، ويحرم الوجود من ضيائه وحرارته ؟!

ألا ما أغرب هذا الطلب !! وما أجدر بصاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها .. ولذلك بعد ما استمع عتبه إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائما من فكره .. استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجعا من عاطفته «**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » «فصلت ١٣»

لقد وضع عتبه يده على جنبه ، وقام كأن الصواعق ستلاحقه .. وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمدا وشأنه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس قالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط .. والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانه ... يا معشر

قريش ... أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه .. فأعتزلوه ، فوالله ليكونن قوله الذي سمعت منه نبأ عظيم .. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم .. وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (١).

﴿ الوفد الذي ذهب إلى أبي طالب ﴾

أما عن الوفد الذي ذهب إلى عمه أبي طالب فقد كانوا جميعا من أشراف قريش منهم أبو سفيان بن حرب وعمرو بن هشام وكنيته أبو الحكم وهو المشهور بأبي جهل ، وعتبه بن ربيعه ، والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .. وغيرهم وعرضوا عليه أمرهم وقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلل آباءنا .. فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تُخَلِّيَ بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فطيب أبو طالب خاطرهم ولا ينهم في القول ، وردهم ردا جميلا . وَحَزَّ في نفس كبار المشركين ما أحرزه محمد ﷺ من النصر في دعوته وكَبُرَ عليهم ما يرون من دخول الناس تباعا في دينه .. فغضبوا لعزتهم وعزة آلهتهم التي أهينت وشمخوا لكرامتهم وكرامتها فأجمعوا على مناوشة محمد والسخرية به وبدينه ، والنيل منه ومن كل من إتبعه ، فَحرَّضوا شعراءهم وسفهاءهم على هجوه وقذفه ومنابذته ببذئ القول وفاحش العبارة وكثيرا ما كانوا يعترضون طريقه يسألونه ويستفزونه : ألستَ برسول الله ؟ إذن أطلب من ربك أن يفجر لنا من الأرض ينبوعا أعذب من زمزم ، ويجري لنا أنهارا كأنهار الشام والعراق .. ومن قائل : سلْهُ لنفسك - ما دمت نبيه - أن

---

(١) أخرجها ابن اسحق من سيرة ابن هشام بسند حسن

يجعل لك جنات وقصورا ، وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما تبتغى .. فإنا نراك تسعى فى الأسواق كما تسعى ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه .. ومن قائل : إن من يعلمك ما تقوله وتتلوه إنما هو رجل باليمامه اسمه الرحمن وإنا لا نؤمن بالرحمن أبدا... إصعد أمامنا إلى السماء وائتنا منها بكتاب نقرؤه .. ومن قائل : نعبد الملائكة وهى بنات الله ، « ولن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا أو ترسل علينا كسفا من السماء لترى ما تخوفنا به من العذاب والعقاب ». وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، قال محمد ﷺ : سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ وأنزل الله عليه :

«تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا »[1].

قالوا : يا محمد قد عرضنا ما عرضنا فلم تقبل عرضنا ، وسألناك ما سألنا فلم تستجب لنا فبذلك قد عذرنا فيك ، وحق لنا أن نتخذ بشأنك ما نرى ونستصوب .. وإنا لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وبذلك إستباحوا دم محمد ﷺ ، واستحلوا قتله ، ولكن كان يقف فى طريق ما اعتزموه من سفك دمه واستحلال قتله خوفهم من غضب عمه أبى طالب فإنه إذا غضب غضب معه بنو عبد المطلب جميعا ، وهم قوم لهم فى قريش الشرف والرياسة .ففكروا فيما يصرفون به أبا طالب عن محمد ﷺ ، أو يضمنون به سكوته عليهم أو استسلامه لهم ... وأخيرا هداهم فكرهم الأهوج وتدبيرهم الأحمق إلى أن يسيروا إلى أبى طالب بأجمل فتى من أبنائهم وأشجعهم وأقواهم فيعطوه له بديلا عن محمد ﷺ ، ليتخذه عوضا من ابن أخيه !! وعلى هذا التفكير سار إلى أبى طالب نفر من أشراف قريش يصحبون معهم أحد بنيهم (عمارة بن الوليد بن المغيرة) حتى إذا

---

(١) سوررة الفرقان : الايه : ١٠

أتوا أبا طالب قالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد وأشد وأقوى وأجمل فتى فى قريش فهو لك تتخذه لك ولدا .. ولك عقله ونصره ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وَفَرَّق جماعة قومك فنقتله .. فإنما هو رجل برجل . ودار أبو طالب بعينيه فى وجوه المتكلمين مأخوذا متعجبا من قولهم هذا الذى جاءوا به وقال لهم : والله لبئس ما تسومونني .. أتعطونى إبنكم أغذوه لكم وأعطيكم إبنى تقتلونه ؟؟ هذا والله مالا يكون أبداً . فقال له المطعم بن عدى وكان رجلا ذا مكانة فى قومه: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا !!

فقال أبو طالب : والله ما أنصفونى .. ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك . فقال القوم : والله ما ظلمناك ولا ظلمنا ابن أخيك لقد إسْتَنْهَيْنَاكَ من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإننا لا نصبر بعد الآن على عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا ، وشتم آبائنا حتى تَكُفُّهُ عنا أو نُنازله وإياك وكل من يتبعكما فى ذلك حتى نُهْلَك أو تُهْلَكوا .

وانصرف القوم عن أبى طالب وبقى هو وقد حَزَبَهُ الأمر ، وإشتد به الحزن ... وعظم عليه ماجابهه به قومه وعشيرته ، عَزَّ عليه فراق قومه وعدواتهم ، وكَبُرَ عليه خذلان إبن أخيه وأخذ يفكر ماذا يفعل .. وماذا يقرر؟ أيسلم إبن أخيه إلى أعدائه ؟ أم يحميه ويمنعه ؟!! لحظة حاسمة صمت لها الكون ينتظر ! واستقر رأى أبى طالب على أن يدعو محمدا ﷺ فينهاه عن دعوته التى سببت لهما عداوة قومهما ، وحلت وحدة قريش وفرقت كلمتها وجاء محمد ﷺ إلى عمه فحدثه عمه بما كان من أمر قريش وبما عرضوه عليه ، وبما أنذروه به .. ثم قال له : فابق علىّ وعلى نفسك ، ولا تُحَمِّلْنى من الأمر مالا أطيق . لحظة حاسمة صمت لها الكون من جديد..!!

أينصرف محمد ﷺ عن دعوة ربه ويلبي دعوة عمه ؟! أيكف عن دعوة الحق ويترك رسالة الإسلام ؟! أَقُدِّرَ أن يسطع على الدنيا نور الإيمان ، أم قُدِّر عليها ظلام الضلال ؟؟ .. ما الذى ترتضيه يا محمد ؟ وبماذا تحكم به بعد أن سمعت من عمك ونصيرك ما سمعت ؟؟!! .. وأخيرا حكم صلوات الله وسلامه عليه بما حكم به ربه .. ورضي لنفسه ما رضى له ربه أن يكون .. وقال لعمه بقوة وعزيمة :

«أى عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »[1].

يا لله . . يا لقوة الحق . . وعظمة الإيمان !! يا لقوة النفس وعظمة الروح !! كان محمد ﷺ فى جانب الحق ومع الحق يسير . . وعلى الحق يموت . . ونظر أبو طالب إلى ابن أخيه مأخوذاً مبهوتاً أخذَ لقوة روحه وصدق عزيمته . . وبُهت لإقدامه على تحقيق غايته غير عابئ بما يصيبه على يد قومه فى سبيل تحقيقها ! .

ونهض محمد ﷺ ينصرف من لدن عمه يكاتم دموعه وقد خنقته العبْرة . . ! ظنَّ أن عمه قد تخليّ عنه . . وحسب أنه قد ضعف عن نصرته . . وإرتضى تسليمه . . فَحَزَنَهُ هذا الأمر ، وعَزَّ عليه أن يكون ذلك من عمه!!. ولكنه ما كاد ينصرف عن عمه حتى ناداه : أقبل يا ابن أخى . وأقبل عليه الصلاة والسلام على عمه من جديد فإذابعمه يقول له : إذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت . . فوالله لا أسلمك لشئ أبداً .

وانصرف محمد ﷺ يتأهب لدعوته بعزيمة صادقة وقلب قوى حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن اسحق (١/ ١٧٠) ومن طريقه ابن جرير (٢/ ٦٧) عن يعقوب بن عتبه بن المغيرة وهذا اسناد معضل وقد أخرج هذه القصة مختصرا الطبرانى فى الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبى طالب .

وأخذ أبو طالب يتأهب لنصرة ابن اخيه ، ويستعد لدعوة أهله وعشيرته لحماية إبن أخيه والدفاع عنه .

وسرعان ما جمع أبو طالب عشيرته من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وأفضى اليهم برغبته فى حماية محمد ﷺ ومنعه ممن أهدروا دمه ، واستحلوا قتله .

فوعدوه جميعا خيرا إلا أخاه أبا لهب .. فقد جاهر بعد اوته لمحمد ﷺ وصرح بانضمامه إلى أعدائه ، والعمل مع خصومه .

وهبت قريش بقَضِّها وقضيضها تحارب محمدا فى شخصه وفى دعوته بشتى السبل ، وتحارب كل من اتبعه بكل ما وسعها من حيلة وبكل ما ملكت من عنت وقسوة .

ولكن محمدا ﷺ صبر هو ومن معه وصمد على أذاهم فنصره الله عليهم . وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب فى تعويق الدعوة .. وأدركت قريش أن ما تصبو إليه بعيد المنال .. فعادت سيرتها الأولى تصب جام غضبها على المؤمنين ، وتبذل آخر ما فى وسعها للتنكيل بهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم وَحزن الرسول ﷺ للمآس التى تقع لأصحابه، وهو عاجز عن كَفِّها .. فأوعز إلى من قَلَّ نصيره ونَبَابه المقام فى مكة أن يهجرها إلى الحبشة وكان ذلك لخمس سنين من مبعثه أو بعد سنتين من جهره بالدعوة .

﴿ الهجرة الأولى إلى الحبشة ﴾

حدثنا محمد بن عبد الملك بن هشام قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى قال : حدثنا محمد بن اسحق المطلبى قال : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافيه بمكانه من الله وعمه أبى طالب - بفضل الله - وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله

بدينهم .. فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام (حديث حسن)

وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى :

١ - عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أميه ، ومعه إمراته رقيه بنت رسول الله ﷺ .

٢ - ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف:أبو حذيفة بن عتبه بن ربيعه بن عبد شمس، ومعه إمراته سهلة بنت سهيل بن عمرو وولدت له بأرض الحبشة (محمد بن أبى حذيفة) .

٣ - ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

ومن بنى عبد الدار بن قصى :

٤ - مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار .

ومن بنى زهرة بن كلاب :

٥ - عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة .

ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة :

٦ - أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن مخزوم ، ومعه إمرأته أم سلمه بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومن بنى جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب :

٧ - عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافه بن جمح

ومن بنى عدى بن كعب :

٨ - عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب ومعه إمراته ليلى بنت أبى حثمة .

ومن بنى عامر بن لؤى :

٩ - أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى

ومن بنى حارث بن فهر :

١٠ - سهيل بن بيضاء ، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، وكان عليهم عثمان بن مظعون .

قال ابن إسحق : ثم خرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها .. منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

كان الرحيل إلى الحبشة تسللا فى الخفاء ، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتحبطه ، ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع .. بل كان الفوج الأول مكونا من بضع أسر ، وقد يمموا شطر البحر حيث قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة .. فلما خرجت قريش فى آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد إنطلقوا آمنين .. ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلا حتى ترامت إليهم الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام ، وتركوا أهله أحرارا .. وأن الإيذاء القديم إنقطع ، فلا عليهم بأس إن عادوا . وتركت هذه الإشاعة أثرها فى قلوب المؤمنين فقرروا العودة إلى وطنهم حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقه المحزنة وعرفوا أن المشركين أشد ما يكونون خصاما لله ورسوله والمؤمنين .. وأن عداوتهم لم تنقطع يوماً .. فدخل بعضهم مكة مستجيرا بمن يعرف من كبرائها .. وتوارى الآخرون . لكن قريشا أبت إلا أن تنكل بالقادمين . وأن تُغرى سائر القبائل بمضاعفة الأذى للمسلمين ، فلم ير الرسول ﷺ بُداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة .

وقال سيدنا عثمان رضى الله عنه مخاطبا الرسول ﷺ :

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخره إلى النجاشى ، ولست معنا ؟

فقال الرسول ﷺ هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعا »

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله » .

وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت قريش لها ، وقررت إحباطها بيد أن المسلمين كانوا أسرع فخرج منهم فى هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلا وتسعة عشرة إمراة ويسر لهم الله السفر فانحازوا إلى نجاشى الحبشة ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار ، وكرم وفادة ..

﴿ محاولة قريش رد المهاجرين ﴾

قال ابن اسحق : حدثنى محمد بن مسلم الزهيرى بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، عن أم سلمة بنت أمية بن المغيرة قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى أمنًا على ديننا وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريش إئتمروا فيما بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جليدين وهما : عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة .. وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا .. ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم ذهبا إلى النجاشى وقدما إليه هداياه ، وكانا حين اعطوا البطارقة هداياهم يقولون لهم : إنه قد ضوى[1] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم .. وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم ، ثم دخلا على الملك وقدما الهدايا وقبلها منهما .. وقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينك ، وجاء وا بدين إبتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت .. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم .. لتردهم اليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه . فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك ،

---

(١) ضوى : لجأ

أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم فغضب النجاشى ثم قال :

لاها الله ، إذن لن أسلمهم إليهما .. ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما .. وأحسنت جوارهم ما جاورونى ، ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله إجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا فى ذلك ما هو كائن . فلما جاءوا - وقد دعا النجاشى أساقفته ، فنشروا كتبهم حوله - سألهم النجاشى : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ فرد عليه جعفر بن أبى طالب فقال له : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميته ، ونأتى الفواحش و نقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانه ، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام (وعَدَّدَ عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا .. وأحللنا ما أحل لنا .. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان

من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك .. ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شئ ؟ قال جعفر : نعم فقال النجاشي : فاقرأه عليّ . فقرأ عليه صدرا من « كهيعص »[1] فبكى النجاشي حتى إخضلت لحيته ،وبكت أساقفته حتى أخضلوا كتبهم حين سمعوا ماتلا عليهم ثم قال النجاشي : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، إنطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما .. ولا يكادون .

قالت أم سلمه : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضرائهم .. فقال له عبد الله بن ربيعة : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليهم الغد فقال : أيها الملك .. إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه ، فأرسل إليهم الملك، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : والله نقول ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟فقال جعفر إبن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي بيده إلى

----

(١) سورة مريم ١

الأرض فأخذ منها عودا ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت قدر هذا العود ، فتناخرت [1] بطارقته حوله حين قال ما قال .. فقال : وإن نخرتم والله ،، وقال للمسلمين : إذهبوا فأنتم شيوم بأرضى (والشيوم : الآمنون) من سَبَّكُم غـرم .. من سـبكم غـرم ما أحب أن لى دبرا من ذهب - (الدبر بلسان الحبشة : الجبل) - وأنى آذيت رجلا منكم ، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رَدَّ علىَّ مُلكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه ، فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به . وأخفقت حيلة عمرو، وعاد الوفد إلى مكة يجر أذيال الخيبة وبقى المسلمون فى الحبشة فى خير دار عند خير جار ، وعرفت قريش أنها لن تشبع ضغينتها على الإسلام وأهله إلا فى حدود سلطانها ، فعزمت أن تشفى غيظها ممن يقع تحت أيديها .

----

(١) (نخر نخرا ونخيرا) الإنسان أو الدابة : مد الصوت والنفس فى خياشيمه أنظر المنجد مادة نخر .

﴿ إسلام حمزة عم الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب ﴾

إن الأفق الملبَّد بالسحب قد يتولد منه برق يضيئ .. لقد غبرت على المسلمين فى مكة أيام غلاظ اضطرت بيوتا عديدة أن تفر بدينها .. وبقى من بقى منهم يكابد العنت من شطط المشركين وكيدهم.. إلا أن عناصر جديدة دخلت فى الإسلام جعلت قريشا تتروى فى أمرها قبل أن تقدم على إساءاتها المبيته .

أسلم (حمزة) بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وأخوه فى الرضاع ، وهو رجل جَلْد قوى الشكيمة .

وسبب إسلامه : الغضب لما بلغه من تهجم أبى جهل على رسول الله ﷺ تهجما بذيئا قالت له أَمَةٌ لعبد الله بن جدعان : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك (محمد) من أبى الحكم بن هشام فإنه سبَّه وآذاه ثم إنصرف عنه ولم يكلمه محمد - وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث فى مسكن قريب - فأسرع حمزة محنقا لا يلوى على شئ . وصمد إلى أبى جهل وهو فى مجلسه من قومه ، ثم ضرب رأسه بالقوس فشجَّه شجَّة منكرة وقال: أتشتمه وأنا على دينه ؟ وكما يقول البعض : طلبنا العلم للدنيا فأبى الله إلا أن يكون للدين .

كان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه .. ثم شرح الله صدره للإسلام فاستمسك بالعروة الوثقى .. وإعتز به المسلمون أيما إعتزاز .

أما عمر بن الخطاب : فكان من الفتانين المستهزئين بالإسلام .. وكان معروفا بحدة الطبع وقوة الشكيمة... وكان فى مقتبل الرجولة وفتوّتها

.. ذو عزم وقوة بأس ، لا يهاب هيبة ، ولا يخشى خشية، ولا يعوقه عائق عما يعتزم أن يفعل .. لذا كان شديدا فى عدائه للإسلام .. قاسيا فى إيذائه للمسلمين .. فكان يعذب الجارية حتى يَمَلَّ هو ضربها ويقول لها : إنى لم أتركك إلا ملالة !! ومع ذلك فقد كان ذا قلب كبير فيه رحمة بأقاربه ، وبه بر وعطف على أهله وذوى رحمه، فكان لخروج من خرج منهم مهاجرا إلى الحبشة من المسلمين وقع شديد على نفسه ، روت زوجة عامر بن ربيعة قالت :

إنا لنرحل إلى أرض الحبشة .. وقد ذهب عامر لبعض حاجته ، إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف أمامى ، وكنا نلقى منه البلاء فقال : أتنطلقون يا أم عبد الله ؟! قالت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله فقد آذيتمونا ، وقهرتمونا .. حتى يجعل الله لنا فرجا قالت : فقال عمر : صحبكم الله ، ورأيت له رقة وحزنا .. فلما عاد عامر أخبرته وقلت له : لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا . قال أطمعت فى إسلامه ؟

قلت : نعم فقال : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب !! لما كان يراه الرجل من شدته وغلظته على المسلمين، لكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل فإن غلظة عمر كانت قشرة تكمن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والسماحة .

والظاهر أن عمر كانت تصطرع فى نفسه مشاعر متناقضة .. إحترامه للتقاليد التى سَنَّها الآباء والأجداد .. واسترساله مع شهوات السكر واللهو التى ألفها .. ثم إعجابه بصلابة المسلمين وإحتمالهم البلاء فى سبيل عقيدتهم .. ثم الشكوك التى تساوره - كأى عاقل - فى أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره .. ولهذا من أن يثور حتى يخور .. !

أما سبب إسلام عمر :

فى ذات يوم خرج وقد تَقلَّد سيفه وذهب إلى حيث يجلس محمد ﷺ مع نفر من المسلمين من بينهم عمه حمزة وأبو بكر وعلى وغيرهم .. والتقى بعمر فى الطريق رجل من بنى عدى إسمه نعيم بن عبد الله ، وكان قد أسلم سرا. وأخفى إسلامه عن قومه خوفا منهم أن يبطشوا به ؛ فلما رأى عمر يجد فى السير وقد توشح سيفه سأله : إلى أين يا ابن الخطاب ؟!

قال عمر : أريد هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسَبَّ آلهتها .

وخشى نعيم علىٰ رسول الله ﷺ غضبة عمر ، وأراد أن يصرفه عما اعتزم أن يفعل فقال له : والله لقد غَرَّتك نفسك من نفسِك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟؟ .. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟!

قال عمر : وأى أهل بيتى تقصد بقولك ؟! قال نعيم زوج أختك وابن عمك سعيد ابن زيد بن عمرو ؛ وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما، وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما . ودهش عمر لقول نعيم وغضب ، فلم يكن يعلم بإسلام أخته وزوجها، إذ كانا يخفيان أمرهما عنه .. وولى وجهه شطر بيتهما وقد إستعرٌ فى صدره الغيظ ، وانتفخت أوداجه بنار الغضب ووصل إلى بيت أخته ، فطرق سمعه هَيْنَمَة لقارئ يقرأ ، فقرع الباب بشدة فزع لها من بالداخل، وسألوا : من بالباب ؟!

فأجاب : أنا عمر ... وفزع من بالمنزل لسماع صوت عمر ، وارتبكوا وأسرعوا يخفون ما كان من أمرهم !

كانت فاطمة أخت عمر وزوجها يجلسان حينذاك إلى خباب بن الأرت الذى خصصه لهما رسول الله ﷺ ليعلمهما القرآن ، ويقرأ عليهما ما ينزل الله من آيات ، وكان خباب يقرأ شيئا من سورة (طه) فلما سمعوا صوت

عـمر ، هرع خباب فاختبأ فى مكان داخل الدار ، وأسرعت فاطمة فأخفت خلفها الصحيفة التى كان يقرأ فيها خباب ، وذهب زوجها سعيد ففتح الباب ليدخل عمر .

ودخل عمر كالأسد الهائج يدور بعينيه فى أرجاء الدار ، ويبحث عن مصدر الصوت الذى سمع فلم ير أحدا غير أخته وزوجها ، فسألها محتدا غاضبا : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ فأنكرا خوفا منه وقالا : ما سمعت شيئا ...

قال : بل قد علمت أنكما قد تابعتما محمدا على دينه ، ثم تقدم إلى زوج أخته يبطش به وقامت فاطمة تدافع عن زوجها فضربها ، فشجَّ رأسها .. فصاحت هى وزوجها وقالا : نعم لقد أسلمنا ، فاصنع ما بدا لك !! هدأ عمر ، ورجع إلى نفسه ، وندم على ما كان منه لأخته حين رأى الدم يسيل من رأسها ، فارعوى ... ووقع نظره على الصحيفة التى كان يقرأ منها خباب فقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة التى كنتما تقرآن منها فقالت : إنا نخشاك عليها . فأقسم عمر أنه سيردها إليها - وكان عمر كاتبا - فلما قال ذلك طمعت أخته فى إسلامه فقالت له يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » .

أخذ عمر الصحيفة ونظر فيها . . وقرأ ما أذهله !! وملأ قلبه روعة وجلالاً . . ولم يملك أن قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !!

وسمع خباب من مخبئه قول عمر فخرج إليه قائلا : يا عمر ؛ والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه إذ دعا : « اللهم أيدً الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر .... فقال له عمر : فَدُلّنى يا خباب على محمد حتى آتيه فاسلم .

فقال له خباب فرحا : هو فى دار الأرقم عند الصفا ...

يا ألله .. كم كانت فرحة فاطمة بإسلام أخيها عمر .. وكم كان سرور زوجها بإسلام صهره عمر !! دخل عمر عليهما مشركا بالله مكذبا برسوله ... وها هو ذا يخرج موحدا بالله مؤمنا بما جاء به رسوله ﷺ يسعى إليه ليشهد بين يديه بإيمانه ، ويُشهر أمامه إسلامه !!

وأتى عمـــر باب الأرقم وقرعه ... فأتاه صوت بلال يسأل : من بالباب ... ؟

أجاب : أنا ابن الخطاب

وكان رسول الله ﷺ حينذاك مع جمع من صحابته بينهم حمزة وأبو بكر وعلى وبلال وجاء بلال إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله ، عمر بن الخطاب بالباب متوشحا سيفه ، وإنا لنخشى شره إذا فتحنا له .

فقال رسول الله ﷺ : أدخله فإن أراد خيرا بذلناه له .

وقال حمزة : وإن أراد شرا كان قتله علينا هينا، وذهب بلال يفتح الباب لعمر، وذهب معه حمزة ليشد أزره إذا بدر من عمر بادرة شر ، أو بدا منه بَدَاءٌ بالأذى .

وفُتح الباب ، ودخل عمر ، فأحاط بِعَضُدَيْهِ ساعدا بلال ، وكَبَّلَتْ يديه قبضتا حمزة ، ودعا رسول الله ﷺ ربه حين رأى عمر داخلا قائلا :

« اللهم أخرج ما فى صدر عمر من غِلٍّ ، وأبدله إيمانا » ... أطلقا يا حمزة ويا بلال سراحه . وأُطلق سراح عمر فتقدم حتى كان أمام الرسول ﷺ، فقال له الرسول ﷺ : ما أنت مُنْتَهٍ يا عمر حتى ينزل الله بك قارعة؟ فيم جئت يا ابن الخطاب؟!

قال عمر : جئت أشهد بين يديك أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .... فكبرٌ رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل الدار أن عمر قد أسلم .... وما لبث أن إهتزت أركان الدار بصيحة من أصحاب الرسول ... الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر .....

إمتلأ المكان روعة ورهبة وجلالا وسموا .. كلمة إنطلقت من أفواه الحاضرين تعبر عن عظيم فرحهم بإيمان عمر ، وتشهد بمبلغ سرورهم بدخوله فى زمرة المسلمين .

وحمد رسول الله ﷺ ربه على إسلام عمر ... ومسح بيده الكريمة له صدره ، ودعا له ربه بالهداية والثبات .. وجلس عمر مع رسول الله ﷺ وأصفيائه يتحدثون فقال عمر : يا رسول الله ، ألسنا على حق إن متنا أو حيينا ؟

قال محمد ﷺ : بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم .

قال عمر : ففيم الإختفاء يا رسول الله ؟

قال محمد ﷺ : لأننا لا نزال قِلّة ، وأعداؤنا كثيرون .

قال عمر : والله لا يُعبد الله سراً بعد اليوم ، والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام .

فكان من ذلك أن خرج محمد ﷺ وصحبه يقصدون الكعبة فى صَفَّيْن على أحدهما عمر وعلى الآخر حمزة ، فكان لما يثيره وطءُ أقدام هذا الجمع كديد ككديد الطحين ، حتى أتوا الكعبة فصلوا فيها وجهروا ، أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

فكان هذا اليوم بَدْءَ إشراق الإسلام ، وبَدْءَ إعلان أهل الأرض بالدين الجديد فى قوة ، وقد أصاب قريشا فى ذلك اليوم من الكآبة والحزن مالم يصبها مثله قط .

وكانت فرحة المسلمين بإسلام عمر لا يقلُّ عنها فرحة عمر بدخوله فى الإسلام . فما توانى عمر فى ليلة إسلامه عن أن يطوف يُعلن إسلامه على الملأ، ويدعو إليه بنفس الحماسة والقوة التى كان ينهى بها عنه ، فذهب إلى

خاله أبى جهل أشد رجال قريش عداوة للإسلام ، وكراهية للرسول ﷺ، ودق عليه الباب فخرج إليه أبو جهل يرحب به قائلا : مرحبا وأهلا بابن أختى ما جاء بك ؟ أجاب عمر : جئت لأخبرك أنى آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ... فما سمع أبو جهل قول عمر حتى كاد أن يُصعق ، وصفق الباب فى وجه ابن أخته وهو يهدد غاضبا : قَبَّحَكَ الله وقبح ما جئت به !

وتألبت قريش على عمر يؤذونه وينالونه بما يكره .. فقاتلهم بحد سيفه وهو يجأر بينهم بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. من تحرك منكم لأمكِّنَنَّ سيفى منه . ومن ذلك الحين لقَّب رسول الله ﷺ عمر بالفاروق إذ فرق الله به بين الحق والباطل .

★★★

﴿ حصار المسلمين ومقاطعتهم ﴾

رأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو خاصة بعد إسلام حمزة وعمر .. وأن وسائلها الأولى فى محاربته لم تمنع انتشاره ، أو تنفر أنصاره .. بل العكس كان ... فأعادت النظر فى موقفها كله ، لترسم خطة أقسى وأحكم وأدق وأشمل ... وتمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم ، أو يحمى أحدا منهم حزبا واحدا دون سائر الناس.. وأن يقاطعوهم مقاطعة تامة، وأن يحاصروهم محاصرة إقتصادية واجتماعية ، فلا يبيعون لهم شيئا ، ولا يبتاعون منهم شيئا ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يزوجونهم ولا يكون بينهم وبينهم أى معاملة، أو إختلاط أو إتصال لأى سبب من الأسباب .

﴿ صحيفة المقاطعة ﴾

وتوكيدا لهذا الإتفاق كتبوا صحيفة يشهدون فيها على أنفسهم بما إعتزموا أن يفعلوه ، وإحتراما لذلك علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة حتى لا يكون بها نقض .. وحتى لا يكون هناك رجوع عما جاء فيها أو انتكاس .

ولاشك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا فى فرض رأيهم ، وإشباع ضغنهم.. فاضطر الرسول ﷺ ومن معه إلي الاحتباس فى شعب بنى هاشم ، وانحاز اليهم بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم على سواء ما عدا أبا لهب، فقد آذر قريشا فى خصومتها لقومه .

وضيق الحصار على المسلمين، وانقطع عنهم العون ... وقل الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه !! وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب !! وعضتهم الأزمات العصيبة حتى رثى لحالهم الخصوم . ومع اكفهرار الجو فى وجوههم فقد تحملوا فى ذات الله الويلات ، ولم تفتر حدة الوثنبين فى الحملة على الإسلام ورجاله، وفى تأليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهيلى : كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام قوتا لعياله ، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا .. وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع !! وليس فى يده شئ يطعمهم به .. ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس .. حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعريا ....

وروى يونس عن سعد بن أبى وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسه، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها ، وسففتها بالماء ... فقويت بها ثلاثا ...!

فانظر كيف إنتهى الحصار بالمسلمين ؟! وكيف أضناهم الحرمان وألجأهم أن يطعموا مالا مساغ له ؟؟ وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قريش فكان هشام بن عمرو بن الحارث وقد كان أعْطَفَ قريش على المحاصرين - كان يُوقِرُ البعير طعاما ولباسا ويأتى به إلى شِعْبِ أبى طالب ليلا ، فإذا استقبل فَمَ الشِّعْبِ وكَزَ البعير فيدخل بما حمل إلى الشعب وأهله .. فيخفف شيئا مما بهم من إعياء وفاقه .

ولقى أبو جهل - يوماً - حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى عند رسول الله ﷺ ومعه فى الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ ... والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البخترى بن هاشم فقال : مالك وله؟ فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم ، فقال له أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خَلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البخترى عظم بعير فضربه فشجَّه ووطئه وطئا شديدا .. وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ... وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله وأصحابه فيشمتوا بهم .

وفى أيام الشِّعْبِ كان المسلمون يلقون غيرهم فى موسم الحج ، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وافد ، فإن الإضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقا وفروعها إمتدادا وكان الرسول ﷺ

يخرج بنفسه فى الأشهر الحرم - التى توقف فيها الحروب بين العرب .. وتكف فيها الخصومات والمنازعات - ليواصل دعوته .

كان الحجاج يفدون على مكة فى هذه الأشهر الحرم وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ورجب .. وكان التجار يقيمون أسواقهم، ويعرضون تجارتهم بالقرب من مكة ، فيخرج إليهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى دين الله ، ويبشرهم بالجزاء الطيب لمن اتبعه ، وينذرهم بالعذاب الشديد لمن يصد عنه ويكفر به .

وفى فترة الحصار هذه عاد إلى مكة من كان هاجر إلى الحبشة من المسلمين ... لأنهم وصل إليهم ما أصاب الإسلام من عزة ومنعه بإسلام عمر .. وأن المسلمين جهروا بدعوتهم على الملأ من قريش . وأن نور الإسلام أضاء أرجاء مكة وبدأ يتجاوزها إلى ما حولها . ولكنهم ما كادوا يقتربون من مكة حتى تواردت عليهم أخبار الحصار الشديد الذى أجمعت عليه قريش ، وأرهقت به المسلمين، فرأوا أن يرتدوا على أعقابهم عائدين ، وأذن النبى ﷺ لأصحابه ورفاقه فى الحصار بالهجرة لمن استطاع اليها سبيلا فرارا مما هم فيه من عنت وإرهاق .. فهاجر منهم عدد غير قليل .. ولحقوا بأصحابهم من المهاجرين الأولين الذين عادوا إلى الحبشة آمنين .

وطال الحصار على من بقى من المحاصرين وَشَقَّ عليهم الأمر.. ولكن بنى عبد المطلب ظلوا جُلْداً يعانون الجوع والحرمان دون أن يفرطوا فى محمد ﷺ أو يسلموه ، بل ظل عمه أبو طالب يحبوه بعطفه، ويرعاه بعنايته، ويرقده بجانبه إذا نام ليقوم على حراسته .. وإذا إضطره أمر من الأمور إلى تركه أحلّ محله أحدا من أولاده ليتخذ مكانه فى السهر عليه .

ولولا ما كان يُتَدَارَكُ به المحاصرون من بعض ذوى القربى والقلوب الرحيمة ، فيحملون إليهم الطعام سرا لهلكوا جوعا كأمثال حكيم بن حزام -

الذى ذكرناه آنفا - وما كان يحمل لعمته خديجة أم المؤمنين القمح والإدام سرا فتوزعه على المحاصَرين .

كم بقيت هذه الضائقة ؟؟!! ثلاث سنين كالحة.. كان رباط الإيمان وحده هو الذى يمسك القلوب !! ويصبر على اللأواء ، ومن الطبيعى أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآزق . . . لطالما وعُدوا بالنصر والتمكين فما وجدوا إلا الروع والاضطهاد والحصار !! وهاهم أولاء محرجون فى أرض تنكرت لهم ، واقشعرت تحت أقدامهم ، ولا ريب أن قلوبهم إمتلأت غيظا على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضله ... وكفروا بانتصارها فى الدنيا كفرهم بمجيئ اليوم الآخر ، ولو لم يطلب أولئك المعذبون النصر لينقذهم من بأسائهم لطلبوه كى يخزوا به المكذبين، ويؤدبوا المتوقحين !! بيد أن الوحى كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون إرتقاب لهذه النتائج المتوقعة ؛ يُجب أن يحمدوا على حقائق الإيمان التى عرفوها ، وأن يستمدوا من سُموِّها وصدقها ما يراغمون به الأيام والأحداث **« وإما نرينك بعض الذى نعدهم أونتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون ، ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »**[١] .

وكان المشركون كذلك يتعجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين ... يتعجلونها لأنهم يضحكون منها فما يثقون ببعث أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً قريبا أو بعيداً سينشق فجره . . فإذا مكة خالية من الأصنام ، وإذا آذان التوحيد يرن فى أرجائها.. وإذا المحصورون فى الشعب هم أصحاب الأمر والنهى ، والسادة الحاكمون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو .. وكان يقينهم من أن اليوم والغد لهم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به .

---

(١) سورة يونس آيه ٤٦ ، ٤٧

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون »[1] .

وكان الدخول فى الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن التهمة.. وربما إعتنق فريق من الناس مبدأ ما - عن صدق واقتناع - وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه أما أولئك السابقون الأولون ، فقد علموا أن فقدان المنافع ، وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية فى سبيل عقيدتهم .. ولا أحسب شيئا يربى النفوس على التجرد كهذا التفانى فى الحق ، للحق ذاته ، ثم إن القرآن كان صارما فى قمع المتاجرة بالعقائد والإثراء على حسابها، والعلو فى الأرض باسمها **« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون»**[2].

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونقاءً وإخلاصاً لا يعرف لها فى التاريخ نظير ، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم .. واستسلمت الأقطار المكتظة بالخير لجيوشهم ، كانت دوافع العقيدة وأهدافها هى التى تشغل بالهم قبل الفتح وبعده .. فلم يكترثوا لذهب أو فضة إنما عناهم - أولا وآخرا - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) سورة يونس آيات ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١

(٢) سورة هود آيات ١٥ ، ١٦

وفى ظل هذا الحصار الرهيب أخبر رسول الله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد سلّط الأرضة (السوس) على الصحيفة التى كتبتها قريش فأكلتها ولم يبق منها إلا كلمة (باسمك اللهم) فسأله أبو طالب من أخبرك بهذا ؟ فردّ الرسول ﷺ : إنه وحى من السماء . وذهب أبو طالب إلى كفار قريش واخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ وكان هذا مما دفع هشام بن عمرو - فقد ساءته حالة المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء - إلى ضم أناس معه ليروا ماذا فعلت الأرضة ولينقضوها .

﴿ نقض الصحيفة الظالمة وأسماء الخمسة الساعين فى نقضها ﴾

وقد كسب الإسلام أنصارا كثيرة فى مرحلة الحصار وكسب - إلى جانب ذلك - أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ، ويتساءلون عن صواب ما فعلوا، وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ، ونقض الصحيفة التى تضمنتها .

فمشى هشام بن عمرو إلى زهير بن أبى أمية وكان شديد الغيره على النبى ﷺ وعلى المسلمين وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال :

يا زهير .. أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب .. وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت ؟ أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم (يعنى أبا جهل) ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبدا ، فقال زهير : فماذا أصنع وإنما أنا رجل واحد ؟! والله لو كان معى رجل آخر لنقضتها ... قال هشام : قد وجدت رجلا قال زهير : ومن هو ؟ قال هشام : أنا .. قال زهير : أبغنا ثالثا .. فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له :

أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد ذلك موافق عليه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إلى مثلها منكم أسرع .

قال المطعم : ما أصنع إنما أنا رجل واحد

قال هشام : قد وجدت ثانيا . .

قال المطعم : من هو ؟

قال هشام : أنا ...

قال المطعم : أبغنا ثالثا ...

قال هشام : قد فعلت

قال المطعم : من هو ؟

قال هشام : زهير بن أبى أمية

قال المطعم : أبغنا رابعا .

فذهب هشام إلى أبى البخترى بن هشام وقال له نحوا مما قال للمطعم ...

قال أبو البخترى : وهل من أحد يعين على هذا ؟ ...

قال هشام : نعم

قال أبو البخترى : من هو؟

قال هشام : أنا وزهير والمطعم...

قال أبو البخترى : أبغنا خامسا ... فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود فكلمه وذكر له قرابته .

قال زمعة بن الأسود : وهل على هذا الأمر معين ؟

قال هشام : نعم .. وسَمىٌ له القوم .

فاتَّعدوا « خطم الحجون » الذى بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنا لك وتعهدوا على القيام فى نقض الصحيفة .. فقال زهير : أنا أبدؤكم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف بالبيت ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة .. أناكل الطعام ، ونلبس الثياب وبنو هاشم

هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل : كذبت والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ما رضينا بها حين كتبت !

قال أبو البخترى : صدق والله زمعة لا نرضى ما كتب فيها .

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك .

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قُضى بليل.

فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة « باسمك اللهم » كما ذكر رسول ﷺ لعمه أبى طالب منذ يومين .

وبانتقاض الصحيفة التى كتبتها قريش خرج محمد ﷺ وأتباعه من الشعب إلى حيث يواصل رسول الله ﷺ دعوته وجهاده .

﴿ عـام الحـزن ﴾

موت أبى طالب :

وخلص محمد عليه الصلاة والسلام من محنة الحصار .. ولكن ما كان ينتظره من المحن كان أشد وأنكى !! فلم يلبث أبو طالب أن مرض ، فلما اشتدت به العلة ، وعرفت قريش أن نهايته قربت ،حزمت أمرها من جديد على أن تسير إليه ليضع حداً بينها وبين محمد قبل أن يموت.. لأنهم إذا نالوا محمدا بالأذى بعد ذلك ، عيرتهم العرب ، وقالت تركوه فإذا مات عمه نالوه..... !

فَشَخَص فى ذلك إلى أبى طالب - وهو على فراش مرضه - نفر من قريش وقالوا له : يا أبا طالب أنت تعرف المنزلة التى لك بيننا ، فأنصفنا من ابن أخيك . وَمُرْهُ أن يدعنا لديننا ،. وندعه لدينه ، فاستدعى أبو طالب محمدا ﷺ، وعرفه بما جاء قومه يسألونه ، فقال محمد ﷺ : لا أريد إلا كلمة واحدة تعطونها ، قالوا : وما هى ؟ قال لا إله إلا الله .

فانفضوا من حوله يقول بعضهم لبعض : إن هذا الرجل ليس بمعطيكم شيئا .. وقد أعْذِرتُمْ فيه . والتفت محمد ﷺ إلى عمه قائلا : أى عم قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة .. قل يا عماه : لا إله إلا الله ..

فقال عمه : لولا أن تعيبكم بها العرب ، يقولون جزع من الموت لأعْطَيْتُكَهَا يا ابن أخى ولكن على مِلَّة الأشياخ أموت ... !

كان محمد ﷺ يحب عمه أشد الحب .. ويعزه كل الإعزاز .. ويود له سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .. لذلك كان لعدم دخوله فى الإسلام تأثير كبير فى نفسه .. جعله فى أشد حالات الحزن والكمد .. فأنزل الله سبحانه وتعالى إليه قرانا قال فيه :

« إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »[1] .

ومات أبو طالب سند محمد وحاميه ، ومانعه وشادُّ أزره !

وهناك مقولة للعباس رضى الله عنه .. أنه بعد أن حدث رسول الله ﷺ عمه أبا طالب وطلب منه أن يذكر الشهادة ... نظر إليه العباس يحرك شفتيه قبل أن يسلم الروح فأصغى إليه بأذنه فقال : يا ابن أخى .. والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها .

فقال ﷺ : لم أسمع ... .

وقد بلغ بالرسول ﷺ الحزن على موت عمه !! ألم يكن الحصن الذى تحتمى به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء ؟! وها قد ولىَّ الرجل الذى سَخَّر جاهه وسلطانه . فى الذود عن ابن أخيه .. وكَفَّ العوادى أن تناله .. وخلفه لقريش وأذى قريش !!! وأصبحت قريش لا تهاب فى محمد ﷺ أحدا بعده .

روى أن رسول الله ﷺ قال : « ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب »[2] وذلك أنهم تجرأوا عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه ، فدخل محمد ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه ابنته فاطمة تزيله عن رأسه ودموعها تنهمر حزنا لما يلقى أبوها رسول الله ﷺ من أذى قومه ، وما يناله من بغى سفهائهم فيقول لها أبوها عليه أفضل الصلاة والسلام : لا تبكى يا بنية . فإن الله مانع أبيك .

وعن ابن مسعودقال :

« بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت .. وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جذور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جذور بنى

---

(١) سورة القصص من الآيه ٥٦

(٢) حديث ضعيف أخرجه ابن اسحق (٢٥٨/١) بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسلا

فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد ؟! فانبعث أشقى القوم فأخذه .. فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه !! فاستضحكوا وتمايلوا على بعضهم البعض.. وأنا قائم أنظر !! لو كانت لى منعة لطرحته عن ظهره .. والنبى ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى إنطلق إنسان فأخبر ابنته فاطمة .. فجاءت فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم .. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثا .. قال : اللهم عليك بقريش ثلاثا ...

فلما سمعوا دعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته .. ثم قال : اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، والوليد بن عتبه ، وأميه بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط، وذكر الخامس ولم أحفظه ، فوالذى بعث محمدا ﷺ بالحق لقد رأيت كل هؤلاء صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب ، قليب بدر »[١].

﴿ موت خديجة ﴾

وفى نفس العام الذى مات فيه أبو طالب ماتت خديجة الزوجة الحنون الودود .. أى أنه نكب فى حياته الخاصة والعامة معا .. ماتت خديجة التى بسطت لمحمد ﷺ من روحها وأولته حبها وعطفها .. وشملته برعايتها وعنايتها طول سنى وحيه وجهاده التى عاشتها .

قد كانت خديجة من نعم الله على محمد ﷺ ، فقد آزرته فى أحرج الأوقات وأعانته على إبلاغ رسالته .. وشاركته مغارم الجهاد المر .... وواسته بنفسها ومالها.

وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خُنَّ الرسالة وكفرن برجالهن وكن مع المشركين من قومهن « **ضرب الله مثلا للذين كفروا إمراة نوح وإمراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل أدخلا النار مع الداخلين** »[٢].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١/٣٧٨-٢٨٠، ٢٨٠، ٤٧١) ومسلم (٥/ ١٨٠)
وقد صرح مسلم فى روايته أن الخامس الذى لم يذكره ابن مسعود هو عمارة بن الوليد
(٢) سورة التحريم آيه : ١٠

أما خديجة فهى صدِّيقة النساء ... حَنَتْ على رجلها ساعة قلق .. وكانت نسمة سلام وبر رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحى .. وبقيت ربع قرن معه تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله ، وتتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم ، وآلام الحصار ، ومتاعب الدعوة .. وماتت والرسول ﷺ فى الخمسين من عمره ، وهى تجاوز الخامسة والستين وقد أخلص لذكراها طول حياته .

وبموت أبى طالب وخديجة فَقَدَ محمد ﷺ أعظم عون !! وأكبر سند !! ولكن نور الإسلام كان قد بدأ يمتد خارج مكة .. فليس مستطاعا أن يخبو هذا الضوء بعناد المشركين قَلُّوا أو كثروا .. وبإيذائهم قَوُوا أو ضَعفُوا .. أراد الله هذا ولو كره الكافرون .

★★★

﴿ سحاب وضباب والرحلة إلى الطائف ﴾

« قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما اعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين » [1].

بهذا القرآن أمر الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ أن يَرُدَّ على نفر من قومه المشركين حين أتوه يعرضون عليه آخر ما فى جعبتهم من العروض إذ قالوا له :

هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد، ولتعبد ما نعبد .. فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا كنت قد أخذت بحظك منه .

---

(١) سورة الكافرون آيات ١:٦

فرد عليهم رسول الله ﷺ بما أوحى إليه ربه .. وبين لهم أن ما جاءهم به ليس لغوا ، ولا لهوا ، ولا لعبا .. أنما هو دين حق قويم ، لا يحق عليه تبديل ، ولا يجوز فيه تغيير ولا يرقى إلى قدسيته شُبَهُ ولا تضليل .

وأعيت المشركين الحيل فى أمر محمد ﷺ كى يرجعوه عن تأدية رسالته، ويحيدوا به عن المضى فى دعوته ، وحاروا فيما يفعلون معه، وفيما يصنعون؟! ولكن ... ها قد مات أبو طالب الذى كان يحميه ويسانده والجامع لقلوب عشيرته حوله ، والمانع لأذى قومه من الوصول إليه إذن قد خلت الطريق بينهم وبين محمد ﷺ، وصفا الجو لينفثوا فيه سمومهم .

فإلى الحرب العوان التى لا هوادة فيها .. وإلى الإيذاء الذى لا رحمة معه !! وهب المشركون يتبارون فى إيذاء الرسول ﷺ ، والنيل منه ومن دعوته بما يكره ! أما عمه أبو لهب : فقد هادن محمدا ﷺ بعد وفاة أبى طالب بعض الوقت . ثم عاد إلى إيذائه على وجه أشد وأنكى مما كان من قبل ! .. فنال الرسول ﷺ منه ومن إمرأته أم جميل من الشدة ما يسوء وما يكره .

قال ابن اسحق : ذكر لى أن أم جميل حمالة الحطب - وقد كانت تحمل الحطب وتضعه فى طريق رسول الله ﷺ - حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فهر من حجارة - فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه أما والله إنى لشاعرة وقالت :

مذمما عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينا

ثم إنصرفت فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتنى لقد أخذ الله ببصرها عنى .

قال ابن هشام : « ودينه قلينا » عن غير ابن اسحق (**حديث صحيح**)

قال ابن اسحق : وكانت قريش إنما تسمى رسول الله ﷺ مذمما، ثم يسبونه فكان رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون لما صرف الله عنى أذى قريش يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد » (حديث صحيح)

وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه فأنزل الله تعالى فيه « **ويل لكل همزه لمزة الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة، وما أدارك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة، فى عمد ممددة** » [1].

أما أبو جهل : فإنه كان يترصد النبى ﷺ في غدواته وروحاته ، فيحرض عليه السفهاء فينالون منه ، ويغرى به طوال الألسنه فيسبونه ويتهكمون عليه ، أو يجلس فى جمع من صعاليك قومه فإذا جاء محمد ﷺ للصلاة أو الطواف همُوا به يريدون ضربه ويبغون الفتك به ، فيتعرض لهم أبو بكر يصدهم عنه وينهاهم مستنكرا وهو يقول :

أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم ببينات من عند الله ؟!

فحينئذ لا يسلم أبو بكر من إيذائهم فيلتفون حوله يصكونه ويضربونه كى لا يقف حائلا بينهم وبين ما يبغون ولكنه كان لا يمتنع عن تعريض نفسه للأذى فى سبيل حماية محمد ﷺ .

----

(١) سورة الهمزة آيات ١:٩

وشقَّ على أتباع محمد ﷺ ما كان يلاقى نبيهم من سفه المشركين .. وكانوا لقلتهم - بعد أن خرج نفر كبير منهم إلى الحبشة - لا يملكون إزاء كثرة المشركين أن يفعلوا شيئا وكانت النساء المسلمات يحزنَّ لما يناله ويتوجعن لما يسوءه .

ويضيق الرسول ﷺ بإيذاء كفار قريش .. فقرر أن يخرج بدعوته من مكة علّه يجد النصير .. فذهب إلى الطائف ليدعو أهلها حيث تقطن ثقيف، وهى تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلا سارها محمد ﷺ على قدمه جيئة وذهابا .. فلما انتهى إليها قصد إلى نفر من رجالاتها الذين ينتهى إليهم أمرها ، ثم كلمهم فى الإسلام ، ودعاهم إلى الله فردوه - جميعا - رداً منكرا ، وأغلظوا له الجواب . ومكث عشرة أيام يتردد على منازلهم دون جدوى .. ولم يرضوا أن يكون فى جوارهم ، ولم يرغبوا فى نصرته !! بل كذبوه فى نبوته .. واتهموه فى دعوته ، وردوه شر رد .!!

وكان خوفهم من دين محمد ﷺ مثل خوف قريش ، فقد خشوا هم أيضا على مكانة بلدهم ، حيث كان الطائف مصيف أهل اليسار من قريش لاعتدال هوائه، ووفرة كرومه وأعنابه .. ولمكانة صنمها المشهور عند العرب والذى يسمونه اللات ، فقد كان يأتى إليه الناس للطواف والحج كما كانوا يذهبون إلى الكعبة .

وكره محمد ﷺ أن يبلغ أهل مكة ما لاقى من أهل الطائف فيشمتوا فيه ، ويزيدوا فى إيذائه ، فقال لبعض سادات ثقيف وهو منصرف عنهم : « إذا كنتم رددتمونى ، فلا أقل أن تكتموا أمرى » ولكنهم أبوا هذا

أيضا عليـه ... ! وأغـروا سفـهـاءهم وغلمـانـهم يشـيـعـونه بالسب ويرجـمـون قدميه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء !!! وسار الرسول ﷺ وسار حتى إذا كان بأطراف القريه ، إحتمى من إيذاء سفهاء ثقيف ببستان كبير كثر فيه شجر الكرْم ... وتتدلى منه قطوف الأعناب .. فتركه السفـهـاء وكروا عنه عائدين بعد أن صرفهم أصحاب البستان .

وجلس رسـول الله ﷺ بجوار جدار البسـتـان يلتمس بعضا من الراحة والأمان .. جلس رسول الله بعد أن أخذ بأسباب الأرض . ! وبعد أن استنفذ كل ما فى طاقته لنشر دين الله وإتجه إلى الله المنعم المسبب بعد أن تخلت عنه أسباب الأرض ... واستوحش ﷺ لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التى عاناها مع أهل مكة !! إنه يجرر وراءه سلسله ثقيلة من المآسى المتلاحقة ورفع محمد ﷺ رأسه إلى السماء يتضرع إلى الله شاكيا شدة ما يلاقى راجيا رحمة الله طالبا عفوه قال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى .. وقلة حيلتى.. وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين .. وأنت ربى ... إلى من تكلنى؟! .. إلى بعيـد يتـجـهـمنى ؟ ، أو إلى عـدو ملَّكتـه أمـرى ؟! إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى .. ولكن عافيتك أوسع لى .. ! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك، أو يَحِلَّ على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ! ولا حول ولا قوة إلا بك . »

وكـان هذا البستـان الذى احتـمى به رسول الله ﷺ ملْكاً لأخـوين همـا عتبه وشيبة إبنا ربيعه .. رأيا ما فيه محمد ﷺ من ضيق وكرب وشاهدا ما فعل به سفهاء قومهما ، فأخذتهما الرحمة به ، وتحركت نفسهما شفقه عليـه

فاستدعيا غلاما لهما نصرانيا إسمه عداس وقالا له : يا عداس ، خذ قطفاً من عنب البستان ، وضعه فى طبق ، واذهب به إلى هذا الرجل الجالس بجانب الجدار ، وادعه ليأكل منه .

ففعل عداس ما أمر به ، وذهب بالعنب فوضعه أمام الرسول ﷺ ودعاه إليه ، فلما وضع محمدﷺ يده فيه قال : بسم الله .. ثم أكل .

فنظر عداس إلى رسول الله ﷺ متعجبا وقال :

والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد !!

فسأله محمد ﷺ : من أى البلاد أنت ؟ .. وما دينك ؟ وما اسمك ؟

أجاب : أنا من نينوى ، ودينى النصرانية ، وإسمى عداس

قال رسول الله ﷺ : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فازدادت دهشة عداس وقال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ !!

قال محمد ﷺ : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى .

فأكب عداس على محمد ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .. ، وعتبة وشيبة يريان ما يفعل غلامهما . ويتعجبان من أمره ، فلما عاد إليهما قالا له :

ويلك يا عداس .. مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟!

قال : يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

فقالا ويحك يا عداس ! لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه[1] . وغادر محمد ﷺ الطائف وقد يئس من خير ثقيف ، وفقد كل أمل فى نصرة أهلها .

---

(١) أخرج هذه القصة ابن اسحق (١/ ٢٦٠ ، ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلا .

﴿ عودة الرسول ﷺ من الطائف ﴾

وقفل رسول الله ﷺ عائداً يضرب فى الصحراء ووجهته مكة التى غادرها فراراً من قومه وعشيرته ، وخرج منها يبغى جوار غريب غير جوارها .. وينشد نصراً يعوض به خذلانها !! فلم يجد ما سعى إليه .. وفى الطريق .. حيث كان بنخلة وهى مهحلة بين الطائف ومكة ليستريح قام من جوف الليل يصلى ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى ، وهم سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له .. فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين . وقد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقصَّ الله خبرهم عليه ﷺ قال الله عز وجل : « **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين** » .. إلى قوله تعالى : « **ويجركم من عذاب أليم** »[1] .

وقال تبارك وتعالى : « **قل أوحى إلى أنه إستمع نفر من الجن** »[2] .. إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة . ولم يعلم رسول الله ﷺ من أمر هؤلاء الجن الذين آمنوا عند استماعهم له وهو يصلى ويقرأ القرآن فى جوف الليل حتى قَصَّ عليه الله خبرهم فى قرآن أنزل عليه .

وكان خير رد ثقيف لمحمد ﷺ وما لاقى من إساءات سفهائها قد وصل إلى أسماع قريش !! فشمتت به ، وسرها ما أصابه وآلت على نفسها أن تحاربه حتى تقضى عليه بعد أن يعود من ثقيف ، لأنهم ظنوا أن سوء ردِّهم له يضعف روحه ويخلخل عزيمته فيسهل النيل منه والقضاء عليه .

فلما إنصرف محمد ﷺ من نخلة وأتى حراء فى طريقه إلى مكة ..

---

(١) سورة الأحقاف آيات ٢٩ ، ٣١ .

(٢) سورة الجن آية ١ .

إلتقى بنفر من أهلها ، فعلم منهم ما كان من أمر قريش وما أضمرته من محاربته ، وما بيتته للقضاء عليه فقال محمد ﷺ لرجل منهم : هل أنت مُبَلغٌ عنى رسالة أرسلك بها ؟

قال : نعم

قال : إئت الأخنس بن شُرِيْق فقل له : يقول لك محمد هل أنت مجيرى حتى أبلّغ رسالة ربى ؟!

فحمل الرجل الرسالة وذهب إلى الأخنس وبلغه ما قاله محمد ﷺ

قال الأخنس : إن الحليف لا يجير على الصريح .. ورفض أن يجيره !

فرجع الرجل إلى محمد ﷺ وبلغه ما كان من أمر الأخنس

فقال محمد ﷺ : هل تعود برسالة أخرى ؟

قال الرجل : نعم

قال محمد ﷺ : فائت سهيل بن عمرو وقل له : هل أنت مجيرى حتى أبلّغ رسالة ربى ؟

فلما أتى الرجل سهيلا أجابه : إن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب

فرجع الرجل إلى النبى ﷺ وأخبره الخبر

فقال له محمد ﷺ : أتعود ؟

قال : نعم

قال : فاذهب إلى المطعم بن عدى .

فذهب الرجل إلى المطعم وسأله : هل يجير محمداً ؟

أجاب المطعم : نعم فليدخل ، فلما أصبح الصباح أعدَّ المطعم نفسه وأولاده وأولاد إخوته لحماية محمد ﷺ عندما يدخل مكة .. فلبسوا ثياب الحرب ، وتقلدوا السيوف ، وامتشقوا الحراب ، وأتوا الكعبة على الملأ من

قريش[1] فلما رآهم أبو جهل قال للمطعم : أمجير أم متابع ؟

قال المطعم : بل مجير

فقال أبو جهل : قد أجرنا من أجرت ..

ودخل محمد ﷺ مكة وقد أجاره المطعم من قريش ، فلم يتعرض له أحد بسوء فلما أقبل على الكعبة للطواف وقريش جلوس بأنديتهم وقد تسنم المطعم ناقته ثم نادى :

يا معشر قريش قد أجرت محمداً ، فلا يَهْجُهُ أحد منكم ولا يتعرض له .

وقال أبو جهل لرفاقه من بنى هاشم متهكماً : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف !!

فأجابه عتبة بن ربيعة وكان من بنى هاشم إلا أنه كان على دين قريش: وما تنكر أن يكون منا نبى أو ملك ؟ .. وسمع محمد ﷺ ما قيل فأتى إلى القوم حيث يجلسون وقال لعتبة : والله يا عتبه ما حَمِيتَ لله ولا لرسوله ، ولكنك حميت لنفسك !! وذلك أنه قالها عصبية لا إيمانا . ثم وجه القول لأبى جهل فقال : أما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتى عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكى كثيرا !! .. ثم وجه خطابه إلى الجالسين من باقى القوم قائلا : وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش .. فوالله لا يأتى عليكم كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون[2] ! . فلما

---

(١) تذكر أيها القارىء أن المطعم بن عدى كان أحد الخمسة رجال الذين نقضوا الصحيفة الظالمة .

(٢) لم أجد له سنداً وقد ذكره بنحوه ابن جرير (٢/٨٢-٨٣) بدون سند بقوله : وذكر بعضهم ولعل هذا البعض هو الأموى فى مغازيه فقد عزاه إليه الحافظ بن كثير (١٣٧/٣) بدون سند أيضا .

انتهى رسول الله ﷺ من الطواف صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته والمطعم وأهله يحرسونه بأسلحتهم .

كان المطعم بن عدى - كأبى طالب - على دين أجداده ، وكان كذلك مثله فى المروءة والنجدة ، وقد أراد أبو جهل أن يتهكم بنبى يحتاج إلى جوار .. ! وكأنه يتساءل لم لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟! . ولذلك تهكم حين رآه : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف !! وفى تعليق الرسول ﷺ على عتبة وأبى جهل ورفاقه ما يدل على ثقة الرسول ﷺ من المستقبل مهما إكتنفه الحاضر من آلام .

عاد الرسول ﷺ إلى مكة ليستأنف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله .. بيد أن الظروف كانت قاسية .. ولكن السماء كانت تعد له إعداداً آخر ليثبته الله .. وليعظمه الله .



﴿ مدد السماء ﴾

إن الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام لا يخذله الله أبدا .. ولكنه وقد استنفد أسباب الأرض إتجه إلى السماء .. واهتزت أبواب السماء لرسول الله ﷺ ... ويقول الشيخ العظيم محمد متولى الشعراوى :

أنه أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلم رسوله أنه إن كان قد لقى ما لقى من أهل الأرض فإن ذلك لا يعنى أن السماء قد تخلت عنه ؟ .... وإذا كان الله جل جلاله قد ترك رسول الله ﷺ للأسباب أولا ... ليجتهد فيها حتى يكون أسوة لأمته فى الأخذ بأسباب الأرض مع مدد السماء فإن الله أراد أن يكرمه ويريه من أسرار كونه مالم يره بشر .... !

رسـول الله ﷺ لم يفـقـد في يوم من الأيام نصـرة الله لـه .... ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يربى من أمة محمد ﷺ أولئك الذين سيحملون رسالته إلى الدنيا كلها ... وبقدر ما كانت مهمته عظيمة كان الإعداد عظيما .. حتى إذا فتحت لهم الأرض بكنوزها وزينتها وقصورها لا تستطيع أن تفتنهم عن منهج السماء .. ولا يدخل حب الدنيا فى قلوبهم أبدا ....
فإن حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد .

وهكذا كانت فترة الإعداد الإيمانى ، عندما رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء داعيا ربه - وهو بالطائف - كانت معجزة الإسراء والمعراج .

﴿ الإسراء والمعراج ﴾

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »[1].

أراد الله سبحانه وتعالى أن يُرى رسول الله ﷺ مالم يره بشر من قبل .. أراد أن يعرف الرسول ﷺ أسرار عالم الملكوت الأعلى .. وهناك عالم الملك .. وعالم الملكوت .. عالم الملك نشترك فيه جميعا ، وهو ظاهر الحياة الدنيا .. أما عالم الملكوت ، فهو باب يفتحه الله سبحانه وتعالى لمن أراد من خلقه ، ويُرى كلا منهم ما شاء حسب قَدْرِه عند الله . وقدرة رسول الله ﷺكانت فوق البشر جميعا .. ولذلك أراه مالم يُرِ أحدا من خلقه .. ! وكان هذا تثبيتا وتكريما وتعظيما للرسول الكريم ﷺ .

كانت معجزة الإسراء والمعراج معجزة كبرى خرقت نواميس الكون ، فالله سبحانه وتعالى خلق كونه ليعمل بالأسباب ، والمسببات ، وهو خالق الأسباب وخالق المسببات .. وكان من الممكن أن ينصر دينه بدون أسباب البشر كما حمى بيته من جيش أبرهة بدون أسباب البشر ولكن الرسالة التى تمتد إلى يوم القيامة لابدلها من رجال ... وهؤلاء بدون الوحى لابد أن يلجأوا لأسباب البشر ، لأنهم لو خرجوا عن هذه الأسباب ما كان هناك جهاد .. وما كان هناك إبتلاء وما كان هناك تمحيص ، وما كان هناك استحقاق لنعيم الجنة فى الآخرة .

---

(١) سورة الإسراء آيه ١

فمادام الدين سيمضى بقوة السماء فما هو دور البشر ؟ وما هو حسابهم فى الآخرة ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** »[1]. ورسول الله ﷺ قدوة لأمته ، ولو أنه إنتصر بلا أسباب لقال المسلمون – وقد أمروا بأن يتبعوا منهج الرسول ﷺ – لا طاقة لنا بهذا المنهج ، فقد كان كل شئ فيه بلا أسباب .. لذلك كما شاء الله أن يكون الرسول بشرا ليكون قدوة . كذا شاء أن ينتصر دينه ظاهرا بالأسباب .. حتى لا يترك المسلمون أسباب الدنيا لغيرهم .

حادث الإسراء والمعراج حادث قد لا يعرف مثله لأحد غير النبى (محمد) ﷺ حادث لا يعزب عن القلوب جلاله ، ولا يجف عن الأذهان مداده .. فهو على الدوام شاخص فى قلوب المؤمنين .. وماثل فى أذهانهم وضمائرهم .. يعرفون به أن الله سبحانه وتعالى أكمل تربية نبيه ، وأعد قواه النفسية والعقلية ، والجسمية ، ومحص اتباعه .. وكشف عن قويهم وضعيفهم ، لتحمل أعباء الرسالة ومتاعب الهجرة ، وتبعات الإخوة الدينية ومشاق الجهاد فى سبيله .. ذلكم هو حادث الإسراء والمعراج فى روحه ومعناه .. وحكمته وأهدافه .

كان حادث الإسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة .. وكان الفيصل بين الطائفتين ... طائفه مؤمنة ثابتة على إيمانها لا تزعزها الأعاصير .. تميد الجبال ولا تميد .. ! وطائفه مشركة قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام مهما طال الزمن .

---

(١) سورة آل عمران الآيه ١٤٢

١ - ما الإسراء والمعراج ؟

٢ - كيف حدثا ؟

٣ - ما هو تعليل الإسراء والمعراج ؟

٤ - رؤية الآية الكبرى .

١ - ﴿ الإسراء والمعراج من الكتاب والسنة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** » [1] .

« **والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتماورونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** » [2] .

---

(١) الإسراء (١) .

(٢) سورة النجم آيات ١ : ١٨ .

« إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين »[1] .

إن فى آيات سورة النجم الشريفة تكريما عظيما للرسول ﷺ فقد[2] :

١ - نزه الله علمه عن الضلال : « ما ضل صاحبكم » .

٢ - وعمله عن الغواية : « وما غوى »

٣ - ونطقه عن الهوى : « وما ينطق عن الهوى »

٤ - وفؤاده عن التكذيب : « ما كذب الفؤاد ما رأى »

٥ - وبصره عن الزيغ : « ما زاغ البصر » يعنى ما التفت إلى غير الجهة التى تعنيه .

٦ - وعن الطغيان : « وما طغى » والطغيان مجاوزة الحد

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك كله ، وأقسم عليه ولا ريب أنه ثناء من رب العزة على رسوله ﷺ .

﴿ الأحاديث النبوية ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى .. حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

« أتيت بالبراق : وهو دابة أبيض ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه[3] ولما دنوت من البراق لأركبه شمس بى فوضع

---

(١) سورة التكوير آيات ١٩ : ٢٤ .

(٢) من كتاب الإسراء والمعراج للدكتور عبد الحليم محمود .

(٣) عبارة : « ولما دنوت من البراق .. عن ابن اسحق عن قتادة لغاية : ثم قر حتى ركبته (حديث صحيح واسناده مرسل)

جبريل يده على مَعْرَفَتِهِ ثم قال : ألا تستحي يا براق مما تصنع ، فوالله يا براق ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه . قال : فاستحيا حتى أرفض عرقا ثم قر حتى ركبته . فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة فى الحلقة التى بالصخرة[1] ، ثم دخلت المسجد فوجدت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد . ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا .. فأخذ جبريل بيدى فقدمنى فصليت بهم ركعتين . ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن .

فقال جبريل : أصبت الفطرة .

قال الرسول ﷺ : ثم عُرِجَ بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل فقيل له

من أنت ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له :

من أنت ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : وقد أرسل إليه ؟

---

(١) عبارة « وجدت النبيين ما بين قائم » . . عن ابن مسعود .

قال : قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بالخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل فقيل له :

من أنت ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى شطر الحسن . فرحب بى ودعا لى بالخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير.

يقول الله تعالى « **ورفعناه مكاناً عليا** »[1] . ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت

قال : جبريل

فقيل : ومن معك ؟

قال : محمد

فقيل : وقد أرسل إليه ؟

---

(١) سورة مريم آية ٥٧ .

قال : قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير .. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟

قال : جبريل

فقيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : وقد بُعث إليه ؟

قال : قد بُعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟

قال : جبريل

فقيل : ومن معك ؟

قال : محمد

فقيل : وقد بُعث إليه ؟

قال : قد بُعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ... وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهبت إلى سدرة المنتهى . فإذا أوراقها كآذان الفيلة .. وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها !! قال : فأوحى الله إلى ما أوحى ، وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة . فنزلت حتى إنتهيت إلى موسى. قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة . قال : إرجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم . قال : فرجعت إلى ربى فقلت : أى رب خفف عن أمتى فَحَطَّ عنى خمسا . فنزلت حتى إنتهيت إلى موسى

فقال: ما فعلت ؟ قلت حط عنى خمسا . فقال : إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمسا خمساً حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .. فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى إنتهيت إلى موسى فأخبرته فقال : إرجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت »[1] .

قال البيهقى : وفى هذا السياق أن المعراج كان ليلة أسرى به ﷺ من مكة إلى بيت المقدس . ويقول ابن كثير عن ذلك : وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

٢ - ﴿ كيف حدث الإسراء والمعراج ﴾

فى إحدى الليالى نام محمد ﷺ فى دار بنت عمه هند بنت أبى طالب وكانت مشهورة بأم هانىء ، فلما كان قبيل الفجر هب محمد ﷺ من نومه فهب معه أهل الدار فتوضأ وصلى . ثم أقبل على أم هانىء فقال لها : يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة - كما رأيت - بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت الآن معكم كما ترين ودهشت أم هانىء لكلام رسول الله ﷺ .. كيف صلى بدارهم عشاء ، ثم صلى ببيت المقدس فى جوف الليل ؟ ! .. ثم ها هو ذا يصلى بينهم الآن ؟!

---

(١) رواه مسلم بهذا السياق .

وجلست أم هانىء إلى محمد ﷺ تستوضحه الأمر ، فقال لها ﷺ : يا أم هانىء .. بينما أنا نائم شعرت بمن ينبهنى من نومى فانتبهت ، فرأيت جبريل قد شق سقف البيت ، ونزل إلى منه ، وما كنت تعودت من جبريل أن يدخل إلى من سقف أو من حائط بل أجده أمامى حيث أكون . وأخذ جبريل بيدى وخرج وأخرجنى معه ثم أتى بى إلى موضع الحطيم من الكعبة ، وأضجعنى وشرح صدرى بأن شَقَّه ، وأتى بطست من ذهب مملوء إيمانا وحكمة فأفرغه فى قلبى ثم أطبق صدرى . ثم أُتيت بدابة بيضاء دون البغل وفوق الحمار ، فاعتليتها ومعى جبريل .. فما كان إلا كلمح البصر أو خطف البرق حتى كنت ببيت المقدس ، فصليت هناك ، وصلى ورائى الأنبياء فيه وأنصتت أم هانىء لهذا الحديث العجيب وهى دهشة ، ونظرت لمحمد ﷺ نظرة إكبار .. ثم نظرة إشفاق وقالت له : يا ابن عم لا تحدث بذلك أحداً فيكذبك من صدقك !! .. قال : بل سأحدث بذلك قريشا .

فقالت أم هانىء : أنشدك الله يا ابن عم ألا تحدث بذلك قريشاً فيكذبوك وينالوك بالضرر . فقال محمد ﷺ : بل لابد وأن أحدثهم بذلك .

وغادر محمد ﷺ أم هانىء إلى حيث مجالس قريش .. فلم يسع أم هانىء إلا أن ترسل خلفه جاريتها الحبشية تتبعه . وجلس محمد ﷺ إلى نفر من قريش ليحدثهم بما رأى .. ولكنه عاد فتردد .. وراجع نفسه فيما يكون منهم وتساءل أيصدقونه ؟ أم يكذبونه ؟ .. ثم أيحدثهم حديثه كله ؟ .. أيخبرهم بإسرائه ليلا إلى بيت المقدس ويعلمهم بمعراجه إلى ملكوت السماء؟؟!! .. أم يكتفى بأن يعرفهم بما عَرَّف به أم هانىء ؟ ومر وقت على رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه هذا يتجاذبه عاملان .. عامل الفرح والاستبشار والرضا بما حباه الله به من نعم ، حيث شرفه بأن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأكرمه بأن عرج به إلى السموات العلا حيث جلال الملكوت وجلال العرش .. وعامل خوفه إذا حدث بذلك

قريشاً فسخرت منه وكذبته .. وهو الذى يود أن يبين لها ما شاهد من عظمة الخالق ويظهر لها ما شاهد من آيات الله ... وأوقع هذا العامل فى نفس محمد ﷺ قلقاً وأورثه حزناً وغماً .. فجلس ساهما على غير عادته إذا جلس إلى الكعبة . ولاحظ الجالسون ما بمحمد ﷺ من وجوم على غير المألوف منه وكان من بينهم أبو جهل والمطعم بن عدى . فنهض أبو جهل إليه وسأله : ما بك يا محمد ؟ هل من شيء جديد ؟ . . وجد محمد ﷺ فرصته للكلام فقال : نعم .. أسرى بى قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس .. قال : وأصبحت بين ظهرا نينا ؟ قال نعم : .. وكاد أبو جهل أن ينفجر ضاحكا هُزْءاً من قول محمد ﷺ ولكنه ملك نفسه فقد وجد فى هذا القول خير سلاح لتحطيم محمد ، ووضعه موضع شك ، وَجَعْل أقواله محل ريبة ، فقال له مشجعاً : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى ؟ قال : نعم . فصاح أبو جهل ينادى أهل قريش : يا معشر بنى كعب بن لؤى .. فانفضت إليه المجالس تستطلعه الخبر . فقال لمحمد ﷺ : حدث قومك بما حدثتنى . فشرع محمد ﷺ يحدث القوم ببعض حديثه فقال : لقد أسرى بى الليلة إلى المسجد الأقصى على ظهر دابة إسمها البُراق ، فنشر لى رهط من الأنبياء منهم : إبراهيم وموسى وعيسى فصليت بهم هناك .

فضج أكثر الحاضرين بالضحك ، وقال أبو جهل : أنشر لك الأنبياء من موتهم ؟! صفهم لنا .. قال محمد ﷺ : أما عيسى فهو فوق الرَّبْعَة ودون الطويل ظاهر الدم ، أصهب الشعر ، كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس تخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى . أما موسى .. فضخم آدم « أسمر » طويل ، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بى خَلْقاً وخُلُقاً .

واستولى على القوم الذهول .. فمنهم من أعظم الأمر .. ومنهم من عجب ودهش .. ومنهم من إرتاب وشك .. ومنهم من كذب وسخر .. وأسرع

نفر إلى بيت أبى بكر صديقه الحميم يخبرونه هذا الخبر فقالوا له : يا أبا بكر ، هل لك إلى صاحبك ، يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال أبو بكر : أهو قد قال ذلك ؟؟ قالوا : نعم . قال : لئن قال ذلك لقد صدق قالوا: أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ ! قال أبو بكر : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، أليس هذا أبعد مما تعجبون منه ؟! .. وجاء أبو بكر إلى محمد ﷺ فى مجلسه بالكعبة ، والمشركون يقولون : إن أمرك يا محمد قبل الآن كان أمراً يسيراً ، أما قولك اليوم فيشهد أنك كاذب مختلق ، إننا لنضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس ذاهبين شهراً ، وعائدين شهراً وتزعم أنت أنك ذهبت إليه وعدت منه فى ليلة واحدة ؟!! واللات والعزى لا نصدقك ولا كان هذا الذى تقوله قط !!

فبادر أبو بكر فقال : إن محمداً لا يكذب أنا أشهد أنه صادق .

فقال المطعم : يا محمد .. صف لنا بيت المقدس ، وفطن أبو بكر إلى ما يبغى المطعم من إحراج محمد ﷺ . فطلب إليه ﷺ أن يصفه لهم لِيَثْبُتَ صدقه فقال له : صفه لنا يا رسول الله فإنى قد جئته :

فجعل رسول الله ﷺ يصف لهم بيت المقدس الذى لم يذهب إليه إلا فى إسرائه ويُعَدِّدُ لهم معالمه ، ويبين لهم صفته .. ومازال يصف حتى إلتبس عليه بعض الوصف ، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عُقيل فأتم وصفه وهو ينظر إليه ، والقوم ينصتون إلى دقة وصفه ، وقد أخذتهم الدهشة .. ويستمعون إلى قوله وقد ملكهم العجب !!! وأبو بكر يقول مع كل وصف : صدقت .. أشهد أنك رسول الله .. صدقت أشهد أنك رسول الله .. حتى إنتهى رسول الله ﷺ ثم قال لأبى بكر .. وأنت يا أبا بكر الصديق .. فيومئذ سماه الرسول ﷺ « الصديق » .

ولكنه ما كاد ينتهي من وصفه ، ويفرغ من حديثه حتى عاودتهم المكابرة فقالوا وهم يهزون رءوسهم متشككين : لقد وصفه لك واصف ، هات بَيِّنَة واضحة ، وسُق إلينا برهانا قويا .

فأخذ محمد ﷺ يصف لهم ما مَرَّ عليه في مسراه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ويخبرهم بمن صادف من العير ، وبما جاز من القرى .. وبما رأى من رواحل وعَرَّفهم عدد القوافل التي ستفد إلى مكة والتي شاهدها هو على مسيرة أيام منها ، ووصف لهم أحمالها ، ونوع دوابها وروى لهم أيضا أن قافلة قد ضل لها أحد جمالها ، وأنها ستصل وقت كذا ..

فقال المشركون : إننا لا نصدق ما تقول إلا إذا سألنا أصحاب هذه العير التي ذكرت وعرفنا منهم أين كانوا في هذه الليلة ورأينا بأعيننا ما تصف من صفاتهم .

ولم يلبثوا بعد مضى قليل من الأيام حتى وفدت على مكة القوافل التي استشهد بها محمد ﷺ فكانت أحمالها ودوابها كما وصف رسول الله ﷺ تماما وتأكدوا منهم ما حدثهم به الرسول تماماً حتى القافلة التي ضَلَّ جملها .. وتأكدوا من صدق قوله .

بيد أن المكابرين من المشركين عادوا إلى مكابرتهم ، ورجعوا إلى عنادهم وقالوا : لقد صدق الوليد بن المغيرة حين قال إن محمداً ساحر فها قد تأيد حدسه .

★★★

ولابد أن نذكر ولو بعض ما مر به رسول الله ﷺ حسب ما جاء في كتب السيرة :

في حديث عن الطبراني والبزار أنه عليه الصلاة والسلام مر ليلة أسرى به على قوم يزرعون ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال

لجبريل : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف الحسنة إلى سبعمائة ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت. فقال : ما هذا يا جبريل قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام) يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم . فقال : ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم نيء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من النيىء الخبيث ، ويدعون النضيج . فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال جبريل : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي إمرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح .. والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبييت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على آدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة . قال : ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة ، وريح مسك وسمع صوتا . فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتنى ما

وعدتنى ، فقد كثرت غرفى واستبرقى ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقرى ، ولؤلؤى .. ومرجانى . وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى. ومواكبى وعسلى .. ومائى ولبنى ، وخمرى فإتنى بما وعدتنى .

قال جبريل : والله سبحانه وتعالى يقول لها : « لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحاً ، ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونى أنداداً ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل علىّ كفيته .. إننى أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد . قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين » وتقول الجنة : فقد رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتا منكراً ، ووجد ريحا نتنة !! فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى ، وغساقى ، وعذابى وقد بعد قعرى ، واشتد حرى فآتنى ما وعدتنى .

قال جبريل : والله سبحانه وتعالى يقول لها : « لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب » وتقول النار : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

وفى رواية أبى سعيد عن البيهقى :

قال رسول الله ﷺ : دعانى داع عن يمينى أنظرنى أسألك ، فلم أجبه ثم دعانى آخر عن يسارى كذلك ، فلم أجبه .. وفيه : إذ إمرأة حاسرة عن ذراعيها ، وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت : يا محمد انظرنى أسألك فلم ألتفت إليها . وفيه أن جبريل قال : أما الداعى الأول فهو داعى اليهود ولو أجبته لتهودت أمتك . وأما الثانى فداعى النصارى ، ولو أجبته لتنصرت أمتك . وأما المرأة فالدنيا .

وفيه أنه مر بقوم بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خرَّ وأن جبريل قال : هم أكلة الربا .

وأنه مر بقوم مشافرهم كالإبل يلتقمون جمراً فيخرج من أسافلهم وأن جبريل قال له : هؤلاء يأكلون أموال اليتامى ظلماً .

وأنه مر بنساء تعلقن بثديهن ، وأنهن الزوانى ، وأنه مر بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون اللمازون .

وأخرج البزار عن طريق قتادة عن أنس :

أن محمداً ﷺ رأى ربه عز وجل ، وأخرج البخارى عن طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى « **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس** »[1] قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول: إن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين ، مرة ببصره ، ومرة بفؤاده .

وأخرج أيضا عن ابن عباس قال : نظر محمد ﷺ ربه .

قال عكرمة : فقلت له : نظر محمد إلى ربه ؟ قال : نعم .. جعل الكلام لموسى ، والخلة لإبراهيم ، والنظر لمحمد ﷺ .

وأخرج أحمد والنسائى والبزار والطبرانى والبيهقى ، وابن مردويه بسند صحيح عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :

قال رسول الله ﷺ : ولما أسرى بى ، مرت بى رائحة طيبة فقلت : ما هذه الرائحة ؟ قالوا : ماشطة بنت فرعون وأولادها ، سقط مشطها من يدها

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٠ .

فقالت : بسم الله .. فقالت إبنة فرعون : أبى ؟ قالت : ربى هو ربك ورب أبيك . قالت : أولك رب غير أبى ؟ قالت : نعم . فدعاها فرعون فقال : ألك رب غيرى ؟ قالت : نعم ربى وربك الله ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتُلقى فيها أولادها ، فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعا فيهم فقال الرضيع : قعى يا أمة ولا تقاعسى فإنك على الحق . قال: وتكلم أربعة وهم صغار ، هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم .

وأخرج الترمذى - وحسنه - وابن مردويه عن طريق عبد الرحمن عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ : لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأخرج أحمد وأبو داود عن طريق عبد الرحمن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ليلة أسرى بى أناس لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم .

وأخرج ابن ماجه والحكيم والترمذى فى « نوادر الأصول » وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن طريق يزيد بن أبى مالك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت لجبريل : ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة .

٣ - ٧ تعليل الاسراء والمعراج .

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التى بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ويقصد بالمعراج ما عقب هذه الرحلة من إرتفاع فى طباق السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق .. ولا يعرف كنهه أحد ، ثم الأوبة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة وقد أشار القرآن إلى كلتا الرحلتين فى سورتين مختلفتين . ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** » (الاسراء ١) .

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله : « **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى** » (النجم ١٣ , ١٨) فتعليل الإسراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يرى عبده بعض آياته ، ثم أوضحت آيات المعراج أن الرسول ﷺ شهد - بالفعل - بعض هذه الآيات .

إن الرسول ﷺ أسرى به وعرج .. كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما إخترع الناس حديثا ؟ لقد امتطى البراق ، وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه .. كأنه يمشى بسرعة الضوء ، وكلمة براق يشير إشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء سخرت فى هذه الرحلة لكن

---

(١) من كتاب (فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالى .

الجسم - فى حالته المعتادة - يتعذر عليه التنقل فى الآفاق بسرعة البرق الخاطف .. إذن لابد من إعداد خاص يحصن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد .

وأحسب أن ما روى عن (شق الصدر) وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم . . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز .. إن الإسراء والمعراج وقعا للرسول ﷺ بشخصه فى طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق ، وخفت فيه كثافة الجسد حتى تَفَصَّى ، من أغلب القوانين التى تحكمه .

وللشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى رأى فى هذا إذ يقول :

إنه إذا أردنا أن نتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج فإننا نبدأ بالآية الكريمة التى جاءت فى بدء سورة الإسراء ، يقول الحق سبحانه وتعالى : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ... » هذا النص القرآنى بدأه الله سبحانه وتعالى بقوله : «سبحان» ومعنى كلمة سبحان أنها تنزيه للحدث من أى شبهة مقارنة لأية قوة بشرية ، والله سبحانه وتعالى منزه فى ذاته وفى صفاته وأفعاله عن قوانين الدنيا كلها .. ولذلك فإن أى فعل يصدر من الله وتقف فيه العقول نقول : « سبحان الله » .. أى أنه فوق قوانين البشرية كلها .. أى أن هذا الفعل لا يخضع لقوانين البشر ، ولكنه يخضع لقدرة الله سبحانه وتعالى . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « سبحان الذى أسرى » والله جل جلاله هو الذى أسرى .. ومحمد ﷺ هو الذى أُسرى به . ثم بعد ذلك يقول الحق «بعبده» وهو رسول الله .

إذا جئنا للفعل وهو الإسراء .. فلابد أن ننسبه إلى فاعله وهو الله

سبحانه وتعالى فالفعل لم يقع من رسول الله ﷺ ، وإنما حدث من الله ، ولم يقل رسول الله ﷺ : أنا سريت حتى ننسب الفعل إلى قانون بشرية الرسول ﷺ ، كما قال الكفار : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة : لقد كانت الرحلة من مكة إلى بيت المقدس تستغرق شهرين فى ذلك الوقت .

إذن وجه المقارنة هنا معدوم .. ومقارنة الكفار بالإسراء بالنسبة لقوتهم البشرية هى مقارنة تدل على الغباء .. لأن محمداً ﷺ لم يقل إنى سريت ، ولكن قال أسرى بى .. إذن فرسول الله ﷺ محمول على نطاق قوة أخرى بلا حدود ، ولا قيود . وإذا أردنا لذلك مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان ، نقول : إذا قلت لقد صعدت بابنى الرضيع إلى قمة أعلى جبل فى العالم .. وإنما قد يتساءلون : كيف صعدت أنا ؟ .. لأن الصعود ليس منسوبا لقوة الرضيع ، وإنما هو منسوب لى . والزمن دائما ينسب لقوة الفاعل .. فإذا سافرت ماشياً نسب الزمن إلى قوة قدميك ، فإذا كنت فى سيارة يكون الزمن أقل لأن السيارة أقوى من القدمين وأسرع وإذا كنت فى صاروخ كان الزمن أقل لأن قوة الصاروخ أكبر ... فإذا نسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى فلا زمن لأنه الله .

قد يأتى إنسان ويقول إذا كان الفعل من الله بلا زمن فلماذا استغرق الإسراء ليلة ؟ نقول هناك فرق بين حدث الإسراء فى ذاته ، وبين مراء تعرض لها رسول الله ﷺ ، فالرسول حين تعرض لمراء فى الإسراء .. فهذه هى التى احتاجت للزمن ، لأنه رآها ببشريته .. أما الرحلة ذاتها فلم تحتاج إلى زمن .

ولكن الأسئلة لا تنتهى حتى فى عصرنا الحديث الذى أعطى فيه الله سبحانه وتعالى عباده من العلم البشرى ، ومكنهم من قوانين الأرض

فاخترعوا وسائل للمواصلات تختصر الزمن .

والسؤال هنا : كم من الزمن تستغرق رحلة الصاروخ من مكة إلى بيت المقدس ؟ دقائق أو أقل .. وإذا كان هذا هو الذى وصلت إليه قدرات البشر بما كشف الله لهم من علمه ... فكيف بقدرات الله ؟!

إذن فالحديث عن الزمن لا محل له ، ولكن بعض الناس يتساءلون : هل تم الإسراء بالروح فقط ؟ أم بالروح والجسد ؟ .. نقول : لو أنه تم كرؤيا منام لما قال الكفار : أتدعى أنك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، لأن المنام أو الرؤيا فى النوم لا تناقش مع من رأى . فإذا قال لك إنسان أننى رأيت فى منامى أننى ذهبت إلى لندن ثم إلى أمريكا ثم إلى استراليا فإنك لا تناقشه .

ولذلك لو كان الإسراء مناماً ما ناقش أحد رسول الله ﷺ ، ولكنهم عرفوا أن رسول الله ﷺ يتحدث عن رحلة تمت فى اليقظة وليست فى المنام، وتمت بالجسد والروح معا .. ولكن العقول التى تبحث فى القرآن لتوجد تضاربا وهميا بين ما قاله رسول الله ﷺ تدعى أن القرآن نفسه قد قال إنها رؤيا منامية وذلك فى قوله تعالى : « **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس** »[1] وكلمة (الرؤيا) بالألف لا تأتى إلا للمنام ، لأن (الرؤية) البصرية قالوا فيها رؤية .

ونحن نقول : إذا كانت رؤيا منام فكيف تكون فتنة للناس ؟! بعضهم يصدق وبعضهم يكذب ؟ .. إن المنام لا يناقشه أحد تكذيبا أو تصديقا . وإذا عدنا للغة العربية نجد أن كلمة رؤيا وردت للرؤية البصرية .. فالراعى النميرى أعرابى وهو شاعر عربى قال :

---

(١) سورة الاسراء آية ١٠ .

فكبّر للرؤيا وهش فؤاده   وبشر نفسا كان قبل يلومها

والمتنبى يقول : ورؤياك فى العينين أحلى من الغمض

إذن فالرؤيا فى اللغة تستخدم بمعنى أنها بالبصر يتم عادة فى الأشياء الغريبة التى رأيتها بعينيك وأنت تتعجب منها وكأنها لا يمكن أن تدرك إلا في الأحلام .. وما دامت رؤيا رسول الله ﷺ قد جعلت فتنة فلا يمكن أن تكون مناماً .

إذن فرسول الله ﷺ أسرى به بالجسد والروح معا .. نلاحظ فى الآية الكريمة : « سبحان الذى أسرى بعبده » ولم يقل برسوله أو بمحمد .. بل أتى بصفة العبودية لله سبحانه وتعالى لأن كل الديانات جاءت لتصحح عبوديتنا لله سبحانه وتعالى ولابد أن يكون الرسول قدوة فى العبودية .. وهذه الكلمة جاءت أيضا حتى يمكن الرد على الذين يقولون أن رسول الله ﷺ أسرى به روحاً أو مناماً .. فإن كلمة العبد لا تطلق إلا على الروح والجسد معا .

وبداية الإسراء ونهايته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. أى أن الاسراء بدأ من أول بيت وضع للناس فى الأرض إلى المسجد الأقصى ، وهو مشهد مقدس من مشاهد الله فى الأرض . وهنا يبرز إعتراض آخر . كيف يقول الحق سبحانه وتعالى (إلى المسجد الأقصى) مع أن المسجد للمسلمين فقط ، ولم يكن المسلمون قد دخلوا بيت المقدس بعد نقول : إن كلمة مسجد تطلق على مكان السجود ، فكل مكان يسجد فيه الإنسان لله الواحد الأحد هو مسجد ، والسجود لم يأت مع الإسلام ، وإنما كان فى كل الأديان ، وبيت المقدس له قدسيته مع موسى وعيسى عليهما السلام ورسول الله ﷺ لم يبعث لقومه فقط .. ولكنه بعث للناس كافة .. وإسراؤه يوضح أن الإسلام مهيمن على كل المقدسات فى الأرض .. ورسول الله ﷺ يقول «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » .

﴿ لماذا كانت رحلة الإسراء إلى بيت المقدس ﴾

وهناك سؤال يطرح نفسه يجيب عليه الإمام محمد الغزالى قال :

لماذا كانت رحلة الإسراء إلى بيت المقدس ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة ؟! إن هذا يرجع إلى تاريخ قديم ، فقد ظلت النبوات دهوراً طوالاً وهي وقف على بنى إسرائيل .. ظل بيت المقدس مهبط الوحى ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار فلما أهدر اليهود كرامة الوحى ، وأسقطوا أحكام السماء ، حلّت بهم لعنة الله وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد .. ومن ثمّ كان مجيىء الرسالة إلى محمد ﷺ إنتقالا بالقيادة الروحية فى العالم من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد .. ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل .

وقد كان غضب اليهود مشتعلا لهذا التحول مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره : « **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب** »[1] .

لكن إرادة الله مضت وحملت الأمة الجديدة رسالتها ، وورث النبى العربى تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب .. وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها .. فكان من وصل الحاضر بالماضى .. وإدماج الكل فى حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين فى الإسلام .. وأن ينتقل إليه الرسول فى إسرائه فيكون هذا الإنتقال إحتراما للإيمان الذى درج - قديما - فى رحابه .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٩٠ .

ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية فى هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة .. إن النبوات يصدق بعضها بعضاً ، ويمهد السابق منها للاحق ، وقد أخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل بذلك :

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »[1] .

وفى السُّنة الصحيحة أن الرسول ﷺ صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين فى المسجد الأقصى ساعة وصوله هناك ووجدهم فى إستقباله ، فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه .. أخذت تمامها على يد محمد ﷺ بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين .

والكشف عن منزلة محمد ﷺ ودينه ، ليس مدحاً يساق فى حفل تكريم بل هو بيان حقيقة مقررة فى عالم الهداية ، ومنذ تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء فى إبانه المناسب . فإن جهاد الدعوة الذى حمله محمد ﷺ على كواهله ، عرضه لعواصف عاتية من البغضاء والإفتراء .. ومزّق شمل أتباعه فما ذاقوا - مذ آمنوا به - راحة الركون إلى الأهل والمال !! وكان آخر العهد بمشاق الدعوة طرد (ثقيف) له !! ثم دخوله البلد الحرام فى جوار مشرك !!! ... إن هوانه على الناس - مذ دعاهم إلى الله - جعله يجأر إلى رب الناس شاكيا راجيا !!! فمن تطمين الله له ، ومن نعمائه

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨١ .

عليه أن يهيىء له هذه الرحلة السماوية لتمس فؤاده المعنىً ببرد الراحة .. وليشعر أنه بعين الله ، مذ قام يوحده ويعبده .. ويعلم البشر توحيده وعبادته كان يقول : « إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » .. فالليلة عَلِمَ أن حظه من رضوان الله جزيل وأن مكانته بين المصطفين الأخيار موطدة مقدمة .

إن الإسراء والمعراج يقعان قريبا من منتصف فترة الرسالة التى مكثت ثلاثة وعشرين عاماً وبذلك كان علاجاً مسح متاعب الماضى ، ووضع بذور النجاح للمستقبل .

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى فى ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم فى توهين كيد الكافرين ، وتصغير جموعهم ، ومعرفة عقباهم . وقد عرف محمد ﷺ فى هذه الرحلة أن رسالته ستنساح فى الأرض وتتوطن الأودية الخصبة فى النيل والفرات .. وتنتزع هذه البقاع من مجوسية الفرس ، وتثليث الروم .. بل إن أهل الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً بعد جيل .

٤ - ﴿ رؤية الآية الكبرى ﴾

يقول الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى :

إن القرآن الكريم حين تعرض للإسراء تعرض له بمقدمات أرضية كالأحداث التى رآها رسول الله ﷺ فى الطريق .. ووصفه المسجد الأقصى وغير ذلك . وكانت هذه الأشياء المادية مقدمة للمعراج .. حتى إذا تأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى قد خرق لرسوله قانون المسافة فيما نعلم ، فإنه قادر على أن يخرق له قانون العلو فيما لا نعلم عندما عرج برسوله ﷺإلى سدرة المنتهى . والقرآن حين تعرض لحديث الإسراء تعرض له صراحة،

وعندما تحدث عن المعراج تعرض له كما يقولون إلتزاما .. والله سبحانه وتعالى لم يقل : سبحان الذى عرج بعبده من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى إنما قال جل جلاله : « **والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى** .. إلى الآية .. ٨) (سورة النجم من ١ : ٨) .

وذكر سدرة المنتهى والوقوف عندها ، ورؤية آيات ربه الكبرى ، يجب أن نعلم منها أن رسول الله ﷺ صعد إلى (سدرة المنتهى) .. ولكن لماذا لم يأت بها الله سبحانه وتعالى نصاً ؟ نقول : إن هذا إختبار لليقين الإيمانى فى النفس البشرية .. فمادمت مؤمناً بأن رسول الله ﷺ قد خُرِقَ له قانون المسافة ، فإنك تؤمن أنه خرقت له قوانين الصعود إلى السماء . ولماذا تريد أن نقيس معجزة حدثت لرسول الله ﷺ بعقولنا .. بينما معجزات الأنبياء كانت فوق قدرات العقول ؟؟ فإلقاء إبراهيم فى النار ثم تكون برداً وسلاماً عليه ، معجزة لا يستطيع أن يدركها عقل لأن خاصية النار هى الإحراق .

وإنشقاق البحر لموسى عليه السلام معجزة لا يمكن أن يدركها العقل لأن خاصية الماء الإستطراق .. وإحياء الموتى ، وشفاء الناس بمجرد اللمس معجزة لعيسى عليه السلام لا تخضع لقوانين العقل ...فلماذا كل هذه المعجزات ننسبها إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، ثم نأتى إلى معجزة الإسراء ونناقشها عقلاً ؟؟! .. ومادام محمد ﷺ محمولاً بقانون الحق سبحانه وتعالى ، فإن كل شيء مصدق لأنه بقدرة الله .

فكأن الإسراء جاء آية أرضية لأن البشر يعلمون بيت المقدس والمسجد الأقصى ، ومنهم من ذهب هناك .. إذن فقد قام الدليل الأرضى على صحة الإسراء .. وكان ذلك مقدمة للتصديق بأن الله سبحانه وتعالى الذى خرق

لرسوله ﷺ قانون المسافة والزمن فى الإسراء خرق له قانون السموات السبع فى المعراج لأن أحداً من البشر لم يصعد إلى السموات السبع على أننا يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم قال : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا** » فكان الفعل هنا (إراءة) . ما هى الإراءة ؟ هى أن تجعل من لا يرى يرى .. كيف ؟ ،وأبسط مثل يمكن أن يضرب لهذه المسألة هو أن الإنسان ضعيف النظر عندما يذهب إلى طبيب العيون يشكو قصر نظره ، يضع الطبيب على عينيه زجاجا معينا فيرى مالم يكن يراه ، وعدم الرؤية هنا ليس دليلاً على عدم وجود شىء ، ولكنه دليل على عدم إدراك هذا الشىء .

إذن فالإراءة إما أن تكون تغيير قانون الرائى ، وإما بإعطائه شيئاً ليرى بذاته . والإسراء كان على الأرض بقانون البشرية لمحمد ﷺ ، وقانون الإبصار خاضع للضوء .. فإذا كانت هناك آيات من غيب الله فى الأرض ، فلابد أن يحدث لرسول الله ﷺ ما يجعله يرى لأنه بطبيعته البشرية لا يرى هذه الأشياء . ولكن حينما ينتقل رسول الله ﷺ إلى الملأ الأعلى ويلتقى بالأنبياء الذين ماتوا قبله .. ويلتقى بالملائكة ويحدثهم ، فلابد أن الحق سبحانه وتعالى قد غير بشرية رسوله ﷺ إلى الملائكية ، ولذلك عندما صعد إلى السماء قال الله سبحان وتعالى : « ولقد رأى من آيات ربه الكبرى » ولم يقل أريناه .. فكأن رسول الله ﷺ قد أخذ وضعا آخر فى السماء ، فأصبح بذاته يرى . ولذلك فإن الملائكية أصبحت هى المسيطرة على الرسول الكريم فكأن المعجزة تمت على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كان بشراً وجبريل عليه السلام يعرض عليه الأشياء فيقول ما هذا يا جبريل فيقول : كذا وكذا .

والمرحلة الثانية : حين صعد إلى السماء كانت له ذاتية مختلفة فاهمة ، بحيث أصبح يرى بنفسه ويرى الملائكة ويخاطبهم .

والمرحلة الثالثة : أن رسول الله ﷺ ارتقى ليصبح أعلى من أقرب الملائكة إلى الله وهو جبريل عليه السلام ، لأنه حين طلب من جبريل أن يتقدمه إلى سدرة المنتهى قال جبريل : هنا مكانى لو تقدمت لاحترقت وأنت لو تقدمت لاخترقت .

إذن فقد وصل رسول الله ﷺ إلى درجة لا تتحملها ملائكية جبريل عليه السلام فأصبح هو وحده الذى يستطيع أن يتقدم ويخترق .. أما ملائكية جبريل عليه السلام فلم تكن تتحمل التقدم ، ولا تحتمله لأنه كان سيحترق .

وقال الله سبحانه وتعالى : «**ولقد رأى من آيات ربه الكبرى**» .

إخبار من الحق ، وليس إخبار من محمد ﷺ .. ومعناه : أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه ، ومادام قد رأى الآية الكبرى ، فلابد أنه رأى قبلها آيات وآيات ومعنى أنه رأى من آيات ربه الكبرى .. أنه رأى الكبرى من آياته .. فكأن الكبرى هى المفعول وليست وصف الآيات .. ماذا رأى ؟؟!!

رأى الكبرى .. أى الآية الكبرى ، ولقد كان جبريل عليه السلام معه فى الأرض ومعه فى السماء ، ولكن الآية الكبرى التى لم يقدر عليها جبريل ولا أحد من الملائكة قد انفرد برؤيتها رسول الله ﷺ .

﴿ حكمة الإسراء ﴾

الله سبحانه وتعالى يتيح لرسله فرص الإطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه وإستناداً إليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة . . ويهاجمون سلطانهم القائم . فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته .. وكانت حكاية العصا ، فلما ملأ قلبه إعجابا بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد : « **إذهب إلى فرعون إنه طغى** »[1] .

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج :

١ - **إطلاع نبيه على هذه الآيات الكبرى** : وربما تقول إن ذلك حدث بعد الرسالة بقريب من إثنى عشر عاما على عكس ما وقع لموسى .. وهذا حق .. وسره أن الخوارق فى سير المرسلين الأولين قصد بها قهر الأمم على الإقتناع بصدق النبوة فهى تدعيم لجانبهم أمام إتهام الخصوم لهم بالإدعاء ، أما سيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى ، فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهى من أول يوم .. وجاءت الخوارق فى طريق الرسول ضرباً من التكريم لشخصه والإيناس له ، غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلى العادى الذى اشترعه الله فى القرآن[2] . وقد إقترح المشركون على النبى أن يرقى فى السماء فجاء الجواب من عند الله : « **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً** »[3] .. فلما رقى إلى السماء بعد لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدى أو إجابة على الإقتراح السابق ، بل كان الأمر - كما قلنا - محض تكريم ومزيد إعلام من الله لعبده .

---

(١) سورة طه آية ٢٤ .

(٢) انظر إلى كتاب الشيخ الغزالى (عقيدة المسلم) .

(٣) سورة الإسراء من الآية ٩٣ .

٢ - **إكمال البناء** : وقصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة وهذا المعنى من أصول الإسلام : « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** »(١) .

والتحيات المتبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الآصرة ففى كل سماء أحل الله فيها أحد رسله كان النبى يُستقبل فيها بهذه الكلمات : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح . والخلاف بين الأنبياء وَهْمٌ صَنَعَتْهُ الأمم الجائرة عن السبيل السوى ، أو بالأحرى صنعه الكهان والمتاجرون بالأديان .

أما محمد ﷺ فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذى تعهده من سبقوه ومنع الزلازل من تصديعه قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين »(٢) .

٣ - **سلامة الفطرة** : وفى ليلة الإسراء تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهى أنه دين الفطرة ، ففى الحديث الذى ذكرناه سالفا « .. ثم أتيت بإناء من خمر وإنا من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : هى الفطرة التى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٣٦/٦) ومسلم (٦٤/٧-٦٥) من حديث أبى هريرة .

أنت عليها وأمتك »[١] .

إن سلامة الفطرة هى لب الإسلام .. ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة ، عليل القلب .. إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قذرا وسواداً .. وربما أخفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ومظاهر مزوقة بيد أن ما ينطلى على الناس ، لا يخدع رب الناس .

٤ - **فرض الصلاة :** وفى المعراج فرضت الصلوات الخمس لتكون معراجا يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا . والصلوات التى شرع الله غير الصلوات التى يؤديها - الآن - كثير من الناس ، وعلامة صدق الصلاة : أن تعصم صاحبها من الدنايا ، وأن تخجله من البقاء عليها إن ألمّ بشىء منها فإذا كانت الصلاة - مع تكرارها - لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة فهى صلاة كاذبة . الصلاة صلة بين العبد وربه فكيف يكون خاطرك سارح هنا وهناك وأنت بين يدى الله وفى حضرته وفى معيته ؟!

الصلاة طهور كما جاء فى السنة ، إلا أنها طهور للإنسان الحى .. لا للجثة العفنة إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحى من غبار عارض .. والأعراض التى تلحق المرء فى الحياة فتصدىء قلبه كثيرة ... ومطهراتها أكثر ، وفى الحديث : « فتنة الرجل فى أهله وماله وولده ونفسه وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[٢] .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان .

(٢) حديث صحيح من رواية حذيفة بن اليمان أخرجه البخارى .

أما أصحاب القلوب الميتة فالصلاة لا تجديهم فتيلا .. ولن يزالوا كذلك حتى تحيا قلوبهم أو يواريها الثرى . وكانت الصلاة هى ثمرة الإسراء والمعراج وهى هدية السماء ، وهى النعمة العظمى ، والتجلى الإلهى الأكبر.

فالصلاة هى الصلة به سبحانه وتعالى ، وهى الكيفية ، وهى الطريقة، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .. إنها فترة مناجاة .. فترة إنقطاع كامل - ويجب أن يكون كاملاً - عن عالم المادة، وعن عالم الشهوات .. عالم الفتنة لتخلص النفس إلى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به ، والقرب منه . . ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين !! إن إقامة الصلاة ، أو إقامة الدين إنما هى إقامة الصلة بالله .. وتحقيق ذلك هو المثل الأعلى والغاية العظمى والسعادة التى يجرى وراءها المؤمنون ؛ ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى .. وما من شك فى أن الصلاة يقيمها الإنسان كما أراد الله ورسوله من أنجع الوسائل فى القرب من الله ، إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن فى سرعة سريعة طبقات البعد عن الله سبحانه وتعالى ليصل إليه تعالى فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا وغيرها من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما هى التى يجب أن ننتبه إليها ، وأن نأخذ فى تأملها والإنسجام معها.

ولا يتأتى لنا - عجزاً وقصوراً - أن نتحدث عن الحمد وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية فى هذه الليلة المباركة .

ويجدر بنا أن نذكر ملحوظة سجلها الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (لمحات من حياة الرسول) قال : إن الله سبحانه وتعالى أخذ يتحدث فى سورة (النجم) عن آفاق عليا .. وعن أجواء إلهية جليلة .. وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانى حسرى ذاهلة .. لقد أخذ الله سبحانه وتعالى يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى .. ثم .. ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف .. هوى بنا فى سرعة رهيبة دون سابق إنذار ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوى من الشرك يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا فقال سبحانه بعد أن ذكر هذه التجليات : « **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** »[1] .

لقد أرانا سبحانه بهذه الكلمات : البشرية المسكينة فى ضلالها الدينى وفى إنحرافها الذهنى إن كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث عن أن رسول الله ﷺ أسرى بجسمه وبروحه ، أو بروحه فقط .. أو أسرى به يقظة أو مناما إنما هو بذلك ينحدر مختاراً من التجلى ، ليهوى منتكساً إلى جو اللات والعزى !! وينحدر بها منتكساً من جو سدرة المنتهى إلى الجو المادى .. ومن مجالات النور السماوى المتلألأ إلى ظلمة الجدل وزيغ المماراة فى الدين . . فلننصرف عنه ، ولنتركه وما إختار مبتعدين عن الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين : « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب** »[2] .

★★★

---

(١) سورة النجم آية ١٩ - ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران ٨ .

﴿ قريش والإسراء ﴾

فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله ﷺ الناس بما تم له ، وما شهد من آيات ربه الكبرى .. والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض أتراهم يصدقون به فى السماء ؟! لقد طاروا يجمع بعضهم بعضا ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكاراً لرسالة محمد ﷺ وريبة من أمره .. وهكذا كانت معجزة الإسراء والمعراج معجزة كبرى .

وعاد رسول الله ﷺ ليواصل دعوته .. وقد كرمه الله سبحانه وتعالى فى ملكوته وفى سمائه بما لم يكرم به رسولاً غيره .. وبدأت الدعوة تنتشر ويزداد عدد المسلمين .. وتقوى شوكتهم .. بل لم تقتصر دعوة الرسول ﷺ على أهل مكة فحسب ، بل كان فى موسم الحج يلتقى مع وفود القبائل ويدعوهم إلى الإسلام .. مضى رسول الله ﷺ على نهجه القديم ينذر بالوحى كل من يلقى .. ويخوض بدعوته المجامع .. ويغشى المواسم .. ويتتبع الحجيج فى منازلهم ، ويسير إلى أسواق (عكاظ) و (مجنة) و (ذى المجاز) داعياً الناس إلى نبذ الأوثان ، والإستماع إلى هدى القرآن .. وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه .. وكان عمه أبو لهب يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب ، فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ، ثم يردونه أقبح رد ... !

ومن القبائل التى أتاها الرسول ﷺ ، ودعاها إلى الله فأبت الإستجابة له :

(فزارة - وغسان - ومره - وحنيفة - وسليم - وعبس - وبنو النضر

- وكنده - وكلب - وعذره - والحضارمة - وبنو عامر - وصعصعة - ومحار بن حفصة) .... الخ .

ما وجد في هؤلاء قلبا مفتوحا ، بل كان الراحلون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه .. وكان الرجل يأتى من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة : إحذر غلام قريش لا يفتنك ! . . ومع ذلك فإن الرسول ﷺ - فى هذا الجو القابض - لم يخامر اليأس قلبه واستمر مثابراً فى جهاد الدعوة .

وكانت قريش قد أعلنتها حربا لا هوادة فيها على رسول الله ﷺ ، وعلى أتباعه من بقايا المسلمين ، بعد أن شدَّ أزرها وقوَّى من شوكتها تَضَعْضُع المسلمين بإرتداد عدد كبير منهم من ضعاف الإيمان بعد (الإسراء) الذى لم يستطيعوا - لقِصَرِ عقولهم ، وإنطماس قلوبهم ، وظلام بصيرتهم - أن يدركوا حكمة الله فيه . لذلك آلت قريش على نفسها أن تحارب البقية الباقية من المسلمين ، وأن تطاردهم بأذاها حتى تفتنهم عن دينهم .

ولكن محمدا صلوات الله وسلامه عليه كان من الصابرين على إيذائهم .. وكان لهم من المحاسنين المناصحين .

حُرِم مشركو مكة الخير كله منذ جحدوا الرسالة وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا ، ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة فى منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام .. فإن الحق لابد أن يعلو ، وأن يثوب إليه المضللون ، والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهله أوفياء له حريصين عليه صابرين محتسبين .

وقد قيض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التى صادرته ، فأنس بعد وحشة .. واستوطن بعد غربة ، وشق طريقه فى الحياة ، بعد أن زالت

الجلامد الصلدة الملقاه فى مجراه .. بدأ هذا التحول على أيدى الوفود القادمة من يثرب إلى مكة فى موسم الحج ..

كان أهل يثرب[1] يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود ، وإلفهم عقيدة التوحيد .. وربما حاورهم اليهود فى شئون الأديان ونعوا عليهم عبادة الأوثان .. ، فإذا إشتد الجدل ، وطالت اللجاجة قالت لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ... والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبى يوم ظهر فيهم . واقترب منهم .. ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض : « **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** »[2] .

أما العرب الأميون الذين هُدُّوا ببعثه فقد فتحوا مسامعهم له . فعندما وافى الموسم وقَدِمَتْ قبائل يثرب ورأوا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله ، قال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم إن هذا الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

وأخذ ذكر الإسلام يشيع فى المدينة رويداً رويداً ، فإن لم يستقبل بترحيب ، لم يستقبل بالسباب والحراب .

إن عناصر النفور والمقاومة التى عهدها فى مكة تحولت - هنا - إلى عناصر إحترام وإقبال ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالإسلام حتى أصبحوا كهفه الحصين ، وموئله القريب ..

---

(١) كانوا يسمون المدينة يثرب . وسماها الرسول طيبة أخرجه مسلم (١٢١/٤) والطيالسى ورواه أحمد .

(٢) سورة البقرة آية ٨٩ .

﴿ دعوة الوفود إلى الإسلام ﴾

وممن آمن وتبع الرسول ﷺ وصدقه من الوفود القادمة « الطفيل الدوسى » ، وكان رجلا شريفا شاعراً لبيباً .. حذّرته قريش من محمد ﷺ حين وفد إلى الكعبة للحج فلما أراد الطواف سدَّ أذنيه حتى لا يسمع محمداً إذا كلمه ، وأتى الكعبة والرسول ﷺ يصلى فيها ، فكان كلما مَرَّ سمع بالرغم من سد أذنيه بعض ما يقول محمد ﷺ .. ففكر فيما سمع فوجده كلاما جميلاً فقال لنفسه : واثُكْلَ أمى !! والله إنى لرجل شاعر لبيب ما يَخْفَى علىّ الحَسَن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإن كان الذى يأتى منه حَسَناً قبلته ، وإن كان قبيحا رفضته !! .

فلما إنصرف محمد ﷺ إلى بيته تبعه الطفيل إليه ، وقَصَّ عليه أمره، فقرأ عليه محمد ﷺ من القرآن ما ملأ قلبه خشوعاً .. ونزل على فؤاده برداً وسلاماً ، فلما دعاه محمد ﷺ للإسلام أسلم بإيمان وقوة ، ثم قال : يا نبى الله : إنى إمرؤ مطاع فى قومى ، وإنى لراجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فلما عاد دعا أهله إلى الإسلام فأسلموا لثقتهم به ، ثم أسلم قومه من بعده.

شاع خبر محمد ﷺ وذاع فى بلاد الجزيرة ، فأتى إليه وفد من النصارى بوِفَادَة من قومهم حين وصل إليهم خبره ليستجلوا لهم شأنه : فلما استمعوا إلى ما تلا عليهم محمد ﷺ من قرآن فاضت أعينهم بالدمع ، واستجابوا له وآمنوا وصدقوا بما عرض عليهم ، وانصرفوا عنه مسلمين فاعترض طريقهم أبو جهل ونفر من قريش فقالوا لهم : خَيَّبكم الله من ركْب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن

مجالسكم عنده ختى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال !! فلم يلتفتوا إليهم ولم يسمعوا منهم ، وتركوهم إلى قومهم يبشرون بالدين الجديد .

وكان ممن مال قلبه للإسلام - عند سماعه للرسول ﷺ أيضا - ثم أسلم: « سُوَيْد بن صامت » وكان من كبار أشراف يثرب ، وكان قومه يسمونه (الكامل) لجَلَدِه وشعره وشرفه ونسبه .. وكان قد جاء مكة حاجا ، فجاءه محمد ﷺ ، فعرض عليه الإسلام ، ودعاه إلى الله فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .. فسأله محمد ﷺ : وما الذى معك ؟ قال سويد : حكمة لقمان . قال محمد ﷺ : أعرضها على .

فعرض عليه سويد ما يعرف واستمع له محمد ﷺ ، ثم قال له : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه .. قرآن أنزله الله تعالى عَلَيَّ هو هدى ونور .. ثم تلا عليه القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فاستجابت نفس سويد له وقال :

هذا حسن ، وانصرف إلى المدينة بعد أن استوعب فى ذهنه ما سمع .. وأخذ بفكر فيما دُعِيَ إليه . فلما قتل بعد ذلك فى الحرب الأهلية التى دارت رحاها بين قبيلتى الأوس والخزرج سكان المدينة بدسٍّ اليهود شركائهم فى السكن ، كان سويد قد أسلم .

وممن وفد أيضا من المدينة وأسلم « إياس بن معاذ » وكان غلاماً حدثاً وفد فى رفقة وفد أتى يلتمس من قريش الحلف على قومهم من الخزرج إذ كان كل من الأوس والخزرج يلتمس الحلفاء من قبائل العرب إستعداداً لمقاتلة كل فريق منهم الآخر .. فلما أتاهم محمد ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ، ويتلو عليهم القرآن ، قال إياس لقومه : أى قوم هذا والله خير مما جئتم فيه !! ولكن قومه لم يستمعوا إليه لما هم فيه من شاغل الحرب بينهم وبين جيرانهم بالمدينة وقالوا له : دعنا منك فلقد جئنا لغير هذا ، وعادوا وقد أسلم إياس.

ومع أن رجال وفد الأوس رفضوا دعوة محمد ﷺ وأعرضوا عنها .. إلا أنهم عادوا وفى أنفسهم أثر منها ، وفى ذهنهم ذكر لها .

ثم لم تلبث نار الحرب أن شبَّت بين الأوس والخزرج فى المدينة حتى كاد لظاها أن يفنيهم جميعاً فلما انتهت بإنتصار الأوس بمحالفة اليهود .. نظرت القبيلتان إلى حالهما فهالهما عِظَمُ ما مُنِيَتَا به فى هذه الحرب التى سُميت (يوم بعاث) من خسارة فى الأرواح والأموال ، وذهاب للجاه ، ووجدتا أنهما قد غَدَتَا المنتصرة منهما والمهزومة موالِىَ وأتباعاً لليهود . فرجعا القوم إلى أنفسهم بعد أن هالهم فداحة ما نالهم فعزموا على الإتحاد ، ثم عقدوا بعد ذلك صلحاً إرتضوا فيه أن يكون الرئيس على القبيلتين رجل واحد ورشحوا لهذا المنصب (عبد الله بن أُبَى) لعظم مكانته .. إلا أن تطور الأمور بعد ذلك غَيَّر ما دَبَّروه واتفقوا عليه ، وكان مما خُبِّىء لهم من عز وإتحاد ورياسة خيراً مما أرادوه وارتضوه لأنفسهم .

★★★

﴿ الفرق بين حال مكة والمدينة ﴾

عاشت مكة فى بحبوحة من الحياة أمداً طويلاً آمنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وترجع هذه السعة إلى عاملين : ١ - مهارة أهلها التجارية - ٢ - مكانة الحرم الدينية . كلا الأمرين أدرَّعليها أخلاف الخير فأثرت حتى بطرت وشبعت حتى أتخمت .. ثم عراها ما يعرو كل جماعة تواتيها الحظوظ ويصبغها الترف من تكبر وقسوة وجحود .. فلما ظهر الإسلام ودعا محمد ﷺ إلى الحق رَدَّت يده فى فمه ، وأحدقت به وبمن معه وملكها العناد من أول يوم .. وأعلنت أن مركزها - عاصمة للوثنية ومجمعاً للأصنام ومثابة للحجيج - سيزول إن هى إستمعت لهذا الدين ، وأمكنته من البقاء.

وحاول الرسول ﷺ - جاهداً - أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذى مُتِّعوا به فأبى الظالمون إلا كفورا !! « **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا لكن أكثرهم لا يعلمون** »(١) .

ومن هنا إشتبك سادة مكة فى حرب مع الإسلام اعتبروها دفاعا عن كيانهم المادى ، ووضعهم الإقتصادى إلى جانب ما هنا لك من عوامل أخرى.

وهذه الحروب معروفة النتائج « **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين** »(٢).

أما الأمر فى يثرب .. فقد كان على النقيض .. إن الشحناء المتأصلة بين أهلها استنزفت دماءهم وقطعت شملهم ، وشغلت بعضهم ببعض ، حتى أوصلتهم الحروب الدائمة إلى درك أُسِفَ له العقلاء وتمنوا الإنقاذ منه .. كان « الأوس » « والخزرج» - وهم فى الأصل قرابه واحدة - يعانون فى يثرب آصار الخصام العنيف ، ويورثونه أبناءهم حتى يشبوا - وهم فى مهادهم - أعداء والذى وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود .

----

(١) سورة القصص آيه ٥٧

(٢) سورة القصص آيه ٥٨

﴿ حيل اليهود ﴾

واليهود الذين استقروا في المدينة هبطوا صحراء الجزيرة فارين بدينهم من الإضطهاد الصليبي الذى عمل - من قديم - على تنصيرهم أو إفنائهم ذلك لأن رأى اليهود في عيسى وأمه شنيع والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى ، والموعزون بصلبه .

ولا شك أن اليهود شعب نشيط وأنهم - حيث حلوا - يبذلون جهودا مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يبالون بأساليب الحيل والمكر لبلوغ أهدافهم .. وقد ألفوا أنفسهم قِلّة بين أصحاب البلاد وخشوا أن يفنوا إذا إشتبكوا معهم في صراع سافر ، فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء وما زالوا بها حتى أتت ثمارها المُرّة ، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضا في سلسلة متصلة من المعارك التى لا مبرر لها .. على حين قويت اليهود وتكاثروا ونمت ثرواتهم .. واستحكمت حصونهم .. وخيف سطوهم .

وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة « بعاث » التى انتصر فيها الأوس - وتلك هى المعركة التى نوهنا عنها سالفا - وأمثال هذه الفتن والمعارك المتلاحقة جعلت أهل المدينة عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام يؤملون من ورائه الخير من يدرى ؟! لعله يجدد حياتهم ، فيعيد السلام إلى صفوفهم ، ويهب لهم حياة روحية ترجح بكفتهم عن اليهود .

فقد خرج في الأشهر الحرم التى تلت يوم بعاث - وهى المعركة التى حدث بعدها الصلح بين الأوس والخزرج - خرج نفر من الخزرج يبغون الحج من بينهم إثنان من بنى النجار أخوال عبد المطلب جد محمد ﷺ وبينما هم في طريقهم إلى مكة لقيهم محمد ﷺ بالعقبة فسألهم :

من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج قال : أمن موالى اليهود ؟
قالوا : نعم قال : أفتجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى

فجلسوا معه فدعاهم الرسول ﷺ إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم بعض آيات من القرآن ... وعَرَّفهم أنه رسول من عند الله ... فدُهشوا وأُخذوا ... ! وقال بعضهم لبعض والله إنه النبى الذى توعدتنا به يهود ، فو الله لا ندعها تسبقنا إليه .. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه فى الحال وقد صدقوه .. وأدى هؤلاء فريضة الحج مسلمين ، ثم عادوا إلى قومهم يزفون إليهم خبر إسلامهم للنبى الجديد الذى توعدتهم به يهود .. وإذا بهم يجدوا خبر محمد ﷺ عند الأوس ووجدوا للدين الجديد قلوبا مفتوحة وصدورا منشرحة.

كان أولئك النفر طليعه الدعاية الموفقة للإسلام فى يثرب ، وقد أثمرت جهودهم على عجل .. فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام .

﴿ بيعة العقبة الأولى ﴾

فلما استدار العام وأقبل موسم الحج فى العام الثانى ، أتى إلى محمد ﷺ بالعقبة إثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج ومعهم الستة الذين كلمهم الرسول ﷺ فى العام السابق فبايعوه على ألا يشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرق ولا يقتل أولاده ، ولا يأتى ببهتان تُحرِّمه الشرائع السماوية والإجتماعية ، فإن وفىّ بذلك فله الجنة .. وإن لم يفعل من ذلك شيئا فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر[1] .

---

(١) حديث صحيح اخرجه البخارى (١/٥٤-٥٨) ومسلم (١٢٧/٥)

هذا ما كان محمد ﷺ يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه .. أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد !!؟؟

أتمَّ وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل راجعا إلى يثرب ، فرأى النبى ﷺ أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ليتعهد نماء الإسلام فى المدينة ، ويقرأ على أهلها القرآن ويفقههم فى الدين .. ووقع اختياره على « مصعب بن عمير » ليكون المعلم الأمين .

ونجح مصعب أيما نجاح فى نشر الإسلام وجمع الناس عليه واستطاع أن يتخطى الصعاب التى توجد - دائما - فى طريق كل نازح غريب يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألفوها ، إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل ، ويعم الإيمان والعمل ، والخلق والسلوك ... ولا تحسبن « مصعبا » كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين قدمهم الإستعمار الغربى بين يدى زحفه على الشرق .. فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء وهذا الرغيف يهديك إياه المسيح .. وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ! ومال بهم حيث يريد ... !

هذا ضرب من التلصص الروحى يتوارى تحت اسم الدعوة للدين ، والذين يمثلون هذه المساخر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التى تبعث بهم ... فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنسى القُوى التى تساند ظهورهم فى البر والبحر والجو .

أما مصعب فكان من وراءه نبى مضطهد ، ورسالة مُعْتَبَره ضد القانون

السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يُطْمِعُ طلاب الدنيا ونهازى الفرص .. كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنه ، قبسها من محمد ﷺ .. وإخلاص لله جعله يُضَحِّى بمال أسرته وجاهها فى سبيل عقيدته .. ثم هذا القرآن الذى يتأنق فى تلاوته ، ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب فإذا الأفئدة ترقُّ له وتتفتح للدين الجديد .

وانتشر الإسلام بالمدينة ، ودخل قلوبا متلهفه عطشى ، فكفاها وأرواها .. وأخذ مصعب يفقههم فيه بحماسة وقوة .. حتى كان منهم من تأخذه الحمية لدينه الأول ، ويدفعه الكِبْرُ على ألا يدخل فى هذا الدين الجديد ، فما يكاد يعرف تعاليمه ونواهِيَهُ وأوامره ، ويُتلى عليه شئ من القرآن حتى يدخل فيه ويدعو إليه .

وعاد مصعب إلى رسول الله ﷺ بمكة قبيل الموسم الحافل ، ليخبره بما لقى الإسلام من قبول حَسَن فى يثرب .. ويبشره بأن جموعا غفيرة دخلت فيه عن اقتناع مَسَّ شغافهم ، وبصر أنار أفكارهم .. وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقرُّ به العين .

﴿ بيعة العقبة الكبرى ﴾

إن الرجال الذين إعتنقوا الإسلام عرفوا - دون شك - تاريخه القريب ، والصعاب الهائلة التى لقيها !! وحزَّ فى نفوسهم أن يستضعف إخوانهم فى مكة ، وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور !! .

ولذلك تساءلوا - وهم خارجون من المدينة قاصدون البيت العتيق : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟؟!!

لقد بلغ الإيمان أوجه فى هذه القلوب الفَتيَّة ، وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية .. بارك الله فى أهل المدينة ! .. لقد إستجابوا فى عام إلى مالم يستجب له أهل مكة فى أعوام !! فلا عجب أن أحب المسلمون من قريش أهل المدينة .. وهفت نفوسهم إلى قربهم والحنو إلى جيرتهم .

أما محمد ﷺ فقد فكر فى ذلك تفكيرا جَدِّياً .. فهاهو قد وجد القوم الذين سيأخذون بيده ، ويشدون أزره .. وقد لقى الحلفاء الذين سيبايعونه ويحمونه بفضل الله .. وها قد عَثُرَ على الأنصار الذين سيمنعونه وينصرونه!! .

وجاءت الأخبار تَتْرَى إلى محمد ﷺ تحمل إليه ما يسره ، وما يبشره ببشاره طيبة راضية ، ووصل الوفد مكة وكان مكونا من عدد كبير من مسلمى المدينة ومشركيها ، وفى نيتهم مبايعة محمد ﷺ فيما اعتزموه .. ولكنهم أخفوا نيتهم وعزمهم عن رفاقهم من المشركين .

وفى الكعبة تم الإتصال بينهم وبين الرسول ﷺ ، والاتفاق معه على المكان الذى يتخذونه وإياه مُجتمعا كي يبايعوه فيه .

فلما جَنَّ الليل ، ومضى ثُلُثُه ، وسكنت قريش ونامت ، ونام كل حاج في رحاله ومهابط قومه .. تسلل من حجاج المدينة ثلاثة وسبعون رجلا ، وإمرأتان من المسلمين وهما : نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدى - وساروا مستخفين حتى أتوا العقبة على بعد من مكة فاستخفوا في شعاب الصخور ينتظرون مقدم الرسول ﷺ .

وما لبث محمد ﷺ أن أقبل ومعه عمه العباس وكان العباس ما يزال على دين قومه إلا أن محمدا ﷺ كان قد أَسَرَّ إليه بِجَلّية الأمر ، فأحب أن يحضر هذا الحلف الذى سيحالف أهل المدينة فيه ابن أخيه ، ويستوثق له من العهد الذى سيعاهدونه عليه .

فلما إجتمع محمد ﷺ والعباس مع الأنصار الذين أتوا لنصرة محمد الرسول ﷺ ، والحلفاء الذين ضربوا فى بطون الصحراء أياما وليالى ليحالفوه ويعاهدوه ، إستفتح العباس الحديث بقوله : يا معشر الأوس ويا معشر الخزرج ، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عِزٍّ من قومه ، ومَنَعةٍ فى بلده ، وقد أبى إلا الإنحياز اليكم واللحاق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِّموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم .. فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزة ومَنَعهٍ من قومه وبلده .

فلما فرغ العباس من الكلام الذى أراد أن يستوثق به لإبن أخيه قال أهل المدينة :

قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فقال محمد ﷺ بعد أن تلا آيات من القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام :

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فمدَّ « البراء بن معرور » يده إلى محمد ﷺ - وكان سيدا وكبيرا فى قومه وبايعه على ذلك وهو يقول :

نعم فوالذى بعثك بالحق لَنَمْنَعنَّكَ ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابرا عن كابر !

فاعترض هذا القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال - يعنى اليهود - حبالا وإنا لقاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟! فتبسم الرسول ﷺ وقال :

بل الدم الدم ، والهدم الهدم[1] ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم فلما هَمَّ القوم للبيعة قال أحدهم وهو العباس بن عبادة :

يا معشر الأوس والخزرج ، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ .. إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهَكَتْ أموالكم مصيبةٌ وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه فهو والله خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فقال القوم : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ فأجاب الرسول ﷺ : لكم الجنة ....

قالوا : أبسط يدك .. فبسط الرسول ﷺ يده فبايعوه واحدا واحدا وأمرهم رسول الله ﷺ أن يُخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم

---

(١) أراد الرسول ﷺ أن يقول بهذا ما كان العرب يقولونه عندما يتحالفون ويتعاهدون : دمى دمكم وما تهدمون من الدماء أهدم معكم وذمتى ذمتكم ، وحرمتى حرمتكم .

بمافيهم فأخرجوا منهم النقباء ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس[1].

فقال لهم الرسول ﷺ : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

تلكم بيعة العقبة ، وما أبرم فيها من مواثيق ، وما دار فيها من محاورات .

إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع ، وتمشت فى كل كلمة قيلت ، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التى توجه الحديث أو تملى العهود .. كلا .. فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، والمغارم المتوقعة نظر اليها قبل المغانم الموهومة .

مغانم ؟؟!! أين موضع المغانم فى هذه البيعة ؟؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص، هؤلاء الثلاثة والسبعون مثل لانتشار الإسلام عن طريق الفكر الحر والإقتناع الخاص ، فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان ، وملبين داعى التضحية ، مع أن معرفتهم بالنبى كانت لمحة عابرة، غبرت عليها الأيام .. وكان الظن بها أن تزول ....

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة إنه القرآن .. لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول ﷺ إلا لماما ، فإن الوحى المشع من السماء أضاء لهم الطريق ، وأوضح الغاية ..

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن سال عن ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة .. والقرآن النازل بمكة صَوَّر جزاء الآخرة رأى العين ، فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة .. ويستطيع الأعرابى المتعشق للحق أن ينتقل فى لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم .

---

(١) حديث صحيح اخرجه ابن اسحق فى المغازى (٢٧٣/١-٢٧٦) عن ابن هشام (٤٦٠/٣-٤٦٢) .

وحكى القرآن أخبار الأولين .. وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعنتوا وتجبروا ، ثم حَلَّ العدل الإلهى فذهب الظالمون بدداً وتركوا وراءهم دنيا مُدْبره .. ودوراً خربة..

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم　　　كباطل من جلال الحق منهزم

ثم إن الرسول ﷺ جعل من هذا الإيمان رباطا يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين فى المشرق والمغرب ، فالمسلم فى المدينة - وإن لم ير أخاه المستضعف فى مكة - يحنو عليه ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه، ويقاتل دونه ، وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب تجيش فى حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب فى ذات الله .

عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال :

« يا أيها الناس إسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عباداً ليسو بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله »

فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسو بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله .. أنعتهم لنا (يعنى صفهم لنا)

فَسُرَّ وجه النبى بسؤال الأعرابى وقال :

« هم ناس من أفناء الناس .. ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسون عليها فيجعل وجوههم نورا ، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1].

---

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣/٥) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك الأشعرى وقال المنذرى(٤٨/٤):(رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

الإيمان بالله والحب فيه .. والإخوة على دينه .. والتناصر باسمه .. ذلك كله كان يتدافع فى النفوس المجتمعة فى ظلام الليل بجوار مكة السادرة فى غيها .. يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله ﷺ كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركى مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام فى نطاق لا يعدوه .. وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم ، فناموا نومة المجرم الذى اقترف الإثم وأمِنَ القِصَاص .

أجل .. ففى هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية ، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .

ونعود بالحديث إلى اجتماع الوفد بالرسول ﷺ الذى كلل بعقد بيعة العقبة الكبرى . وبينما هم يبايعونه واحدا بعد الآخر إذا بصوت ينبعث فى جوف الليل يصيح :

يا معشر قريش ، هذه بنو الأوس والخزرج تحالف محمدا على قتالكم حيث هذا الشيطان من المشركين كان يجول فى مضارب الخيام ومنازل الحجيج وتنبه إلى الضجة المنبعثة قريبا من العقبة .. واستطاع أن يتلصص ويقف على جليّة الأمر فصاح بالقرشيين ، وكان صوته جهوراً يوقظ النيام ، وشعر المبايعون كأن ائتمارهم بالمشركين قد انكشف فلم يكترثوا للنتائج وقال سعد بن عبادة : يا رسول الله والذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا .

فأجاب عليه الصلاة والسلام : لم نؤمر بذلك ، ولكن إرجعوا إلى رحالكم ...فرجع القوم متسللين إلى مضاجعهم فناموا . وحينما أصبح الصباح كان شيوخ قريش فى طريقهم إلى مضارب أهل المدينة ، فلما وصلوا إليهم أقبلوا على رجالهم يقولون لهم لائمين غاضبين : يا معشر أهل المدينة ، والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ..

فلم حالفتم محمدا على أن تخرجوه من بين ظهرانينا ، وعاهد تموه على حربنا ؟؟! ... فدهش مشركو المدينة الذين لم يكن لهم علم ببيعة الليل من قول أهل مكة واندفعوا يقسمون لهم بأوثق الأيمان وأغلظها أنه لم يكن بينهم وبين محمد شئ مما يقولون .

أما المسلمون فصمتوا عن ذلك ، وعملوا جُهْدَهُم على تغيير مجرى الحديث إلى أحاديث أخرى حتى انصرفت قريش وهى حيرى فى أمرها .. لا تدرى ما وصل إلى علمها أهو حق وصدق ؟ وأهل المدينة يتسترون ويكذبون؟ أم هو بهتان وكذب وأهل المدينة صادقون ؟!

وعلى ذلك ذهبوا يَتَحَرَّوْن الأمر ، وَيَتَنَطَّسُون الخبر ويجدُّن فى البحث عن الحقيقة . أما أهل المدينة فقد شدوا رحالهم من فورهم وانطلقوا عائدين لديارهم قبل أن تقف قريش على جليّة الأمر فتعاودهم العتاب .

وكان ما قدره الأنصار وحسبوه ، فلم تلبث قريش أن علمت الأمر ، وعرفت الخبر ، فانطلقت فى أثرهم تطاردهم وتبغى اللحاق بهم ، وقد جُنَّ جنونها فخرجت عن طورها ولكن رجالها لم يستطيعوا اللحاق بغير واحد منهم هو (سعد بن عبادة) فعادوا به يصبون عليه جام غضبهم ، فربطوا يديه إلى عنقه ، وأحكموا كِتَافَه ، ودخلوا به مكة يضربونه ، ويشدونه من شعره !! ومازالوا به يضربونه حتى أجاره من عذابهم (جبير بن المطعم بن عدى) و (الحارث بن أمية) إذ كان سعد يُجير لهما فى تجارتهما إلى الشام حين مرورها بالمدينة .

وعقدت قريش الإجتماعات . وطالت بأنديتها الجلسات يتشاور رجالها فى أمر محمد ﷺ وفيما يفعلون معه ، وفيما يقررون إزاءه .

لقد أعياهم محمد ﷺ ونال منهم وهو بين ظهرانيهم ، فما باله وقد حالف عليهم أوس المدينة وخزرجها ؟!

أما أهل المدينة من المسلمين فكان للمبايعة التى بايعوها للرسول ﷺ أثر عميق فى نفوسهم ، جعلهم يشعرون بالثقة ويحسون بالطمأنينة

والإستقرار ، فقويت بذلك روحهم واشتد عزمهم ، فعادوا إلى المدينة يعلنون إيمانهم وينشرون إسلامهم ، ويدعون للدخول فى الدين الجديد .

ثم زادوا لدينهم حَمِيَّة ، ولعقيدتهم إخلاصا ، فكانوا يَعْدُون على أصنام آلهم وبنى قومهم ممن لا يزالون على دين الشرك بالله فيكسرونها ، أو يحملونها ليلا فى غفلة من أصحابها فيلقونها بين الرَّوْث والأقذار ، فإذا ما أصبح الصباح ، ورأى المشركون ما حلَّ بأصنامهم غضبوا وأعادوها إلى أماكنها فى بيوتهم بعد أن يغسلوها ويطهروها .. فيعاود المؤمنون الكَرَّة من جديد وهكذا حتى يعرف المشرك مبلغ حقارة هذه الآلهه التى يعبدونها ويدرك أنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فيثوب إلى نفسه ويدخل تائبا فى دين الله .

وهكذا أعدت المدينة إعدادا طيبا لإستقبال الرسول ﷺ حين يحين ميعاد قدومه .. وهكذا مهدت أرضها لعهد جديد ونصر جديد .

★★★

﴿ مجتمع جديد فى بلد آمن ﴾

إن نجاح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له .. وقد تنادى المسلمون من كل مكان : هلموا إلى يثرب .. فلم تكن الهجرة تخلصا فقط من الفتنه والإستهزاء ، بل كانت تعاونا عاما على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن وأصبح فرضا على كل مسلم قادر أن يسهم فى بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده فى تحصينه ورفع شأنه ،.. وأصبح ترك المدينة - بعد الهجرة إليها - نكوصا عن تكاليف الحق ، وعن نصرة الله ورسوله .. فالحياة بها دين ، لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها وللشيخ الجليل محمد الغزالى تعليق على موضوع تأسيس الوطن هذا يقول :

فى عصرنا هذا أعجب اليهود بأنفسهم وعانق بعضهم بعضا مهنئا لأنهم إستطاعوا تأسيس وطن قومى لهم بعد أن عاشوا - مشردين - قرونا طوالا .. ونحن لا ننكر جهد اليهود فى إقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فَجٍّ للعيش فيه ، ومحاولة إحيائه واعلائه ، ولكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم - أو بتعبير أدق - ما صُنع لليهود اليوم وبين ما صنع الأسلام وبنوه لأنفسهم يوم هاجروا إلى يثرب نجاة بدعوتهم وإقامة لدولتهم.

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ... وحاكوا مؤامراتهم فى ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله .. فإذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء ! .. فلم يستطع مليون عربى حَصَرَتْهُم الخيانات فى مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئا !! فهاموا على وجوههم فى الأرض نتيجة اتفاق أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا .. و.... وملوك العرب على خذلان أولئك العرب التعساء ، وبذلك قام الوطن القومى لليهود ، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه .. وإسداء العون له من دهاقين السياسة والمال فى انحاء الدينا ...!

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم ، وترفعت عن المآرب هممهم ، وذهلوا عن المتاع المبذول والأمان المتاح ، واستهوتهم المثل العليا وحدها (!) فى عالم يَعُجُّ بالصم والبكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التى اعتنقوها .. وتبعوا صاحبها المتجرد المكافح وهو لا ينى يقول :

« **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة انا ومن إتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** »[1]؟؟!!

---

(١) سورة يوسف آيه ١٠٨

﴿ طلائع الهجرة ﴾

إن المدينة الفاضلة التى تعشقها الفلاسفة ، وتخيلوا فيها الكمال جاءت فى سطور الكتب دون ما صنع المهاجرون الأولون ، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناءً ونضارة إن المسلمين - بإذن رسول الله - هرعوا من مكة وغيرها إلى يثرب يحدوهم اليقين ، وترفع رؤسهم الثقة .

ليست الهجرة إنتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب رزق من أرض مجدبة إلى أرض خصبة .. إنها إكراه رجل آمن فى سربه ، ممتد الجذور فى مكانه ،على إهدار مصالحه ، وتضحية أمواله والنجاة بشخصه فحسب وإشعاره- وهو يصفى مركزه - بأنه مستباح ومنهوب ، وقد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان !!.. ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل : مغامر طائش ، فكيف وهو ينطلق فى طول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده ؟؟!! وكيف وهو بذلك رضى الضمير وضاء الوجه؟ .. إنه الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش .. وإيمان بمن ؟ بالله الذى له ما فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأول والآخر ، وهو الحكيم الخبير .

وهذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ! أما الهياب الخوار القلق فما يستطيع شيئا من ذلك إنه من أولئك الذين قال الله فيهم :[1]. « **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم** » .

---

(١) سورة النساء من الآية :٦٦

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[1] .

أما الرجال الذين التفوا بمحمد ﷺ فى مكة وقبسوا منه أنوار الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر فإنهم نفروا - خفافا - ساعة قيل لهم : هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

ونظر المشركون فإذا ديار مكة التى كانت عامرة بأهلها قد أقفرت . ففى يوم مرّ عتبه والعباس وأبو جهل على دار عامر بن ربيعة بعد ما غلقت، فقد هاجر رب الدار وزوجته وأخوه أحمد - وكان رجلا ضريرا - ونظر عتبة إلى الدار تخفق أبوابها يبابا ليس بها ساكن فلما رآها تصفق الريح فى جنباتها قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها　　　يوما ستدركها النكباء والحوب

ثم قال : أصبحت الدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للعباس : هذا من عمل ابن أخيك فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا وقطع بيننا ، وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة ، فهم يجرمون ، ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين فإذا أبوا الإستكانه فإباؤهم علِة المشكلات ، ومصدر القلاقل .

وخرج عدد كبير من مسلمى مكة خفية ولم تشعر بهم قريش .. إلا أنها لما فطنت إلى هذا الأمر وقفت لهم بالمرصاد تمنع خروجهم .

---

(١) سورة الأنفال الآيه : ٣٠

وفى هذه الآونة كانت هجرة عمر بن الخطاب ، وكان خروجه أن اتفق على ذلك مع اثنين من صحبه هما : (عياش بن أبى ربيعة) و (هشام بن العاص) على أن يتسللوا سرا ، ثم يلتقوا بمكان خارج مكة ، فمن تخلف منهم عرف صاحباه أنه قد اكتشف أمره وحيل بينه وبين الخروج فيمضى صاحباه فيما إعتزما ، وفى الموعد المضروب والمكان المحدد إجتمع عمر وعياش ، وتخلف عنهما هشام فأدرك الصاحبان ما كان من أمره مع المشركين فمضيا فى طريقهما ، أما أمر هشام مع المشركين فكان أن والوه بالتعذيب حتى فتنوه عنوة عن دينه .

وعلى هذا المنوال سارت قريش ، وعلى هذه الخطة كان منهجها ، فعذبت وقتلت من أوقعه سوء طالعه فى يدها ... حتى حالت بين الرجل وزوجته ، وبين الأم وولدها .

كان (أبو سلمة) وزوجته وابنه من أول المهاجرين .. فلما أجمعوا على الخروج قالوا له أصهاره:

هذه نفسك غلبتنا عليها .. أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركها تسير بها فى البلاد ؟وأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبى سلمة لرجلهم وقالوا : لا نترك إبننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم ، فخلعوا يده وذهبوا به ، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة فكانت أم سلمة - بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها - تخرج كل صباح بالأبطع تبكى حتى تمسى نحو سنة..! فرقٌ لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحقى بزوجك إن شئت فاسترجعت إبنها من عصبته ، وهاجرت إلى المدينة .

ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا . فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بما لك ونفسك ؟

والله لا يكون هذا أبداً .. فقال لهم صهيب :
أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم
قال : فإنى قد جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «ربح صهيب »[1].وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا حتى كادت مكة تخلو من المسلمين .

وخرج حمزة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وغيرهم .. وكل من يخرج يخلف غيره على ماله ، ويوصى أقرباءه على أهله ، حتى لم يبق بجوار النبى من صحابته غير على بن أبى طالب وأبى بكر الصديق ، ثم جاء أبو بكر يستأذن الرسول ﷺ فى الهجرة فقال له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ..
فعرف أبو بكر أن هجرة النبى قد أصبح أمرها وشيكا وأدرك أن رسول الله ﷺ ينتظر أمر ربه له فى الهجرة .

وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأرز إليها ، وحصن يحتمى به وتوجست خيفه من عواقب هذه المرحلة الخطيرة فى دعوة محمد ،،، وهاجت فى دمائها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته .
إن محمدا لا يزال بمكة ، وهو - لابد - مدرك أصحابه اليوم أو غدا .. فلتعجل به قبل أن يستدير إليها .

---

(١) حديث صحيح ذكره ابن هشام فى السيرة (٢٨٩/١) معلقا مرسلا وقد وصله الحاكم من حديث ثابت عن انس (٣٩٨/٣)

﴿ التآمر فى دار الندوة ﴾

واجتمع طواغيت مكة فى دار الندوة (وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها) إجتمعوا يتشاورون فى أمر محمد ﷺ ويتخذون قرارا حاسما فى أمره فرأى بعضهم أن توضع القيود فى يد محمد ﷺ ، ويشتد وثاقة ويرمى به فى السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت ...

ورأى آخر أن ينفى من مكة فلا يدخلها وتنفض قريش يدها منه ...

وقد أُسْتُبْعدَ هذان الإقتراحان لعدم جدوا هما ، واستقر الرأى على الإقتراح الذى أبداه أبو جهل ، قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسطا فتيا ثم نعطى كل فتى سيفا صارماً ، ثم يضربونه - جميعا - ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، ولا أظن بنى هاشم يَقْوُون على حرب قريش كافة ، فإذا لم يبق إلا الدية أديناها ورضى المؤتمرون بهذا الحل للمشكلة التى حيرتهم ، وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه .

وقد أشار القرآن الكريم إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : « **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** »(الأنفال آيه ٣٠)

إن هذا الحكم لم يتخذ فى مجلس سر ، بل فى اجتماع عام . ومن الطبيعى أن يعلم به رسول الله ﷺ .. وأن يعرف حقيقة وضعه فى مكة .

إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ ثم يقدمه الطغام قربانا للأصنام .

على أن رسول الله ﷺ لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم . لقد رسم الخطة التى يذهب بها إلى يثرب ، حين ندب المسلمين للهجرة إليها .

روى الزهرى عن عروة عن عائشة قالت :

قال رسول الله ﷺ وهو يؤمئذ بمكة للمسلمين : قد أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين [1] » فهاجر من هاجر قبل إلى المدينة حين ذكر الرسول ﷺ ذلك ، ورجع[2] إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة .

---

(١) حديث صحيح اخرجه البخارى (١٨٦/٧)

(٢) بدأ رجوعهم وظل حتى السنة السادسة للهجرة

﴿ ليلة الهجرة ﴾

وجاءت الليله التى إنتوى المتربصون لمحمد ﷺ أن يتربصوا فيها ، فكمنوا قرب داره وكل منهم يخفى فى تلافيف ثوبه سيفا صارما بتارا يكمن الموت فى حده ، ينتظرون اللحظة الحاسمه التى يستطيعون فيها أن يضربوا محمدا ضربتهم القاضية ، وينفذوا فيه خطتهم الغادرة .

وأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وقال له : «لا تبتْ هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه » وجلس محمد ﷺ إلى ابن عمه على بن أبى طالب يُسرُّ اليه بما سيحدث فى هذه الليله ، فعرفه أن الله سبحانه وتعالى أمره بالهجرة ، وأعلمه أمر المتربصين الذين يريدون قتله والفتك به، ثم قال : « سأخرج الليلة يا على مهاجرا بأمر الله ، فنم على فراشي وتَسَجَّ ببردى الحضرمى الأخضر ، فبإذن الله لن يخلص إليك شئ تكرهه » وأمره أن يتخلف عنه بمكة حتى يَردُّ عنه الودائع التى أودعها الناس لديه ، ويرد له كل أمانة لصاحبها .. ثم توادع ابنا العم ، وتواعدا على اللقاء إذا شاء لهما الله فى المدينة بلد الأنصار ، حيث يواصلان وإياهم النضال والجهاد ، وقام على فنام على فراش النبى ﷺ وتغطى ببرده الحضرمى ، وألقى الوحى الكريم فى قلب الرسول ﷺ وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل : « **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** »[1].

---

(١) هو من حديث ابن عباس اخرجه الترمذى (١٣٧/٤) والحاكم (٣/٣) والبيهقى (٩/٩) .

وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذحفنه من التراب فى يده وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو تلك الآيات من سورة يس : « **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم .. إلى قوله : فأغشيناهم فهم لا يبصرون** »[1] . ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى حيث أراد .

توجه رسول الله ﷺ إلى دار صديقه الوفى أبى بكر الصديق وتقول عائشه :

كان رسول الله ﷺ ، لا يخطئ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة ، وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه الرسول ﷺ بالهجرة أتانا الرسول ﷺ بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبى قال : ما جاء رسول الله ﷺ إلا لأمر حدث.

فلما دخل ﷺ تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء ، فقال رسول الله ﷺ : اخرج من عندك، فقال أبى : يا رسول الله إنما هما إبنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ...

قال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ... قال : الصحبة .

فجعلت دموع أبى بكر تجرى على خديه فرحا .....

قالت عائشة : فو الله ، ما شعرت قط قبل اليوم أن أحداً يبكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يبكى يؤمئذٍ ثم قال : يا بنى الله .. إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا فاستأجرت (عبد الله بن أرقط) رجلا من

----

(١) سورة يس الآيه ١:٩

بنى الديل بن بكر ، وكانت أمه إمرأة من بنى سهم بن عمرو - وكان مشركا ليدلنا على الطريق ، فدفعت إليه الراحلتين ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما[1] .

وقال محمد ﷺ لأبى بكر : لا حاجة لنا بالراحلتين الآن ، فإننا سنتجه جنوبا حيث نتخلف أياما فى غار ثور .

وفطن أبو بكر إلى حكمة النبى ﷺ فى ذلك ، وكان يعرف مبلغ حنكته ودرايته فى تعمية تابعيه ومطارديه .

كان غار ثور جنوبى مكة فى طريق اليمن .. وكان يتبادر إلى الأذهان لأول وهله أن الطريق الذى سلكه محمد ﷺ هو طريق المدينة ، وطريق المدينة فى شمالى مكة .

فكان فى ذلك حكمة من الرسول ﷺ ، وبُعد نظر فى أن يعمل على التورية والتضليل ، ليضل مطارديه الذين كان يعلم أنهم سيتبعونه ، ويقتفون أثره .

حينئذ أوصى أبو بكر ولده عبد الله أن يتردد عليهما خفية فى غار ثور ليحمل إليهما أخبار قريش ، وينبئهما بما تَتبعهُ فى البحث عن محمد ﷺ .. كما أوصى غلامه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ، فإذا ما أمسى المساء عَرَّجَ بها فى طريق عودته على الغار ليحتلبا منها ، وأوصى إبنتيه أن يجهزا لهما زادا ، ويعداه لحين الحاجة إليه .

وقال ابن اسحق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبادا حدثه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : « لما خرج رسول الله ﷺ

----

(١) حديث صحيح واسناده حسن

وخرج أبو بكر معه ، إحتمل أبو بكر ماله كله معه .. خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه .

قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا ....

قالت أسماء : فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت ، كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعث عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ...فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا كان ترك هذا فقد أحسن وفى هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئا ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك » (إسناده صحيح)

وغادر النبى ﷺ وأبو بكر الدار متسللين من خوخة فى ظهر الدار .. وانطلقا يلفهما الظلام ، ويسترهما الليل ، فخلفا مكة وراءهما واتجها جنوبا ووجهتهما غار جبل ثور .

وها هو ذا رسول الله ﷺ على مشارف مكة ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود إليها مبشرا بدين الله عاملاً أن يَعُمُّ كل بيت فيها !! ... ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودَّعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله إنك لأحب البلاد إلى نفسى ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت ! » ثم مضى هو والصدِّيق إلى غار ثور ، فدخل أبو بكر أولاً يتلمس الغار لينظر أفيه سبع أوحية يقى رسول الله ﷺ بنفسه .

ومع أول خيط من أنوار الصباح قام علىٌ من فراش النبى ﷺ .. فقام بقومته مُتَرَبِّصُوا الليل، وهم يحسبون أن الوقت قد حان لتنفيذ خطتهم، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدا قال: خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم أحدا إلا وقد وضع على رأسه التراب .. أفما ترون ما بكم ؟ .. فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب .. ثم جعلوا يتطلعون من فرجة باب الدار ،

وإذا بهم يجدون عليا وليس محمدا ... وبهتوا وأُخذوا مدهوشين ، ودخلوا على على عُنوة ثائرين يسألونه : أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى ... فقبضوا عليه وساقوه أمامهم يضربونه كى يقر لهم بمكان محمد ﷺ ، وعلى لا يزيد على أن يقول : لا أدرى ، ولا علم لى بمكانه .. حتى إذ يئسوا منه سجنوه .. فتدخل فى ذلك بعض أقربائه ، وما زالوا معذبيه حتى أطلقوا سراحه .

وجن جنون مشركى قريش لفرار محمد ﷺ فى الليلة التى أزمعوا فيها قتله .. وأسرعوا يبحثون عنه هنا وهناك .. فمنهم من انطلق جهة المدينة .. ومنهم من أسرع إلى دار أبى بكر لعلمهم أنه الصديق الحميم لمحمد ﷺ ، وكان من بينهم أبو جهل ، وقرعوا الباب وخرجت إليهم أسماء إبنة أبى بكر فسألوها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدرى أين أبى ... فعرف القوم أن أبا بكر قد صاحب محمدا ﷺ فى هربه ، فما تمالك أبو جهل من شدة غضبه أن رفع يده وأهوى بها على وجه أسماء فى لطمة شديده أطارت قرطها من أذنها ، وانصرفوا يلتمسون دليلا يقص لهم أثر الهاربين .

وأحضروا قصاص الأثر .. فراح يقص أثر أقدام النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر فوق الأرض ، وجَمْعُ قُريش وفتيان الليل يسيرون من خلفه ، حتى خَلَّفَ مكة وانحدر جنوبا نحو جبل ثور ، والجميع من خلفه يتساءلون : أى جهة كانت لمحمد ؟ إنحدر جنوبا ؟ أم صعد شمالا ؟ ثم إبتدأ القصاص يصعد الجبل متتبعا الأثر .. يالله لقد وعد الله رسوله بَردِّ كيد الكائدين وهو خير الصادقين .. وفجأة وقف القصاص حائراً قلقا لا يدرى أين يتجه ، ولا إلى أى ناحية يسير .. وسأله القوم : ما بالك ؟! أجابهم وهو يشير إلى حجر أمامه : الأثر وصل إلى هذا الحجر ، ثم لا أدرى أين وضع السائر قدمه فالأرض صلدة كما ترون فقال له القوم هازئين : والله ما رأيناك تخطئ مثل

اليوم .

ولمح القوم راعيا على مسافة منهم يرعى غنمه فسألوه : ألم تر رجلين يقصدان هذا الجبل ؟
أجاب : قد يكونان في الغار ... وإن كنت لم أر أحدا قصده .....
وأسرع فتيان قريش يُصَعِّدُونَ في الجبل ويسرعون نحو الغار ، وهم يحملون عصيهم وقسيِّهم وأسيافهم ، يودُّ كل منهم أن يكون له قَصَبُ السَّبْق في القبض على محمد ، ويريد كل واحد منهم أن يكون سيفه أول سيف ينال منه .

لله دَرُّكَ يا محمد ... كان محمد ﷺ إذ ذاك قائما بالغار يصلي ، وكان رفيقه أبو بكر بجانبه يرتجف خوفا عليه .. لقد سمع صوت القوم يقترب منهم .. ودبيب أرجلهم تقترب رويدا رويدا من الغار .... وحبس أبو بكر أنفاسه ، وتعلقت عيناه بمحمد ﷺ ، يود لو استطاع أن يخفيه بروحه .. وأن يستره بنفسه .. وأحس محمد ﷺ وقد فرغ من صلاته بما يعتمل في نفس أبي بكر فهمس له يطمئنه ويُسَكِّن روعه : لا تحزن إن الله معنا .

وأسرع أحد فتيان قريش نحو مدخل الغار ، فما كاد يصل إليه حتى إرتد عائدا إلى رفاقه وقد ظهر على وجهه الأسف ، وسأله رفاقه : مالك ؟ قال : إن عليه عنكبوت من قبل ميلاد محمد ورأيت عش حمامتين بريتين في فم الغار على بيض لهما .. ولو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، ولطارتا هاتين الحمامتين الآمنتين .

وسمع أبو بكر قول الرجل لرفاقه ، فعرف أن ما وصفه آية من آيات الله لستر رسوله ﷺ وجعل ينظر إلى أقدام الرجال وهم يروحون ويغدون أمام مدخل الغار .. وهمس في أذن رسول الله ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا !!

فـأجـاب النبى بكل ثقـه وإطمـئنان : يا أبا بكر مـا ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!!

وما لبث رجال قريش أن انصرفوا عن الغار .. وانحدروا فى الوادى يبحثون عنه فى جهات أخرى قال الله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »[1].

والجنود التى يُخذل بها الباطل ويُنصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ، ولا صورة خاصة من الخوارق .. إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية .. وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل فى ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى قوة - كما حدث لأبرهه وجيشه - « **وما يعلم جنود ربك إلا هو** »[2] .

ومن صنع الله لنبيه ﷺ أن تعمى عنه عيون أعدائه وهم منه على مَدِّ الطرف ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فَرَّطوا فى استكمال أسباب النجاة .. بل هو مكافأة من القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها ... وكم من خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتقان .. تمر بها فترات عصيبة لأمور فوق الإرادة ، أو وراء الحسبان ثم تستقر أخيرا وفق مقتضيات الحكمة العليا ، وفى حدود قوله تعالى :

----

(١) سورة التوبة آيه ٤٠

(٢) سورة المدثر من الآيه : ٣١

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1].

ويلاحظ أن النبى ﷺ كتم أسرار مسيره ، فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة به ولم يتوسع فى إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.. وقد استأجر دليلا خبيرا بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة المطاردين ، ونظر فى هذا الإختيار إلى الكفاية وحدها .. فإذا إكتملت فى أحد ولو مشركا استخدمه وانتفع بموهبته...ومع هذه المرونة فى وضع الخطة ، فإن النبى ﷺ أصَرَّ أن يدفع ثمن راحلته ، وأبى أن يتطوع أبو بكر به ، لأن البذل فى هذه الهجرة ضَرْبٌ من العبادة ينبغى الحرص عليه ، وتستبعد النيابة فيه .

واتفق رسول الله ﷺ على ميعاد الخروج ، وتخيروا الغار الذى يأوون إليه تخيروه جنوبا فى إتجاه اليمن لتضليل المطاردين ، وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم فى أثناء اللجوء إليه ، ومهمة كل شخص .

ولا نعرف بشرا أحق بنصر الله وأجدر بتأيده مثل هذا الرسول ﷺ الذى لاقى فى جنب الله ما لاقى .. ومع ذلك فإن إستحقاق التأييد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أنملة فى استجماع أسبابه وتوفير وسائله ، ومن ثَمَّ فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل فرض عدته ، ولم يدع فى حسبانه مكانا للحظوظ العمياء .. وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شئ فى النجاح ثم يتوكل - بعد ذلك - على الله لأن كل شئ لا قيام له إلا بالله .. فإذا استفرغ المرء جهوده فى أداء واجبه فأخفق بعد ذلك فإن الله لا يلومه على هزيمة بُلِىَ بها ، وقلما يحدث ذلك إلا عن

---

(١) سورة يوسف من الآيه : ٢١

قدر قاهر يُعْذَرُ المرء فيه . وكثيرا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيبا حسنا ثم يجيئ عون أعلى بجعل هذا النصر مضاعف الثمار ، كالسفينة التى يَشقُّ عباب الماء بها ربّان ماهر ، فإذا التيار يساعدها والريح تهب إلى وجهتها فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى إلى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر.. وهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار .

وأقام الرسول ﷺ هو وأبو بكر ثلاثة أيام فى الغار ، وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم .

﴿ فى الغـــار ﴾

وسارت الأمور على ما قَدَّر رسول الله ﷺ ، فكان عبد الله بن أبى بكر فى قريش يتسمع ما يأتمرون به ويقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم ، وكان عامر فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفى عليه .

وتلك هى الحيطة البالغة كما تفرضها الضرورات على أى انسان ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأيتهما بالطعام إذا أمست بما يصلحهما .

ومَرَّت ثلاثة أيام وسكنت حركة البحث عن محمد ﷺ هو ورفيقه ، وعاد الباحثون إلى ديارهم يائسين من العثور عليه ، وهم يظنون أنه لابد أن يكون قد قطع مرحله كبيرة من طريقه يصعب معها العثور عليه واللحاق به .

فلما حمل عبد الله بن أبى بكر هذه الأنباء إلى الرسول ﷺ وأبى بكر، أمره أبوه أن يأيتهما سرا بالراحلتين اللتين كان قد أعدهما لهذا

الغرض ، وأن يصطحب معه (عبد الله بن أرقط) الذى استأجره ليدلهما على السير فى طريق غير مطروق .

وما أمسى المساء حتى كان عبد الله بن أبى بكر وأخته أسماء وعامر بن فهيرة فى طريقهم إلى الغار يتبعهم عبد الله بن أرقط يقود بعيرى أبى بكر وبعيرا له .

فلما أتوا الغار قدم أبو بكر لمحمد ﷺ أفضل البعيرين وقال له :

إركب يا رسول الله

قال محمد ﷺ : إنى لا أركب بعيرا ليست لى .

قال أبو بكر : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى !!

قال محمد ﷺ : لا ... ولكن بالثمن الذى إبتعتها به

قال أبو بكر : هى لك يا رسول الله به .

وتقدمت أسماء لتزوِّد الرواحل بالزاد والماء اللذين أتت بهما معها ، فلم تجد رباطا تربط به كيس الزاد وقربة الماء إلى البعير ... وتحيرت ماذا تفعل؟ .... فما كان منها إلا أن خلعت نطاقها وشطرته نصفين .. علقت بنصفه الزاد والماء ، وتمنطقت بالآخر فسميت من ذلك الحين (بذات النطاقين) .

وركب رسول الله ﷺ ، وركب أبو بكر ، وركب عبد الله بن أرقط ... وأردف أبو بكر غلامه عامرا خلفه ليقضى له وللرسول ﷺ حاجتهما فى الطريق ... ثم انطلق الركب بسلامة الله يقودهم الدليل .. فإجتازوا طريقا محاذيا للساحل غير مألوف ولا مطروق ، وكان خروجهما من الغار ليلة الإثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول وكانت سنة ٦٢٢ م .

وجلست قريش بنواديها ولا حديث لرجالها إلا عن محمد ﷺ وفراره هو وأبو بكر وبينما جلساء الندوة من قريش فى حديثهم هذا دخل إلى الدار رجل منهم وصل إلى مكة من سفر له قال :

إنى رأيت ثلاثه مروا على بالساحل .. ما أراهم إلا محمدا ومن خرج معه ، وكان بمجلس الندوة رجل سريع الخاطر ذو دهاء اسمه سراقه بن مالك ما سمع قول القادم حتى أدرك أنه صادق فى حَدْسِهِ ، ولكنه طمعا فى المائة ناقة التى جعلتها قريش مكافأة لمن يقبض على محمد ﷺ بادر إلى تكذيبه، ليضلل أهل المجلس فقال : لا إنهم ليسوا بهم ، لقد خرج الآن بهذا الطريق رجال أعرفهم فى حاجة لهم ، ومكث سراقه برهة فى مجلسه .. حتى إذا إنصرف ذهن الجالسين عن هذا الحديث نهض منصرفا إلى منزله .. وهناك تدجج بسلاحه، وأمر تابعا له فأسرج له فرسه ، وأخرجه إلى بطن الوادى ، ثم لم يلبث أن لحق به خارج مكة حتى لا يراه أحد وهو خارج منها .. ثم ركب الفرس وأرخى له العنان ، وأسرع به ينهب الأرض نحو الساحل .

أيمكن أن يلحق سراقه بمحمد ﷺ بعد أن أنجاه الله من محنة الغار ؟ كلا وألف كلا فما كان الله ليتخلى عن رسوله ﷺ بعد أن وعده برد مكر الماكرين وكيد المتربصين .. فلم يلبث جواد سراقه أن كَبَاكَبْوَةَ كادت أن تطرحه فوق الرمال .. ولكن سراقه أسرع إلى إقامته من عشرته ، ووكزه وكزة جعلت الجواد يسرع به .. ولكن الجواد لم يلبث أن كبابه ثانية ولم ييأس سراقه بل عاد إلى إقامة الجواد ووكزه وإن كان قد داخل نفسه شئ من التطير والتشاؤم والخوف مما هو مقدم عليه .. ثم ابتدأ الجواد يَجِدُّ فى السير من جديد .

وكان محمد ﷺ وصحبه قد قضوا الليل ونصف النهار سائرين دون أن يعترض طريقهم معترض ، أو يلمحوا أحدا يتبعهم أو يقتفى آثارهم ، فاطمئن بذلك أبو بكر على سلامة محمد ﷺ .. فأشار إلى الرسول أن يحطوا فى ظل صخرة كبيرة مروا عليها فى طريقهم ، كى ينال الرسول ﷺ قسطا من الراحة ، ويتناول شيئا من الطعام وحَطَّ الأصحاب حيث أشار أبو بكر .. وسَوَّى أبو بكر مكانا لرسول الله ﷺ وفرشه له بجلد شاه وقدم

الطعام فأكل محمد ﷺ ومن معه ، ثم نام بعض الوقت .

وابتدأت الشمس في المغيب ... وابتدأ الأصحاب يُعدُّون أنفسهم لسفر ليل طويل رطيب لا شمس فيه ولا هجير .. وفجأة لاح لأبي بكر في الأفق شبح راكب يَجدُّ في السير نحوهم فخفق قلبه وقال لمحمد ﷺ : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا ... ! وأجاب محمد ﷺ بنفس مطمئنة راضية : لا تحزن يا أبا بكر إن الله معنا .. وكان الله معهم ... فلم يلبث جواد سراقه أن صار قريبا منهم وأصبح على قيد البصر.. وصار صوت حوافره على مسمع منهم .. وإذ ذاك كبا الجواد كبوة عنيفة ساخت من شدتها قائمتاه في رمال متفككه متخلخلة فسقط راكبه متدحرجا فوق الرمال التي تطايرت في وجهه مثل هبات الرماد .. وزاد تطيُّر سراقه واشتد تشاؤمه لما أزمع أن يقدم عليه في حق محمد ﷺ ... وأدرك أن إلهه لا يرضى عما إنتوى عليه .. فوقف حيث هو ونادى بأعلى صوته على محمد ﷺ ورفاقه : أنا سراقه بن جُعْشُمْ، أنظروني أكلمكم .. فوالله لا أريبكم .. ولا يأتيكم مني شئ تكرهونه .

فقال محمد ﷺ لأبي بكر : سله ما يبغي منا .

فسأله أبو بكر : ما تبغي من رسول الله ؟

قال سراقه : أن يكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينه

فقال محمد ﷺ : أكتب له يا أبا بكر ، فكتب له كتابا على قطعة عظم ، أو في رقعة على لسان النبي ﷺ وألقاه إليه فأخذه سراقه وجعله في كنانته، وكَرَّ بجواده عائدا إلى مكة .. ثم عاد إلى الناس فوجدهم جادين في البحث عن محمد ﷺ فجعل لا يلقى أحداً منهم إلا رَدَّهُ وهو يقول : كُفيتم هذا الوجه ، ومَنَعَهُ وصده أصبح أول النهار جاهدا عليهما وأمسى آخره حارسا لهما ... !

حتى إذا كان فتح مكة ، وفرغ رسول الله ﷺ من حنين والطائف .. خرج سراقه ومعه كتاب رسول الله ﷺ .. ورفع يده به وأسلم .

وسار الركب في حفظ الله .. وفي أثناء سيرهم مروا بخيمة (أم معبد

الخزاعية) وكانت إمرأة قوية الأخلاق .. عفيفة ، تقابل الرجال ، فتتحدث إليهم وتستضيفهم ، وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم يصيبوا شيئا عندها من ذلك .. فقد كانت سنة من السنين العجاف فقالت لهم : والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى ركن الخيمة فقال :

ما هذه الشاة يا أم معبد ؟

قالت : هذه الشاة خلفها التعب عن الغنم !

فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها من لبن ؟

قالت : هى أجهد من ذلك! قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبا . فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال : اللهم بارك لها فى شاتها فامتلأ ضرع الشاة ، ودَرَّ لبنها ، فدعا بإناء لها كبير فحلب فيه حتى ملأه ، فسقى أم معبد فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ﷺ آخرهم وقال : «ساقى القوم آخرهم » فشربوا جميعا مرة بعد مرة ، ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ثم إرتحلوا عنها ، فما لبث أن جاء زوجها يسوق عنزا عجافاً هزلى ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال : من أين لكم هذا ولا حلوبة فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنــه مَرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ...

قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطلب .. صفيه لى يا أم معبد ؟

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه ، حسن الخلق ، لم تَعبْهُ تجله (ضخامة البطن) ولم تزر به صعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ، فى عينيه دعج[1] وفى أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) وفى

---

(١) شدة السواد مع سعتها (العين)

صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل ، أزج[1] أقرن[2] شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطح (إرتفاع وطول) وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن .. حلو المنطق فصل لانذر ولا هذر (لا ثرثرة فى كلامه) أجهر الناس ، وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا .. له رفقاء يخصون به ، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه فى طاعته) محشود (يحتشد الناس حوله) ، لا عابث ولا مفند (غير مخرف فى الكلام) .

قال أبو معبد : هذه والله صفات صاحب قريش الذى ذكر لنا أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه ، ولأ فعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

★★★

﴿ نبذة عن الهجرة من زاوية أخرى ﴾

الهجرة حقيقة تاريخية .. ورمز روحى جميل يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته .. بل فى كل نفس من أنفاسه .

وللدكتور عبد الحليم محمود رأى عن الهجرة كرمز يقول :

عن الهجرة الروحية : الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان ، الهجرة بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى ، ويتجاوز الزمان والمكان قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة وفى القرآن الكريم ، يقول رسول الله ﷺ فيما

---

(١) زج حاجبه : رق فى طول

(٢) قرن الشيئ بالشئ : وصله والمعنى موصول الحاجبين (انظر قاموس المنجد) مادة ق ر ن .

رواه البخاري رضى الله عنه :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » هذا المعنى الروحي نتبينه في وضوح سافر فيا يلى :

يقول الله تعالى : « **إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذا يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** »[1] وفى هذه الآية الكريمة يصور الله تعالى إخراج الكفار للرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكة ، وهجرته مستخفيا فى جنح من الليل مفارقا البلدة التى ولد فيها ، والتى بها عشيرته وقومه .. إلى بلدة يجد فيها حرية الدعوة إلى الله ..

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى يصوره بأنه إنتصار فى الوقت الذى كان فيه الرسول ﷺ مختبئا فى الغار هو والصديق رضوان الله عليهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون فى كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك فى أن الهجرة كانت إنتصارا مبينا .. لأنها فرار إلى الله، والفرار إلى الله انتصار حتى ولو انتهى بالموت أو القتل :

« **والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين** »[2] ونحن مأمورون بالفرار إلى الله، أى بالهجرة إليه :

«**ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين**[3]» وسيدنا

---

(١) سورة التوبة آيه ٤٠ (٢) سورة الحج آيه ٥٨

(٣) سورة الذاريات آيه ٥٠

ابراهيم عليه السلام قال : « **إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم** »[1] .

وقال : « **إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** »[2] .

والفرار إلى الله والهجرة إليه ، والذهاب إليه من صفات المؤمنين الصادقين .. إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه يوميا ، فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هى إلى دنيا يصيبها ، أو إلى إمرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده .. متمحضة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك ، كان الله معه .. يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تحزن إن الله معنا » ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين لا شريك له ، ومن كان كذلك فإن الله ينزل عليه السكينة أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها العين ، فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير العين ، هادئ البال سعيدا ولو ألقى فى النار لأنه سوف لا يشعر بها ، إلا بردا وسلاما .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه تعالى . وأول مرحلة فى سبيل الهجرة إليه سبحانه إنما هى النية الخالصة لوجهه الكريم يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله .. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

---

(١) سورة العنكبوت آيه ٢٦

(٢) سورة الصافات آيه ٩٩

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى ، كانت الأعمال هجرة إليه ، أما إذا لم تتوجه النية إليه فإن الأعمال - ولو كانت خيرا فى ظاهرها - تكون هباء منثورا ، ومن هنا يتبين المؤمنون حقا فساد الأفكار التى يروجها الحائدون عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : إن العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير لإرضاء الضمير ، إن كان ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهما إلى الله أسسا وغايات إنحرفت بهما الإرادات والنيات إلى الشر والإفساد ... فشقيت بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى إلا عن طريق الدين ، وقد حاولت العقول - مستقلة عن الدين - تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل إلى نتائج .

والمؤمن إذن يهاجر إلى الله بعلمه ، ويهاجر إليه بفنه ، ويهاجر إليه بعمله الخير على أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها ، إنما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمو بالمؤمن صُعُدًا إلى الصلة بالله ، وإلى النعيم فى رضوانه ، وإلى السعادة فى رحابه .

فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة إلى الوقوف بين يدى الله فهى ذهاب إليه .

والصيام إبتعاد عن المادة فترة من الزمن ... تزكية للنفس وقربى إلى الله فهو ذهاب إليه .

والزكاة إنفصال عن جزء من المادة تقربا إلى الله .. فهى ذهاب إليه

أما مناسك الحج فإنها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم « لبيك اللهم لبيك » .

وختاما فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى إنما تتمثل فى

أروع مظاهرها فى قوله تعالى : « **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** »[1].

ويقول رسول الله ﷺ :

« لا هجرة بعد الفتح إنما جهادونيه »، جهاد فى كل ميادين الجهاد ... ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فإلى هذه الهجرة الكبرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله .

﴿ رحلة الهجرة ومشاق الطريق ﴾

ولنعد للحبيب سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ وهو يطوى البيد طيا محفوفا بعناية الله ورعايته وهو فى طريقه إلى المدينة ....

إن أسفار الصحراء توهي العمالقة الآمنين .. فكيف بركب مهدر الدم مستباح الحق ؟ ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى نارها .. إن الإنسان إذا برز لوهج الظهيرة يوما ينظر إلى الرمال تكاد الأشعة البيضاء المنعكسه على الرمال تخطف بصره ... وعندما تصبح وتُمسى وسط وهاد ونجاد لا تنتهى حتى تبدأ ، تخال العالم كله مهامه مُغْبَرَّة الأرجاء ، داكنة الأرض والسماء ، ولقد جرت عادة المسافرين أن يأووا فى القيلولة إلى أى ظل ، فى بطاح ينتعل كل شئ فيها ظله حتى إذا جنحت الشمس للمغيب ، تحركت المطايا اللاغبة تغالب الجفاف والكرى .

وللعرب طاقة على إحتمال هذا الشظف مع قلة الزاد والرى .

وقد مَرَّ بك أن الرسول ﷺ – وهو طفل لم يناهز السادسة من عمره – قطع هذا الطريق ، ذهب مع أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !

---

(١) سورة الأنعام آيه ١٦٢ - ١٦٣ .

وإنه الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثه والخمسين ، لا لزيارة أبوية اللذين ماتا بالمدينة ... بل لرعاية رسالته التى تشبثت بأرض يشرب جذورها بعدما تبرمت مكة بها ويصاحبها وبمن حوله !!!

إنه أرسخ أهل الأرض يقينا بأن الله ناصره ومظهر دينه .. بيد أنه أسيف للفظاظة التى قوبل بها ، وللجحود الذى لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى الهجرة على هذا النحو العنيف . . ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجوائز المغرية لمن يغتاله أو يأتى به !!!

روى ابن نعيم[1] : أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجرا إلى الله قال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا .. اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر .. ومصائب الليالى والأيام .. اللهم إصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خُلقى فقومنى ، وإليك رب فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى .. رب المستضعفين وأنت ربى ... أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن لا تحلّ علىّ غضبك ، ولا تنزل بى سخطك ، وأعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجاءة نقمتك ، وتحول عافيتك وجميع سخطك... لك العتبى عندى خير ما استطعت ولا حول ولا قوة إلا بك »

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول ﷺ من مكة شاع فى جوانب الصحراء وكأن أسلاك البرق طيرته إلى أقصى البقاع فعلم به البدو والحضر على طول الطريق حتى يثرب .. بل إن المحال التى عرج بها وصل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن انصرف عنها . والناس دائما يعجبون بقصص البطولة . .

---

(١) عزاه إليه ابن كثير (١٨٧/٣) من طريق محمد بن اسحق قال بلغنى أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجرا إلى الله يريد المدينة قال (وذكر هذا الدعاء)

وتستثيرهم ألوان التحدى وهم يتناقلون الأخبار السيالة على الألسن فيضفون عليها ثياب الأساطير .. وقد سُرَّتْ قلوب كثيرة بغلب سيدنا رسول الله ﷺ على من تبعوه .... وترجمت عواطفها هذه شعرا يُتَغَنَّى به ولا يُعرف قائله .... ومن ذلك ما روى عن أسماء بنت أبى بكر قالت[1] :

مكثنا ثلاث ليال ما ندرى أين وجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من أسفل مكة يغنى بأبيات من الشعر :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا	فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصد

قالت أسماء فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وإن وجهه إلى المدينة واطمأنت قلوبنا عليه وعلى أبينا أبى بكر .

★★★

﴿ خروج على بن أبى طالب من مكة ﴾

ظل على بن أبى طالب بعد مفارقة رسول الله ﷺ فى حال من القلق ثلاث ليال وأيامها لا يهدأ له بال خوفا على سلامته .. فما كاد ينتهى من رد الودائع التى استودعها الناس محمدا ﷺ إلى أصحابها ، حتى غادر مكة يبغى اللحاق بابن عمه رسول الله ﷺ فى سرٍّ من أهل مكة دون أن يركب ناقة ، أو يصطحب أتَاناً ، ولكنه خرج على قدميه يجدُّ فى السير

---

(١) اسناده معضل قال ابن اسحق كما فى السيرة (٢/٤-٥) فحدثت اسماء الحديث .. تذكر الابيات وبعضها من غير ابن اسحق كما قال ابن هشام .

ويوسع فى الخُطا ... ! ما أوفاك يا على وما أبرك وما أعلى روحك وأسمى نفسك .. خرج على يسير الليالى ويقطع الأيام وحيدا فى صحراء قاحلة ووهاد عارية ونجاد يَصْعُبُ السير بينها تحت شمس محرقة وهجير لافح قائظ.. ولا رجاء له إلا لقاء محمد ﷺ، ولا أمل له إلا السرعة إلى صحبته .. وواصل علىّ السير يواصل الليل بالنهار حتى دَمِيَتْ قدماه... ولم يحاول أن يرح قدماه ... يريد أن يكسب وقتا حتى يلحق برسول الله ﷺ .

وفى قباء على بعد فرسخين من أبواب المدينة - لحق على بمحمد ﷺ والتقى المجاهد الصغير بالمجاهد الكبير فكانت لهما فرحتان ، فرحة اللقاء والنجاة من كيد الأعداء وفرحة الدخول إلى مدينة الأصدقاء .

﴿ الوصول إلى المدينة ﴾

- - منذ ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة وأهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد .. وكلهم شوق ولهفة لمقدمه .. فإذا اشتد عليهم الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد وملء جوانحهم الترقب والقلق والرجاء .. حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ .. جلسوا كما كانوا يجلسون حتى إذا لم يبق ظل دخلوا بيوتهم .. ووصل محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى مشارف المدينة فكان أول من رآه رجل من اليهود.. وكان يرى ما كانوا يصنعون كل يوم وأنهم كانوا ينتظرون مقدم رسول الله ﷺ .. فصعد على أطم من آطامهم لبعض شأنه فرأى الرسول ﷺ وصحبه يتقاذفهم السراب وتدنو بهم الرواحل رويدا رويدا إلى المدينة إلى وطن الإسلام الجديد فصرخ بأعلى صوته :

يا بنى قيله (هم الأنصار ، وقيلة إخوة كانت لهم) هذا جدكم قد جاء

... جملة اهتزت لها قلوب أهل المدينة وابتهجت لها قلوب الرجال وفرحت لها نفوس النساء والأطفال .. فخرجوا يتزاحمون من دورهم .. كل يسارع لرؤيته .. فرحة لا تقدر ويعجز القلم ترجمتها ... ! وكان هذا اليوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة .

كان خبر مقدم رسول الله ﷺ على أهل المدينة مَبْدَأً حَدَث عظيم إهتز المسلمون والمشركون واليهود له .. ولم يسكن لأهل المدينة ساكن .. ولم تهدأ لهم حركة من وقت أن ترامى إلى سمعهم نبأ مقدم صاحب الرسالة إليهم ...

خرج أهل المدينة شبابا وشيبا يستقبلون النور .. وكان أكثرهم لا يعرفونه لأنهم لم يروه .. وتزاحم الناس حوله وصحبه .. ولم يعرفوه من أبى بكر لأول وهلة حتى أن العواتق كن يتراءينه فوق أسطح البيوت يقلن : أين هو ؟! إلى أن قام أبو بكر فأظل رسول الله ﷺ بردائه حين إنقشعت غمامه كانت تظله..حينئذ عرفه الناس وهللوا وكبروا بكل الحب بكل الشوق .. بكل اللهفة ... وأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسول الله ... وسُمعَ التكبير يرج أرجاء المدينة ... ولبست يثرب حلل العيد وكل من بها خرج ليراه ... ليلقاه....

قال البراء : لما قدم رسول الله ﷺ خرجت المدينة كلها فى استقباله حتى خلت البيوت من أصحابها أطفالا ونساء وشيوخا وعجائز فما رأيت الناس فرحوا بشئ كفرحهم برسول الله ﷺ ، والكل يتصايح ويشير إليه هذا رسول الله قد جاء (حديث صحيح أخرجه البخارى) .

دخل رسول الله ﷺ إلى المدينة التى نصرته حين خذله بلده يحفُّ به الحلفاء والأنصار الذين حالفوه وناصروه .

يا عجبا لنقائض الحياة واختلاف الناس !! ... إن الذى شهرت مكة سلاحها لتقتله ولم ترجع عنه إلا مقهورة .. استقبلته المدينة وهى جذلانة طروب ....!

وكان يوما مشهودا لم تر المدينة يوما مثله على طول مامر بها من أيام ... وعلى كثرة ما شاهدت من أحداث !! .. وتسابق سادة المدينة إلى محمد ﷺ كل منهم يبغى أن ينزل عنده في داره ليختص نفسه بشرف القرب من رسول الله ﷺ فاتجه كل منهم إليه يقول : هلم إلينا يا رسول الله فى العدد والعُدَّة والمَنَعَة ....

وسارت الناقة بمحمد ﷺ فى طرقات المدينة وصحابته حوله .. والحشد من أهل المدينة يجأرون بصوت واحد :

الله أكبر جاء محمد ... الله أكبر جاء رسول الله .. والإماء والأطفال وبنات النجار قريبات الرسول ﷺ يضربون الدفوف وينشدون مرحبين :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع

ما بقى سطح منزل إلا اعتلته النساء ، وما بقيت عالية ولا أكَمَة إلا وقف عليها الناس يتطلعون إليه ويملأون عيونهم من القادم العظيم ويشبعون نفوسهم بمرآه .

لم تشهد المدينة يوما كهذا .. بل إن التاريخ لم يعهد يوم عيد كهذا .. فقد ظل الأهالى قبل مقدمه ما يزيد عن خمسة أيام تحت حرارة الشمس كل يوم ينتظرون مقدم الرسول ﷺ ولما وصل لم تسعهم الفرحة .. يوم مشهود حقا .. مسح كل متاعب الأمس البعيد ومشاق الطريق .. وبَشَّر بغد مشرق بنور الإسلام .

وفى تلك الليلة المباركة نزل رسول الله ﷺ على (كلثوم بن هدم) أخى بنى عمرو بن عوف ولما لحق به على بن أبى طالب أقام معه ، ونزل أبو بكر رضى الله عنه على (حبيب بن أساف) فأقام رسول الله ﷺ فى بنى

عـمـرو بن عـوف يوم الأثنين (اليـوم الذى وصل فـيـه) ويوم الـثـلاثـاء ويوم الأربعـاء ويوم الخميس أسس خلالهـم (مسـجد قـباء) وهو أول مسـجد أسس فى الإسلام وفيه نزل قوله تعالى :

« لمسـجـد أسس على التـقـوى من أول يـوم أحق أن تـقـوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا »[1] .

﴿ أول جمعة صلاها الرسول ﷺ فى المدينة ﴾

ويوم الجمعة غادر رسول الله ﷺ قباء وتوجه حيث يوجهه الله ، فأدركته الجمعه فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، فكانت أول جـمـعـة صـلاها فى المدينة.. فـأتـاه رجـال من بنى سـالم بن عـوف فقالوا : يا رسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة ....قال رسول الله ﷺ : خلوا سبيلها فإنها مأمورة (على ناقتـه) فخلوا سبيلها فانطلقت حتى وازنت دار (بنى بياضـه) .. فتلقاه رجال من بنى بيـاضـه فقالوا : يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .. فـخلوا سـبيـلها حتى إذا مـرت بدار (بنى سـاعـدة) اعـتـرضـه رجـال مـن بنى ساعدة فقالوا : يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فخلوا سبيلها . . . فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه رجال من بنى الحارث بن الخزرج فقالوا : يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فـخلوا سبيلها . . فـانـطلقت حـتى إذا مـرت بدار (بنى عـدى بن النجـار) - وهم أخـوالـه - إعـتـرضــه رجـال من بنى عـدى بن النجـار فـقـالوا : يا رسـول الله هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة ... قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ...

---

(١) سورة التوبة من الأيه : ١٠٨

فخلوا سبيلها .. فانطلقت ... حتى إذا أتت دار (بنى مالك بن النجار) بركت على مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار .. فلما بركت ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل بعد ، وَثَبَتْ فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ثم التفتت إلى خلفها .. فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه .....

فنزل عنها رسول الله ﷺ... فاحتمل (أبو أيوب خالد بن زيد) رحله فوضعه فى بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ.. وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له (معاذ بن عفراء) : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى ، وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجدا .

فأمر به رسول الله ﷺ أن يبنى مسجدا ، ونزل رسول الله ﷺ على بنى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ... وعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين فى العمل .. فعمل فى بنائه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه .

﴿ مسجد الرسول ﷺ ﴾

بادر الرسول ﷺ بادئ ذى بدء فى بناء المسجد لتقام فيه شعائر الإسلام التى طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التى تربط المرء برب العالمين وتنقى القلب من أدران الأرض وكان الغلامان اليتيمان يريدان النزول عنه لله، فأبى رسول الله ﷺ إلا إبتياعه بثمنه .. وكان المربد يُتَّخَذْ مصلى كهذه المصليات التى تنتشر فى ريفنا وكانت تنبت فيه نخل وشجر غرقد وتختفى فى ترابه بعض قبور المشركين ، فأمر الرسول ﷺ بالنخل فقطع وبالقبور فنبشت[١] وبالخرب فسويت ... وصفوا النخيل قبلة للمسجد[٢] -

---

(١) هى أجداث أتى عليها البلى حتى هجرت فلا يدفن فيها أحد

(٢) ثبت هذا فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس

والقبلة يومئذ بيت المقدس - وجعل طوله مما يلى القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك تقريبا ، وجعلت عضادتاه من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى باللبن ، واشترك رسول الله ﷺ فى حمل النبات والأحجار مع المهاجرين والأنصار.. وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء .. بهذا الغناء :

اللهم إن العيش عيش الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجرة

وقد ضاعف الحماس للصحابة فى العمل رؤيتهم النبى ﷺ يجهد كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم .. فارتجز بعضهم هذا البيت :

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

وتم بناء المسجد فى حدود البساطة .. فراشه الرمال والحصباء .. وسقفه الجريد ... وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت الأرض .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذى ربى ملائكة البشر ، ومؤدبى الجبابرة ، وملوك الدار الآخرة .

فى هذا المسجد أذِنَ الرحمن لنبى يَؤُمُّ بالقرآن خيرة من آمن ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى ، تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى .. فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هى لُباب الإسلام ، ولكن الناس - لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة - إستعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة ، تضم مصلين أقزاما ...

أما الأسلاف الكبار فقد إنصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها ، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام .

والمسجد الذى وجه رسول الله ﷺ همته إلى بنائه قبل أى عمل آخر بالمدينة ، وليس أرضا تحتكر العبادة فوقها ، فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد فى عبادته بمكان .. إنما هو رمز لم يكترث له الإسلام أعظم إكتراث، ويتشبث به أشد التشبث ، وهو وَصْل العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل وأطراف النهار .. فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر .. وتخلط المعروف بالمنكر .

والحضارة التى جاء بها الإسلام .. تُذكرٌ أبدا بالله ولقائه وتمسك بالمعروف ، وتبغض فى المنكر ، وتقف على حدود الله ....

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحتشد مع صحبه فى إقامة المسجد ، يمهده للصلاة فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكا يغمز ؟؟

وروى البيهقى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال[1] :

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة .. أنه ﷺ قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله لَيُصْعَقَنَّ أحدكم، ثم لَيَدَعَنَّ غنمه ثم ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن إستطاع أن يقى نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .. والسلام عيلكم وعلى رسول الله » .

* * *

----

(١) هكذا أورده الحافظ بن كثير فى (البدايه) (٣/٢١٤) وقد روى ابن جرير (٢/١١٥ - ١١٥٥) بسند صحيح عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحى .

﴿ نبذة عن الفترة التى قضاها رسول الله ﷺ فى بيت أبى أيوب ﴾

قال ابن اسحق :

وحدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن مرثد بن عبد الله اليزنى ، عن أبى رهم السماعى قال : حدثنى أبو أيوب قال :

لما نزل رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السفل (يعنى الدور الأرضى) وأنا وأم أيوب فى العلو (يعنى الدور العلوى) فقلت له : يا نبى الله بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن اكون فوقك ، وتكون أنت تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل ، فقال : يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت ».

قال : فكان رسول الله ﷺ فى سفله ،وكنا فوقه فى المسكن ، وفى يوم إنكسر لنا حب (إناء للماء) فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله ﷺ شئ فيؤذيه .

قال : وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا رَدَّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة .. حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا فيه بصلا أو ثوما فردَّه رسول الله ﷺ ، ولم أرليده فيه أثرا .. قال : فجئته فزعا فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك نبتغى بذلك البركة قال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ربى ، فأما أنتم فكلوه ،

واعـتـزلونى تلك الليلة ، قـال : فـأكلناه .. ولم نصنع له تلك الشـجرة بعـد .
(حديث صحيح الاسناد) .

وأقـام رسـول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمـها شـهـر ربيع الأول إلى صـفـر من السنه الداخله حتى بنى له مسـجده ومسـاكنه وانتقل من عند أبى أيوب إلى مـسـاكنه واسـتـجـمع له إسـلام هذا الحى من الأنصـار ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا ماكـان من (خطمـة وواقف ووائل وأمـية) وتلك أوس الله وهم حى من الأوس فإنهم أقاموا على شركهم .

ولما إنتـقل رسـول الله ﷺ إلى داره ، كـانت فـرحـة بنى النجـار - أخـوال عـبد المطلب جد الرسول ﷺ - بجيـرة الرسول لهم لا تقدر .. وكـانت جوارى بنى النجار لا ينقطعن عن إظهار فرحهن ، وابداء سرورهن فيرددن :

نحن جوارى من بنى النجار يا حبـــذا محمـد من جـار

★★★

﴿ الاستقرار بالمدينة ﴾

ومـضت الأيام .. . وفـيـهـا إسـتـتب الأمـر لمحـمـد ﷺ وللمـهـاجـرين فى المدينة، فـقـد بعث الرسول ﷺ من أحضـر أهل بيتـه ، وأهل بيت أبى بكر ، كمـا أرسـل أصحابه من أحضر لهم أهلهم وذويهم .. وكذلك خرج المؤمنون من مكة تبـاعـا بأولادهم ونسـائهم .. وإن كـانوا لم يسـتطيـعـوا أن يخرجوا إلا بالنزر اليسير من متاعهم وأموالهم .

ولكن الأنصـار من أهل المدينة فتحـوا لهم بيـوتهم ، وبذلوا من أمـوالهم ما أعـانهم على تحمل مطالب العيش حتى تيسر لهم أن يزاولوا من الأعـمـال مـا يقـيم من شـأنهم فـزاول بعـضـهم التـجـارة .. وزاول بعـضـهم الزراعـة فى أراضى الأنصار ومزارعهم .

وبذلك أسس المهاجرون المجاهدون معاشهم ، وفتحوا بيوتا لأسرهم وأولادهم من جديد . أما من كان على فقر ومسغبة ، ولم تمكنه ظروفه أن يكون له عمل ، وأن يكون له بيت فقد فرض النبى ﷺ له مالا من مال المسلمين يعيش منه ، وأفسح له من المسجد مكانا يبيت فيه .

وباء كان بالمدينة إبان الهجرة :

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين الفارين بدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل الهين . وفى عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكله تحتاج إلى الحل السريع ..

ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات ؟؟!!!

وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة (بحمى الملاريا) فلم تمض أيام حتى مرض بها أبو بكر وبلال وغيرهم . واستوخم الصحابة جو المهجر الذى آواهم .. ثم أخذت تستيقظ غرائز الحنين إلى الوطن المفقود .. ! فكان النبى ﷺ يصبر الصحابة على احتمال الشدائد .. ويطالبهم بالمزيد من الجهد والصبر والتضحية لنصرة الإسلام وقال :

« لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة ولا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه »[1].

وهذا ضرب من جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به ، وتنفر من مغادرته .

وعن عائشه قالت :

لما قدم النبى ﷺ ، وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا

---

(١) حديث صحيح أخرجة مسلم (١١٣/٤) واحمد(رقم ١٥٨٣)

أبت كيف تجدك ؟ .. ويا بلال كيف تجدك ؟ وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل إمرئ مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

قالت : فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال :

« اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا فى مدّها وأنقل حماها وإجعلها بالجحفة »[1] .

وعن أبى هريرة قال[2] : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بأول الثمر قال : اللهم بارك لنا فى مدينتنا وفى ثمارنا وفى مدنا وفى صاعنا ، بركة مع بركة .. اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكه، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يعطيه أصغر من يحضر عنده من الولدان ...

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم إجعل بالمدينة ضِعْفى ما جعلت بمكة من البركة »[3] .

بهذا التشوق والإقبال ارتفع الروح المعنوى بين المسلمين .. واتجهت القوى الفتية إلى البناء .. متناسية الماضى وما يضم من الذكريات ...

إن الهجرة الخالصة لا تعود فى هبة ، ولا ترجع عن تضحية ، ولا تبكى على فائت بل هى كما قال الشاعر :

إذا إنصرفت نفسى عن الشئ لم تكد   إليه بوجه آخر الدهر تقبل

★★★

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٩-٢١٠) وأحمد (٦/ ٢٥ ، ٢٢١- ٢٢٢) ورواه مسلم (٤/١١٩) .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤/١١٧)

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤/٧٨) ومسلم (٤/١١٥) وأحمد (٢/١٤٢) .

﴿ الدعائم التى تقوم عليها الرسالة ﴾

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس همها أن تعيش بأى أسلوب ، أو تخط طريقها فى الحياه إلى أى وجهه ، وما دامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت .. كلا ... كلا ... فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله وتوضح نظرتهم إلى الحياة .. وتنظم شئونهم فى الداخل على أنحاء خاصة .. وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة .. والمهاجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم إبتغاء ثراء أو استعلاء .

والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء ، وأهدنوا أعناقهم للقاصى والدانى لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق ....

إنهم جميعا يريدون أن يستضيئوا بالوحى .. وأن يحصلوا على رضوان الله ، وأن يحققوا الحكمة العليا التى من أجلها خلق الإنسان وقامت الحياه.....

وهل الإنسان إذا جحد ربه ، وتبع هواه ، إلا حيوان ذميم أو شيطان رجيم ؟!

ومن هنا شغل رسول الله ﷺ - أول مستقره - بالمدينة بوضع الدعائم التى لابد منها لقيام رسالته ، وتبين معالمها فى الشئون الآتيه :

١ - صلة الأمة بالله .

٢ - صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر.

٣ - صلة الأمة بالأجانب عنها ممن لا يدينون بدينها .

ففى الأمر الأول : بادر الرسول ﷺ إلى بناء المسجد

﴿ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ﴾

أما عن الأمر الثانى وهو صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر :

فقد أقامه الرسول ﷺ على الإخاء الكامل .. الإخاء الذى تُمحي فيه كلمة «أنا » .. ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها ، فلا يرى لنفسه كيانا دونها ، ولا إمتداداً إلا فيها ....

ومعنى هذا الإخاء ، أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن .. فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة (عقداً نافذاً) لا لفظا فارغاً ، وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر....

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج فى هذه الإخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال ، حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، فما نزل مهاجر على أنصارى إلا بقرعة .. وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ، ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف .

روى البخارى : أنهم لما قدموا آخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن ربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا ، فأقسم مالى نصفين ولى إمرأتان فانظر أعجبهما إليك ، فسمها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ...

قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى مالك وفى أهلك ، أين سوقكم ؟ ... فدلوه على السوق (وهو سوق بنى قينقاع) ، فما انقلب إلا ومعه فضل

من أقط وسمن [1].. ثم تابع الغدو .. ثم جاء يوما ، وبه أثر صفرة (زينة) فقال النبى ﷺ : مهيم [2] ؟

قال : تزوجت ... قال عليه الصلاة والسلام : كم سقت اليها ؟

قال : نواة من ذهب .

واعجاب المرء بسماحة (سعد) لا يعدله إلا إعجابه بنبل (عبد الرحمن) هذا الذى زاحم اليهود فى سوقهم ، وبزهم فى ميدانهم ، واستطاع - بعد أيام - أن يكسب ما يعف به نفسه ، ويحصن به فرجه !! إن عُلُوّ الهمة من خلائق الإيمان ، وقَبّح الله وجوه أقوام إنتسبوا للإسلام فأكلوه وأكلوا به ، حتى أضاعوا كرامة الحق فى هذا العالم .

وكان الرسول ﷺ الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة ، لم يتميز عنهم بلقب إعظام خاص ، وفى الحديث : « لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذته - يعنى أبا بكر - خليلا ولكن إخوة الإسلام أفضل »[3] .

والإخاء الحق لا ينبت فى البيئات الخسيسة فحيث يشع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جُبِلُوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية، ما سجلت لهم الدينا هذا التآخى الوثيق فى ذات الله . فَسموُّ الغاية التى التقوا عليها ، وجلال الأسوة التى قادتهم إليها نَمِيًا فيهم جلال الفضل والشرف ، ولم يدعا مكانا لنجوم رديئة .

---

(١) الجبن .

(٢) سؤال عن حاله .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٤/٧) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ .

ذلك ثم إن محمدا ﷺ كان إنساناتجمع فيه ما تفرق فى عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخبرات .. فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر ... فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه ، وداروا فى فلكه رجالا يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق بسيل وحده ، ولا يتكلف إستخراجه بالآلات والأثقال .. والإخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم .. وإنما هى أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعة .

وقد تبودلت الإخوة بين المسلمين الأوائل لأنهم إرتقوا - بالإسلام - فى نواحى حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخوانا، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض .

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة فى توارث التركات إلى « موقعة بدر » حتى نزل قوله تعالى :

« **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شئ عليم**»[1].فألغى التوارث بعقد الإخوة ، ورجع إلى ذوى الرحم .

وروى البخارى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى :

« **ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** »[2]. قال : كان المهاجرون - لما قدموا - المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه ، للأخوة التى آخى النبى ﷺ فلما نزلت : « **ولكل جعلنا موالى ...** »[3]

---

(١) سورة الأنفال من الآيه ٧٥

(٢) سورة النساء من الآيه : ٣٣

(٣) سورة النساء من الآيه : ٣٣

نسخت ثم قال : « **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** »[1] من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصى له .

وروى فى تفصيل هذا الإخاء أن النبى ﷺ تآخى مع علىّ ، وتآخى حمزة مع زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وأبو بكر مع خارجة بن زيد بن أبى زهير أخو بلحارث بن الخزرج ، وعمر مع عتبان بن مالك أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطيار فى الجنة ومعاذ بن جبل أخو بنى سلمة أخوين .

وآخى أبو عبيدة بن الجراح (واسمه عامر بن عبد الله) سعد بن معاذ بن النعمان .

وآخى الزبير بن العوام سلمة بن سلامة . وآخى عثمان بن عفان أوس بن ثابت بن المنذر أخو بنى النجار ، وآخى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أبى ابن كعب أخو بنى النجار . وآخى مصعب بن عمير أبو أيوب خالد بن زيد أخو بنى النجار ، وآخى عمار بن ياسر حذيفه بن اليمان ، وآخى أبو ذر وهو برير بن جناده الغفارى والمنذرين عمر المعنق ، وآخى بلال مولى أبى بكر رضى الله عنه ومؤذن الرسول ﷺ أبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن .

فهؤلاء بعض ممن سمى لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .

فلما دَوَّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا قال عمر لبلال : إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟

قال بلال : مع أبى رويحة ، لا أفارقة أبدا للأخوة التى كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبينى .

قال ابن اسحق : وهلك فى تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة ، ومسجد رسول الله يبنى ، أخذته الذبحة أو الشهقة ، وحدثنى عبد الله بن أبى بكر

---

(١) سورة النساء الأيه ٣٣

عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، أن رسول الله ﷺ قال : « بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقى العرب ، يقولون : لو كان نبيا لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئا » (حديث صحيح واسناده مرسل) .

أما عن الأمر الثالث وهو صلة الأمة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها :

فإن الرسول ﷺ ، قد سَنَّ فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى عالم ملئ بالتعصب والتغالى ، والذى يظن أن الإسلام لا يقبل جوار دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا إنفردوا فى العالم بالبقاء والتسلط هو رجل مخطئ بل متحامل جرئ .

عندما جاء النبى ﷺ إلى المدينة وجد بها يهودا توطنوا ، ومشركين مستقرين ، فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة ، أو الخصام، بل قبل - عن طيب خاطر - وجود اليهودية والوثنية ، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه .

ونحن نقتطف فقرات من نصوص المعاهدة التى أبرمها الرسول الكريم ﷺ مع اليهود ، دليلا على إتجاه الإسلام فى هذا الشأن :

بعض نصوص المعاهدة :

١ - أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة .

٢ - وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو إبتغى دسيعة[١] ظلم ، أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

----

(١) محض .

٣ – وأنه لا يُجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ...

٤ – وأنه لا يحلُّ لمؤمن أقَرَّ بما فى هذه الصحفية ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا[1] ولا يؤويه ، وأنه من ينصره ، أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٥ – وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٦ – وأن يهود بنى عوف أمة من المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

٧ – وأن ليهود بنى النجار ، والحارث ، وساعدة وبنى جشم ، وبنى الأوس .. الخ مثل ماليهود بنى عوف .

٨ – وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

٩ – وأن بينهم النصح والنصيحة والبر ، دون الإثم .

١٠ – وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

١١ – وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة ، وأبَرِّه ...

١٢ – وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

١٣ – وأن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم وأثم .

١٤ – وأن الله جار لمن بَرَّ واتقى[2] .

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين فى التعاون الخالص مع يهود المدينة، لنشر السكينة فى ربوعها ، والضرب على أيدى العادين ومدبرى الفتن ، أيا كان دينهم .

---

(١) مجرما

(٢) روى هذه الصحيفة ابن اسحق (٢/١٦-١٨) بدون اسناد

ولقد نصت - بوضوح - على أن حرية الدين مكفولة .

فليس هناك أدنى تفكير فى محاربة طائفة ، أو إكراه مستضعف ، بل تكاثفت العبارات فى هذه المعاهدة على نصرة المظلوم ، وحماية الجار ، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة ، واستنزل تأييد الله على أبرِّ ما فيها وأتقاه، كما استنزل غضبه على من يخون ويغش ....

ويلاحظ أن الرسول ﷺ فى هذه المعاهدة أشار إلى العداوة القائمة بين المسلمين ومشركى مكة ، وأعلن رفضه الحاسم لموالاتها - وحرّم إسداء أى عون لهم وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا تزال جروحهم تقطر دما ليغى قريش وأحلافها عليهم ؟؟

﴿ ضلال اليهود وجحودهم ﴾

أكان اليهود صادقين فى موافقتهم على هذا العهد ؟؟!!

أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين إرتضوه وقبلوا إنفاذه .

وآفة العهود أن يرتبط الوفاء بها بمدى المنفعة المرجوه منها ، فإذا بدا أن المعاهدة المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاه ، قَلَّ التَمَسُّك والتمست الفرص للتحلل منها .

وقد كان اليهود - وما زالوا - يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق العرب فلما دخل العرب فى الإسلام ، وأخذت الحزازات تتلاشى ، وتتابعت الأيام تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة ، إستشعر اليهود القلق وساورتهم الهموم ،وشرعوا يفكرون فى الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه .. ثم إن اليهود فى المدينة يكونون البيئة التى تتوافر فيها سوءات التدين المصنوع ، والاحتراف السمج بمبادئ السماء ، وأبرز خلال

هذه البيئات الحقد والنفاق ، والتمسك بالقشور ، والولع بالجدل ... ومن وراء ذلك قلوب خربة ، ونفوس مُعْوَجَّة ، وربما إقتبسوا من جوارهم للعرب فضائل الصحراء كالكرم والشجاعة .. بيد أن إنطواء هم العنصرى غلب على سيرتهم فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم كما تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة !

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام .. فإذا لم يرحبوا به فليكونوا على الأقل أبطأ من الوثنيين فى مخاصمته .. فإن محمدا ﷺ يدعو إلى توحيد الله ، وإصلاح العمل ، والإستعداد لحياة أفضل فى الدار الآخرة ، والدين الذى جاء به الرسول ﷺ وَقَّرَ موسى وأعلى شأنه ، ونوَّه بكتابه ، وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه ، ويلزموا حدوده .. لكن اليهود صمتوا - أولا - صمت المستريب ثم بدالهم ، فقرروا المعالنة بالجحود .

وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلائله فى كثير من الآيات ، فإن عبدة الأصنام إذا أنكروا (النبوة) ، فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها :

«ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب»[1].

وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله ، فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا وجدوا من يذكرهم به :

« ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آيتناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون »[2].

---

(١) سورة الرعد أيه ٤٣

(٢) سورة القصص : ٥١ . ٥٢

غير أنك تدهش إذ تجد الجرأة على الله ، والنفور من أحكامه ، ووصفه بما لا يليق شائعة بين اليهود شيوعها بين المشركين .

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولدا ، فماذا ترى فيمن يصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟! : « **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ..** »[1] .

« **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق** »[2].

على أن الإسلام يدع أولئك الجحدة فى ضلالهم ، فلا يستأصل كفرهم بالسيف .. ويكتفى بأن يعلن دعوته ويكشف حقيقته فمن استراح إليها فدخل فيها فبها ونعمت .. وإلا فهو وشأنه ، ولا يطالبه الإسلام بشئ إلا الأدب والمسالمة وترك الحق يسير ، من غير عائق أو نكير .

ولقد جاء الرسول ﷺ إلى المدينة فمدَّ يده إلى اليهود مصافحا ، وتحمل الأذى مسامحا .. حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ، ومحو دينه ، إستدار اليهم .. وجرت بينهم من الوقائع ما سنقص أخباره فى مواقعه.

★★★

﴿ خبر الأذان ﴾

قال ابن اسحق : فلما إطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع إليه أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفُرِضَ الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصارهم الذين تبوءوا الدار والإيمان .

---

(١) سورة المائدة : من الآيه : ٦٤

(٢) سورة أل عمران آيه ١٨١

وقد كان رسول ﷺ حين قدمها ، إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة .. فَهَمَّ رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فَنُحِتَ ليُضرب للمسلمين للصلاة فبينما هم على ذلك إذ رأى (عبد الله بن زيد بن ثعلبه بن عبد ربه أخو الحارث بن الخزرج) النداء فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله إنه طاف بى هذه الليلة طائف : مَرَّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فقلت : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة .

قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟

قال : تقول : « الله أكبر .. الله أكبر ، الله أكبر .. الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله .. أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة .. حى على الصلاة ، حى على الفلاح .. حى على الفلاح ، الله أكبر .. الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : « أنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها فإنه أندى صوتا منك » فلما أذَّن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله ﷺ ، وهو يجر رداءه وهو يقول :

يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ: « فلله الحمد على ذلك ».

قال ابن اسحق : حدثنى بهذا الحديث محمد بن ابراهيم بن الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبه بن عبد ربه ، عن أبيه (إسناده حسن) .

هذه الكلمات الطيبة التى ترتفع بين الحين والحين ، تقرع الآذان ، وتوقظ القلوب ، وتصيح بالناس : هلموا إلى الله ..وعاها فى رؤيا صالحة ذهن نَيِّر، فأسرع بها إلى رسول الله ﷺ يرويها كما ألقيت فى روعه .. لتكون

نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة .

وكان رسول الله ﷺ يربط أصحابه بالوحى النازل عليه من السماء ربطا مُوَثّقاً ، يقرؤه عليهم ، ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المدارسة اشعاراً بما على الصحاب من حقوق الدعوة ، وتبعات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبُّر.

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ : إقرأ عليّ القرآن ...

فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى .

قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت هذه الآية : « **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** »[1].

قال : حسبك الآن ... فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[2].

وإذا كان الإهتداء إلى ألفاظ الآذان قد ترشحت له سريره مصفاه ، مشغوفة بالعبادة ... مشغولة بالحق فإن من أصحاب رسول الله ﷺ كذلك من اندمجوا فى معانى الإيمان ، وخلصوا لمعين الرسالة حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنويها بمكانهم عند الله ، ورسوخهم فى آياته . عن أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : « **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ..** »[3] »

قال أبى : وسمانى ؟

قال : نعم قال : وذكرت عند رب العالمين ؟

---

(١) سورة النساء ٤١

(٢) أخرجه البخارى (٨/٢٠٢/٩٠٢٧٧/٨٠) ومسلم (٣/١٩٦)

(٣) سورة البينة من الآية ١

قال : نعم قال : فذرفت عيناه[1]...

★★★

﴿ معنى العبادة ﴾

قال الشيخ محمد الغزالى :

إن سر الإرتقاء الروحى والجماعى الذى أدركه صحابة محمد ﷺ أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح ، فلم يشعروا فى الفعل له بما يشعر به الكثير من عنت وتكلف ، ولا بما يعانون من شرود وحيرة ... إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء ، وإقتربوا من حياتهم أتيح لهم مالم يُتحْ لغيرهم من منابع الصفاء ، ووسائل الإرتقاء .

إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة .. بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصبغهم جو القصة المفتعلة ، فيضحكون ، ويبكون ويهدأون ويضجون .. فما ظنّك بقوم يتبعون رجلا تكلمه السماء ؟! ويتفجر من جوانبه الكمال ؟

ويسكب على من حوله آيات الطهر ؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام ، وإذا علقت بمسالكهم شهوة نقَّاها فردٌ عليها سناءها إن للعظماء إشعاعاً يغمر البيئة التى يظهرون فيها ، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضئ منه ، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز فتطوى فى مجاله ، وتمشى فى آثاره ...

وقد إلتف بمحمد صلوات الله وسلامه عليه فريق من الربانيين الأنقياء كانوا له تلاميذ مخلصين ، فزكت بصحبته - نفوسهم وَشَفَّت طباعهم حتى

---

(١) أخرجه البخارى (٨/ ١٠٠ ، ٩٠ /٨٥٩ - ٥٩٠) ومسلم (٢/ ١٩٥)

أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب ، ولا تحسبَنّ العقل - مهما أوتى من نفاذ - يستطيع ادراك الكمال بقوته الخاصة، فإذا لم تسدده عناية عُليا ، فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية ، أو يهتدى طريقا ، كالطيار الذى يضل فى الجو عندما يتكاثر أمام عينيه الضباب .. إنه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ويرسل أنوار مصابيحه فى أحشاء الغيوم المتراكمة ، فإذا لم يتلق إرشادا يحدد له مكانه، ويُعْدُه وكيف يهبط فإنه سوف يظل يحلق عبثا .. ثم تهوى به الريح فى مكان سحيق ، وكم من فلاسفة عالجوا شئون الكون والحياة ، فمنهم من ضَلَّ عن الحق على طول بحثه عنه فلم يصل قط ،، ومنهم من استغرق فى الوصول إليه أعواما طوالا .. ولومشي وراء الرسل لا نتهى إليه فى أيام قصار ، وهو فى مأمن من الشرود والعثار .

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية ، وأشبه الناس بهم من إقتفى آثارهم وأخذ فى طريقهم ، وأول أولئك - قاطبة - من صحبوهم فى حياتهم ، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم .. أولئك هم المصطفون الأخيار ...

قال عبد الله بن مسعود : من كان مُسْتَناً ، فليستن بمن مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ .. كانوا أفضل هذه الأمة .. أبرُّها قلوبا ، وأعمقها علما وأقلها تكلفا .. اختارهم الله لصحبة نبية ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، وإتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وأولئك هم المصطفون الأخيار .

إن محمدا ﷺ .. وَصَّلَ الناس بربهم على ومضات لطاف من تقدير العظمة ورعاية النعمة ، فهم إذا إنبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين إلى أداء

هذه الطاعـات بأشواق من نفوسـهم ، ورغبـات كامنة تجيش بتـوقير العظيم وحمد المنعم .

والعبادة ليست طاعة القهر والسخط .. ولكنها طاعة الرضا والحب . وليست طاعة الجهل والغفلة ولكنها طاعة المعرفة والحصافة .

قد تصدر الحكومة أمرًا بتسعير البضائع ، فيقبل التجار كارهين ، أو أمرا يخفض الرواتب ، فيقبل الموظفون ساخطين ،، تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التى شرع الله للناس ، فالعبادة التى أجراها الله على الألسنه فى الآية الكريمة : « **إياك نعبد وإياك نستعين** »(١). والتى جعلها حكمة الوجود ، وغاية الأحياء فى قوله : « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**»(٢) .

تعنى الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة .

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط الكاوية .. إنما تولد الإجادة ، ويبلغ الشئ درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا ، فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد وهب له نفسه وحسَّه وعاش يحلم به فى منامه، وينشط له فى يقظته ، وذلك يرقى به صُعُدًا فى فهم مبدئه وإجادة خدمته، ومن ثَمَّ فإن الإسلام لا يحفل بالإيمان النظرى البحت ، ولا يقبله إلا ليكون سلما إلى ما بعده ، وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً .

والمسلم كل المسلم هو الذى يعرف الله معرفة اليقين ، ويضم إلى هذه المعرفة إحساسا يعترف بمجادةً المجيد ، ونعماء المنعم تباركت أسماؤه .

---

(١) سورة الفاتحة ٥

(٢) سورة الذاريات ٥٦

والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المُنتج ، وهو صانع العجائب ، وبانى الدول ، ومقيم الحضارات السنية هو الذى يجعل الفرد يستحلى التكاليف المنوطة بعنقة ، فيُقبل على أدائها ، وكأنها رغبات نفس لا واجبات دين ، أتظن أن رسول الله ﷺ عندما قام يصلى حتى تورمت قدماه .. كان يغالب الألم الناتج فى بدنه ، كما يغالبه التلميذ المذنب عندما يوقف الساعات الطوال معذبا مهانا ؟! كلا إن استعذابه للمناجاه ، واستغراقة فى الخشوع أذهلاه عما به ، وغلبا عليه بوادر الألم الناشئ من طول الوقوف .

والرجل الموفور الحماس ، الفائر العاطفة .. قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل فى عمله ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردين ، ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجز .

هذا الإيمان المرتكز على العواطف المتقدة هو الذى أشعل المعارك الطاحنه، وقاد إلى النصر المظفر وهو الذى هدم ما تركز قرونا طويلة من سلطان الظلم والبغى ....

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان فى العقل والعاطفة معا ، يغذو شجرته الباسقة مزيد من معرفة الله ، والشعور بعظمته ونعمته .

ذلكم أسلوب القرآن فى تعريف الناس بالله ، إنه أسلوب يقيمهم على عبودية الحب والتفانى لا على عبودية التحقير والهوان ، عبودية الإعجاب بالعظمة ، والإقرار بالإحسان .. لا العبودية المبهمة التى تصادر الإرادة «**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين إصطفى ءآلله خير أما يشركون**»[1].

---

(١) النمل ٥٩

« أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون »[١] .

« أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون»![٢].

« أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون »![٣].

أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر و من يرسل الرياح بُشْراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ! أمن يبدأ الخلق ثم يعيد ه و من يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[٤] .

إن هذا التساؤل المتواصل السريع يفتح على النفس آفاقا بعيدة من الإيمان الذكى ، ويجعلها تهرع إلى الله متجردة .. تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال الكبار من عبث الصبية .

★★★

---

(١) النمل ٦٠

(٢) النمل ٦١

(٣) النمل ٦٢

(٤) النمل ٦٣، ٦٤

﴿ عداوة اليهود للرسول ﷺ ﴾

جاء محمد ﷺ إلى المدينة ، واستقبله أكثر اليهود كما استقبله هؤلاء الأنصار بالفرح والسرور .. كل يريد أن ينتصر به ، وكل يريد أن يضمه إلى جانبه ، وعاهد محمد ﷺ اليهود ووادعهم ، وأمنهم على دينهم وأموالهم ، وكتب لهم المحالفات والمعاهدات [1] وتقرب منهم وجامل رؤساءهم حتى صام يوم صومهم ، ثم انصرف يدعو إلى دين الله ، ويعمل على نصرة المسلمين .. ولكن هل هذا الذى كان يريده اليهود منه ؟!!

هل ظلوا السنين الكثيرة ، والآماد الطويلة ينتظرون مبعث النبى الذى حدثتهم كتبهم عنه ، ليضموه إليهم ، وينتصروا به على أعدائهم فى الدين من أهل النصرانية . ثم يأتى النبى الذى انتظروه فإذا هو يدعو إلى دين تعاليمه غير تعاليمهم ، وإذا الأوس والخزرج هم الذين يتبعونه ، ويشتد ساعدهم به ؟! ما العمل - إذن - وقد رأوا الأوس والخزرج يدخلون فى دين محمد تباعا وشاهدوهم يجلسون إليه يستمعون إلى مايتلوه عليهم من آيات بينات تنير أذهانهم ، وخشى اليهود تكتل الأوس والخزرج مؤمنين أكثر مما خشوهم مشركين .. وخافوا ظهور سلطان محمد ﷺ بالمدينة عليهم فيزول سلطانهم وسيادتهم .. ثم كانت الداهية التى نزلت فوق رءوسهم وهى :

إسلام حبرهم وعالمهم (عبد الله بن سلام)

وكان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان حبرا عالما قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوقع له ، فكنت

---

(١) سبق ذكر نصوص المعاهدة بين الرسول ﷺ واليهود .

مُسراً لذلك صامتا عليه حتى إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسه.. فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرت .. فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري : خيبَّك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت !! فقلت لها : أي عمة ، هو والله أخو موسٰى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أي ابن أخي .: أهو النبي الذي كنا نخبر به ، وأنه يبعث مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم قالت : فذاك إذن قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ، وكتمت إسلامي من يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له : إن يهود قوم بُهت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .. فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم :

أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا.. قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود ، إتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة بإسم وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأصدقه ، وأعرفه .

فقالوا : كذبت ويهتوا مما فوجئوا به ، ولكنهم مالبثوا أن صاحوا بالحُصَيْن يكذبونه فيما قال ، ويسبونه ويسفهون رأيه ، عندئذ التفت الحصين إلى الرسول ﷺ وقال له : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وفجور ؟!

قال الحصين : وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي ، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها .

لقد كان اليهود يخشون علي مكانتهم وسيادتهم في المدينة من سلطان محمد .. والآن باتوا يخشون على دينهم من دعوة محمد ﷺ[1]. كانوا يعلمون أن محمدا ﷺ رسول الله وأنه جاء يدعو إلى الإسلام متمما لرسالة عيسى وموسى ، مُصَحِّحاً ما حرّف اليهود في التوراة .. ولكنهم مع ذلك أبوا إلا أن يعادوه ، وإلا أن يكذبوه متبعين في ذلك أبعد حدود السفه والضلال حتى أن حُيَيّ بن أخطب سيد يهود بني النضير كان ممن خرج هو وأخوه أبو ياسر لملاقاة محمد ﷺ حين مقدمه إلى المدينة ، فلما عادا الأخوان إلى دارهما في المساء بعد أن شاهدا رسول الله ، عادا وهما يجران أرجلهما جرا ، وقد بدت عليهما علامات الهم والكدر .. وبينما هما سائران صامتين لا يتحدثان لشدة ما بهما من هم وغم قطع صمتهما فجأة صوت أبي ياسر فقد اتجه إلى أخيه وقال بصوت عال وهو يستعجب : أهو هو ؟! أجاب حيي: نعم والله ، قال أبو ياسر : أتعرفه وتُثْبِتُهُ ؟ قال حيي : نعم ، قال أبو ياسر : فما في نفسك منه ؟ أجاب حيي : عداوته والله ما بقيت . أي سَفَهٍ !! وأي ضلال !! يكون بعد هذا السفه وهذا الضلال من سيد يهود بني النضير ؟! وعلى مثل هذا المسلك تجاه محمد ﷺ كان أكثر اليهود !! ولكنهم ظلوا يكتمون ما في نفوسهم ، ويخفون ما في صدورهم حتى باتوا يخشون سلطان محمد ﷺ على سلطانهم ويخافون دعوته على دينهم ، فها قد اتبع محمدا منهم : الحصين بن سلام ، وثعلبه بن سَعْيَة وأسيد بن سَعْيَه ، وأُسد بن عبيد، ولم يطق اليهود بعد ذلك صبرا ، فكشفوا قناعهم ، وخلعوا حجاب

---

(١) سبق ذكر هذه القصه بكاملها في باب البشريات وانما أعدنا ذكرها هنا للتنويه عن بدايه مرحلة العداوة بين اليهود والرسول ﷺ .

ريائهم ، فابتدأوا يناوشون محمدا ﷺ ويحاجونه ويسفهون رأيه ، ويرمون من أسلم منهم بأنهم شرارهم ويقولون : لو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره

﴿ المنافقون ﴾

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغيا وحسدا وضغناً لما خصَّ الله تعالى به العرب من أخذه رسول الله منهم وأضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسا على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره ، واجتماع قومهم عليه فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جُنّة من القتل ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهودلتكذيبهم النبى ﷺ وجحودهم الإسلام .

وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل فكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه منهم :

نبتل بن الحارث : وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث ، وكان رجلا جسيما أسود ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين ، وكان يأتى رسول الله ﷺ يتحدث إليه ويسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال : « إن محمدا أذن » من حدثه شيئا صدقه فأنزل الله تعالى فيه :

« قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم »[1].

---

(١) التوبه ٦١

ومنهم : عبد الله بن أبيّ بن سلول : وكان رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون ، وهو الذى قال : « **لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل**»[1] (فى غزوة بنى المصطلق) وفى قوله هذا نزلت سورة المنافقين بأسرها .

وزيد بن اللصيت : وكان ممن تعوذ بالإسلام ، ودخل فيه مع المسلمين ، وأظهره وهو منافق ، وهو من أحبار يهود الذى قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سوق بنى قينقاع ، وهو الذى قال حين ضلت ناقه رسول الله ﷺ: يزعم أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله ﷺ وجاءه الخبر بما قال عدو الله فى رحله ، ودلّ الله تبارك وتعالى رسول الله ﷺ على ناقته : « إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولايدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، فهى فى هذا الشعب ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف .

ورافع بن حر يمله : وهو الذى قال رسول الله ﷺ حين مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون لمسجد رسول الله ﷺ يستمعون إلى ما يتلو الرسول ﷺ من آيات ، وإلى ما يفقههم فيه بما نزل عليه من وحى ، وبهذا أتيح لهؤلاء النفر من اليهود المنافقين أن يحاجوا الرسول فى رسالته ، وأن يحاولوا إحراجه بأسئلتهم المتشككه التى تبذر فى نفوس المسلمين الريبه والشك ، محاولين بذلك فتنة المسلمين فى دينهم ، والبعد بهم عن نبيهم ، والسخرية من عبادتهم .

----

(١) المنافقين من الآيه ٨ .

وفطن النبى ﷺ لأمر هؤلاء النفر فبينما هم جلوس بالمسجد يوما وقد تقاربت رءوسهم ، وانخفضت أصواتهم ، يتساررون فيما بينهم ويتهامسون ، أمر النبى بإخراجهم من المسجد . وما كان إلا أن أصدر النبى أمره هذا حتى سارع المسلمون إلى هؤلاء المنافقين فى حَميَّة المَغيظِ المُحْنَقْ يُلَبِّبونهم فى عنف، ويسحبونهم فى شدة ، حتى ألقوا بهم خارج المسجد.

ففى هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها . ١

وكان ممن نزل فيه القرآن بخاصة من الأحبار وكفار يهود الذين كانوا يسألونه ويتعنتونه ليلبسوا الحق بالباطل أبو ياسر بن أخطب ، مَرَّ برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة البقرة : « **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ..** »[1] فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من يهود فقال : تعلموا والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه « ألم ذلك الكتاب ... »

فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم . فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : يا محمد ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل اليك (ألم ذلك الكتاب) ؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى

فقالوا : أجاءك بها جبريل من عند الله ؟ قال : نعم

قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ، ما نعلمه بيَّن لنبى منهم ما مُدةُ ملكه .

فقال حيى بن أخطب مخاطبا من معه : الألف واحدة واللام ثلاثون ، والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون فى دين إنما مدة ملكه إحدى وسبعون سنة ؟

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هل معك غيره ؟

قال : نعم قال : ماذا؟ قال : « المص »[1].

---

(١) البقرة ١ - ٢ . (٢) سورة الأعراف ١ .

قـــال : هذه والله أثقل وأطول .. الألف واحـــدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعـون، والصـاد تسـعـون فـهـذه إحدى وسـتـون ومـائة سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟

قال : نعم « الر »[1].

قال : هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون والراء مئتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟

قال : نعم « المر »[2].

قـــال : هذه والله أثقـل وأطول الألف واحـــدة واللام ثلاثون ، والميـم أربعـون، والراء مئتان ، فـهذه إحدى وسبعون ومئتـا سنة ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محـمـد .. حتى ما ندرى أقليـلا أعطيت أم كثيرا ؟ ثم قـامـوا عنه .

فقال أبو ياسر لأخيـه حيى بن أخطب ولمن مـعه من الأحبار : مـا يدريكم لعله قـد جـمع هذا كله لمحـمـد إحدى سـبـعـون ، وإحـدى وسـتـون ومـائـه ، وإحـدى وثلاثون ومئتـان ، واحدى وسبعون ومـئتان فذلك سبعمائه وأربع وثلاثون سنة ، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره !

وكـان يهـود يسـتـفـتـحـون على الأوس والخزرج برسـول الله ﷺ قبل مـبعـثـه .. فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون ، فقال لهم مـعاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمة : يا مـعشـر يهود إتقوا الله وأسلموا ، فـقـد كنتم تسـتـفـتـحـون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ....

فـقـال سلام بن مـشـكم أحد بنى النضير : مـا جاءنا بشـئ نعرفـه ، ومـا هو بالذى كنا نذكره لكم . فأنزل الله سبحانه وتعالى فى ذلك من قولهم :

---

(١) سورة يونس ١، سورة هود ١ ، سورة يوسف ١

(٢) سورة الرعد ١

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»[1].

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : يا محمد إئتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفَجِّر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما : **« أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل و من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل »[2].**

ولما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة :

ما أنتم على شئ وكفر بعيسى وبالإنجيل .

فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود :

ما أنتم على شئ وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراه

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم :

« وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهودعلى شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »[3] .

وقال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله ، فليكلمنا حتى نسمع كلامه .

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله :

---

(١) سورة البقرة ٨٩ (٢) البقرة ١٠٨

(٣) سورة البقرة آيه ١١٣

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون »[1] .

ودخل أبو بكر الصديق يوما (بيت المدراس)[2] على يهود فوجد منهم ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر آخر يقال له : أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يافنحاص إتق الله وأسلم .. فوالله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص لأبى بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .
فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال :

والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا فنحاص يا عدو الله . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنظر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟
فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهه .

----

(١) سورة البقرة آيه ١١٨

(٢) وهو البيت الذى يتدارس فيه اليهود كتابهم

﴿ وفـــد نجـــران ﴾

وقـدم عـلى رسـول الله ﷺ وفـد آخر من نصـارى نجران ، سـتون راكبـا ، فـيهم أربعـة عـشر رجلا من أشرافهم ، فى الأربعـة عـشر منهم ثلاثة نفر يئول أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه (عـبد المسيح) ، والسـيد ثمـالهم[1] وصـاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه (الأيهم) ، (وأبو حارثه بن علقمة) أحد بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم .

وكـان أبو حارثه قـد شرف فـيهم ، ودرس كتـبهم حتى حسن علمـه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصـرانيـة قـد شرفـوه ومـولوه ، وأخدمـوه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليـه الكرامـات لما يبلغـهم عنه من علمـه واجتهـاده فى دينهم ، فلمـا رجعوا إلى رسـول الله من نجران جلس أبو حارثه على بغلة له موجها إلى رسول الله ﷺ ، وإلى جنبه أخ له يقال له : (كوز) بن علقمة ، فعثرت بغلة أبى حارثه فقال كوز : تَعِسَ الأبْعد يريد رسول الله ﷺ فقال له أبو حارثه : بل أنت تعست !

فقال : ولم يا أخى ؟

قال : والله لهو النبى الذى كنا ننتظر ...

فقال له كوز : وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟!

قـال : مـا صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ، ومـولونا،وأكرمونا ، وقـد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك .

ولما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر

---

(١) ثمالهم : غياثهم الذى يقوم بأمرهم

عليهم ثياب الحبرات .. جبب وأردية ، فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب، وقد حانت صلاتهم .. فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ يصلون ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق .

فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والأيهم السيد وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف من أمرهم ، يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصرانية .

فهم يحتجون فى قولهم (هو الله) بأنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرا.

ويحتجون فى قولهم (إنه ولد الله) بأنهم يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله .

ويحتجون فى قولهم : (إنه ثالث ثلاثة) بقول الله : فعلنا ، وأمرنا، وخلقنا وقضينا .

فيقولون : لوكان واحدا ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت .

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ : أسلما

قالا : قد أسلمنا . قال : أنكما لم تسلما ، فأسلما...

قالا : بلى قد أسلمنا قبلك

قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤ كما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟

فصمت عنهما رسول الله ﷺ ولم يجبهما .

فأنزل الله سبحانه وتعالى فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله ، صدر

سورة (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها .

ولما أمر رسول الله ﷺ بما أمر من ملاعنتهم ، دعاهم إلى ذلك : « **فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** »(١).

فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمدا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم، ولا نبت صغيرهم . وإنه للإستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن إبعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء إختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

فقال النبى ﷺ :

إئتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين، فكان عمر بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليرانى فلم يزل يلتمس ببصره ، حتى رأى (أبا عبيدة بن الجراح) فدعاه ، فقال : أخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة .

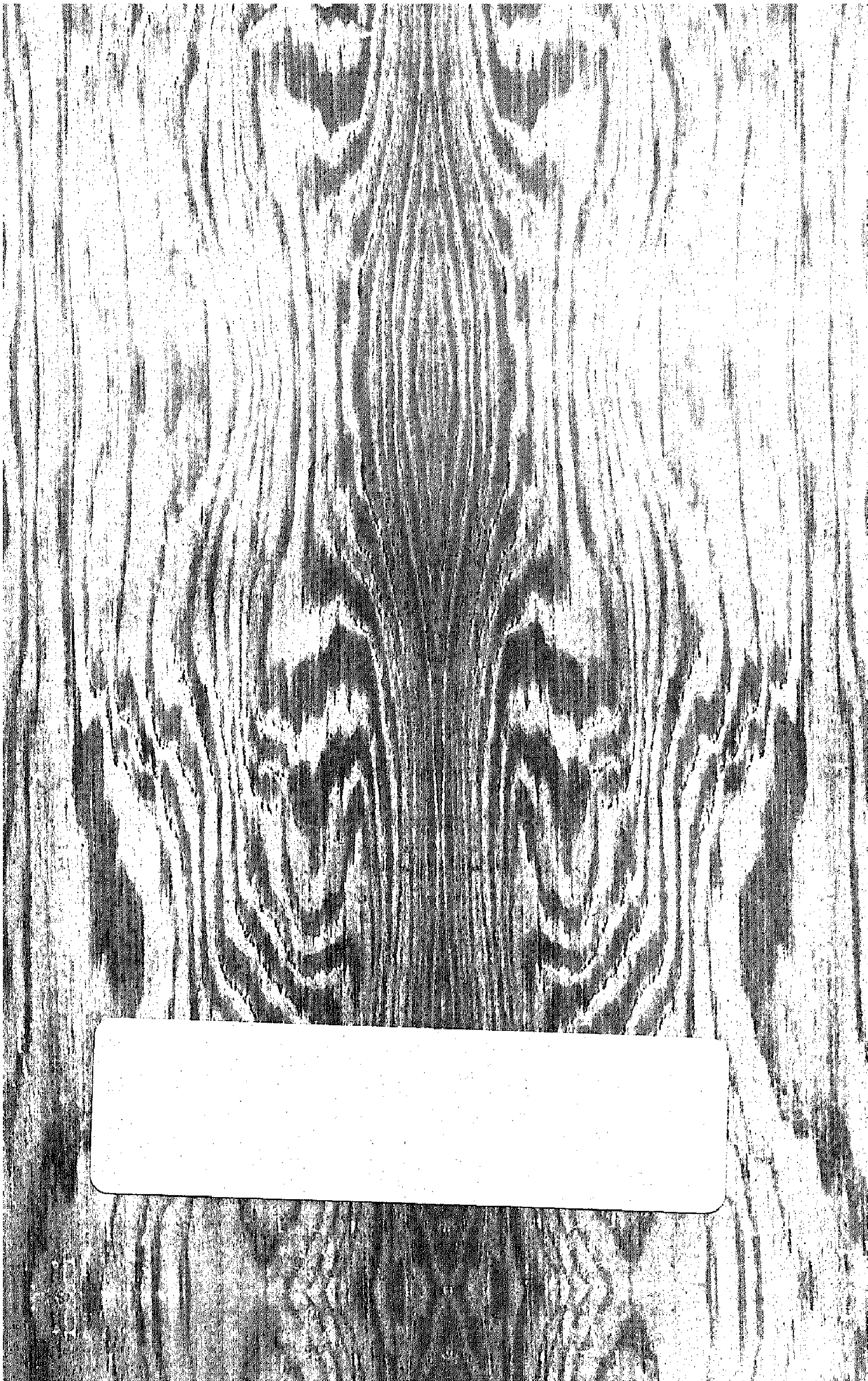
---

(١) آل عمران آيه ٦١

أما عبد الله بن أبى سلول ، فكان قومه قد نظموا له التاج بالخرز ليتوجوه ، وقد كان سيد أهل المدينة لا يختلف عليه فى شرفه إثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل واحد من الفريقين حتى جاء الإسلام وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه للإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام ، دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن .

★★★

الفهـــــرس





محمد صلى الله عليه وسلم